دراسات منهجية هادفة
في التربية والتزكية والسلوك
(١)

تربيتنا الروحية

سعيد حوى

طبعة منقحة
خص بها المؤلف دار السلام

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة السادسة
1419 هـ - 1999 م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة – مصر 120 شارع الأزهر ص ب 161 الغورية
هاتف 5932820 - 2704280 - 2741578 (202) فاكس 2741750 (202)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ. وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

ملاحظة

كنت قد أزمعت أن أخرج هذا الكتاب تحت عنوان تصوف الحركة الإسلامية المعاصرة ولكن لملابسات متعددة جعلته تحت عنوان (تربيتنا الروحية) وإنما ذكرت هذه الملاحظة هنا لأن مضمون الكتاب قد يكون مرتبطاً بالعنوان الأصيل له ، فليلاحظ القارىء ذلك .

تربيتنا الروحية

مقدمة سلسلة
« في التربية والتزكية والسلوك »

تتألف هذه السلسلة من ثلاثة كتب ، وهي على الترتيب التالي :

ـ كتاب تربيتنا الروحية ، وهو هذا الكتاب .

ـ كتاب المستخلص في تزكية الأنفس .

ـ كتاب مذكرات في منازل الصديقين والربانيين .

والذي دعاني إلى كتابة هذه السلسلة أمور :

١ ـ حاجة الحركة الإسلامية المعاصرة ـ متمثلة في علماء الإسلام ودعاته ـ إلى نظرية واضحة عن التصوف وعن السير الروحي بآنٍ واحد . إن النظرة الواضحة عن التصوف تعصم من الانحراف في تياره الغالي أو في التيار المعادي على غير بصيرة . والسير الروحي لأبناء الحركة الإسلامية شيء لابد منه ، ومن ثم كان الفقه فيه كالفقه في قضايا التنظيم والتخطيط وغير ذلك من أمور لا يسع المسلم المعاصر أن لا تكون له صلة نظرية وعملية بها .

٢ ـ ندرة الكتاب الصوفي المحرر على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة ومذاهبهم الفقهية ، حتى إنني كنت أستشعر حرجاً أن أذكر لإنسان كتاباً في التصوف ؛ وذلك لأن الكثير من كتب التصوف داخلها ما لا يرتاح له العالم ، فتجد عبارات غير منضبطة ، أو شطحات غير متزنة ، أو تضخيماً لأمر على حساب أمر ، فكان لابد من كتب تضع الأمور في مواضعها ؛ لتكون بمثابة ميزان يستطيع المسلم منه أن ينطلق ليقرأ في كتب التصوف على بصيرة فيما ينبغي أن يأخذ أو يدع ، على ضوء ضوابط سلمية ترتاح لها قلوب المنصفين .

٣ ـ إن كثيرين ممن كتبوا في هذا العلم جعلوه علمَ الخاصة ، مع أنه العلم الذي يطالب به كل إنسان ؛ لارتباطه بقضايا يطالب بها كل إنسان ، كصحة القلب وزكاة النفس وغير ذلك من أمور كلها تكليفية في حق عامة الخلق ، فكان لابد من كتب تجعل الأمر في محله .

٤ - ثم إن هذا العلم في مسيرته التاريخية اختلط فيه - أكثر من أي علم آخر - أمور جعلته كالألغاز ، وجعلته أحياناً وكأنه شيء آخر غير العلم وغير النصوص ، وجعلته أحياناً مستقلاً عن علوم التوحيد والفقه وأصول الفقه ، بل جعلته أحياناً إلهامياً له قوة الوحي في التشريع أو في التقرير ، وكل ذلك عجيب غريب في علم يجب أن يكون كبقية العلوم الإسلامية محرراً منقحاً . إنه من العجيب أن قارىء كتب التصوف - في الغالب - يشعر أنه أمام ألغاز وراء الدين ، وبدلاً من أن يكون هذا العلم طريقاً للتحقق بالنصوص أصبح شيئاً وراء النصوص ، وذلك ما يجرح كبد الفقيه ، ومن ثم فإني لم أستشعر اطمئناناً - إلا نادراً - أن أدل إنساناً على كتاب تصوف ما لم يكن هذا الإنسان فقيهاً ، وعنده وسوسة الفقيه في تقليب الرأي فيما يقرأ ، وفيما إذا كان ما يقرؤه منطبقاً على النصوص . وإذ كان من طبعي ألا أقول ما يجرح مشاعر مسلم في قضية تحتمل أكثر من وجه فإني لا أرغب في التدليل بأن أنقل وأنقد وأرد .

ولعل أبشع ما في الأمر أن تجد كثيراً من المتحذلقين يأتون إلى آية من آيات الله لا تفهم إلا على وجه واحد ، ويحاولون أن يعطوها مضمونات أخرى ويبنون على مثل هذا جبالاً من الأمور والمسائل ، والأمر كله وهم أو تحريف . وكان يغنيهم عن هذا كله الوقوف عند النصوص ، ومحاولة فهمها ، وتفهيمها ، والسير للتحقق بها . إنه لو كان ذلك لكان جيداً بل وكمالاً ، وهذا الذي نريد تحقيقه في هذه السلسلة وهذا الذي حاولناه مع غيره في سلسلة « الأساس في المنهج » .

٥ - ثم إن أكثر المشتغلين بهذا العلم تصوراتهم الإسلامية قاصرة ، ومفاهيمهم ضيقة ، ويعيشون بعيدين عن عصرهم ، وعن بدهيات في الإسلام لا ينبغي أن تغيب عن مسلم معاصر . فأن يبقى هذا العلم قصراً على هؤلاء ؛ فإن في ذلك إبقاءً لمريدي السير إلى الله في أجواء غير صحية ، فكان لابد للحركة الإسلامية الصافية أن تحرّر هذا الموضوع ، كما حرّرت غيره من المواضيع التي تشكل ألف باء الفهم للإسلام وللعمل المعاصر من أجله . ولئن مرت عصور كان للتصوف الجاهل وللصوفية الجهلة دور في إغفال الجهاد ، فقد آن الأوان أن يعود التصوف إلى وضعه الطبيعي ، فيكون في خدمة قضية الجهاد ، كما هو الشأن في كثير من الحالات التي انبثق عن التربية الصوفية عمل جهادي ، وإن ننس فلا ننسى ثورة الشيخ سعيد الكردي النقشبندي في تركيا ، وثورة الشيخ شامل النقشبندي في تركستان ، وحركة

عـالم كبير في الهنـد التي هي أثر عن جهود الشيخ الفـاروقي المجـددي ، وحركـة السنوسيين في ليبيا ، وحركة الدراويش في السودان .

هذه معانٍ وغيرها كثير كانت دافعاً نحو تأليف هذه السلسلة .

وكل مسلم في الحقيقة سائر إلى الله ما دام يفعل مـا أمره الله عز وجل ، ولـه حظـه من مقامات السير بذلـك ، ولكن البحث عن الكمـال والوصول إليـه وإتيـان البيوت من أبوابها ومعرفة المصـادر والموارد والبـدايـات والنهـايـات والحـدود والقيود للمقـامـات كلها دنيـاهـا وعلياها ، هذا الذي يطلق عليه اسم السير الكامل ، ومن هنا نـدرك غلـط الـذي لا يتصور أي سير لله عز وجل إلا من خلال التصوف . ونـدرك خطـأ الـذي يـأخـذ على أصل وجود طريق التصوف والسير فيه ، وهو شيء ذكرناه في كتاب جولات ؛ رداً على من ينكر وجود علم التصوف ، وهنا نريد أن نرد على غلاة الصوفية الـذين لا يتصورون سيراً إلى الله بـدون سير على يدي أهل الطريق ، إذ الصحـابـة ـ رضوان الله عنهم ـ ومن بعـدهم إلى أن تقعـدت قواعد علم التصوف ما كان لهم همٌّ إلا دراسة الكتاب والسنَّة وتطبيق ذلـك فـإن لم يكن هـذا سيراً فما هو السير ؟ ومن هذه النقاط البسيطـة يستطيع المسلم أن يـدرك بعض ملامح هـذه السلسلة فلنكتف في هذه المقدمة بذلك .

ولا شـك أن الكتـابـة في هـذا الموضوع ستثير كثيرين أصبح التصـوف عنـدهم هـو رأس البلاء وسبب الفساد .

ولا شك أن هناك أسباباً كثيرة أوصلت هؤلاء إلى مثل هذه النتـائج ، ومع وجود هـذه الأسباب ومع وجود هؤلاء الناس كتبت هذه السلسلة وأعتبر كتابتي لهـا فريضـة ، فنحن في عصر مادي وهذا يقتضي منا أن نقابله بفكر مكافىء وبحيوية روحية عـاليـة ، ونحن في عصر شهواني جاهلي وهذا يقتضي منا أن نقابله بأشواق روحية راقية مع تـأمين الشهوات المبـاحـة وإبقاء منافذها مفتوحة ، ونحن في عصر قلما يوجد فيه من يضبط نفسـه على مقتضى الأدب الإسلامي الرفيع وهذا يقتضي منا إلحاحاً على التربية النفسيـة الرفيعـة ، وإذا كان هـذا كلـه طريقه التصوف الصحيح السليم ، فإن الكتـابـة في ذلـك أصبحت ضروريـة ، ثم إن الحركـة الإسلامية الحديثة وهي حركة يفترض أنها تجديدية لابد ـ وأحد ملامحها الأصيلة أنها حقيقة صوفية ، كما ذكر ذلك مجتهدها الأكبر الأستاذ حسن البنا رحمـه الله ـ من أن تكتب في هـذا

الموضوع فتجدد فيه ، معيدة إياه إلى أصوله الصحيحة ومنابعه الصافية ، ومبعدة عنه ما علق به من دخن كبير ؛ فتضع الأمور في مواضعها في هذا العلم وغيره . وإذا كانت هناك حساسيات عند أتباع هذا العلم فلا يقبلون مناقشة في عبارة من عبارات أهله أو في تصرف من تصرفاتهم . وإذا كانت هناك حساسيات عند المنكرين عليه فلا يقبلون اسمه ولا أهله ولا مباحثه ولا الكلام فيه ، فإن المجددين في هذه الأمة لا يسعهم أن يقابلوا أمثال هذا كله إلا بكلمة الحق الصادقة التي تضع الأمور في مواضعها ، فهذا وحده الذي يحسن بالعالم وتصلح به الأمة ، إذا لم يفعل العالم ذلك فإنه لا يكون قد أدى أمانة العلم في جيله .

إن تسعين في المائة من الأمة الإسلامية خلال قرون متعددة لهم صلة بالتصوف وأهله بشكل من الأشكال إما بالاشتغال به أو بالتلمذة على أهله أو بالصلة بهم أو بالثقة فيهم أو بالانتساب الإسمي لهم أو لمن تتلمذ عليهم ، ولا زال التصوف وأهله حتى الآن هم الذين يصلون إلى بيئات ومناطق لا يصل إليها غيرهم ، فإذا كان الأمر كذلك فإن هذا الأمر وحده كاف لأن يعطي المبرر الكبير للكتابة في هذا الموضوع لتحريره وتنقيحه ووضع الأمور في مواضعها فيه ، فلا يكفي أن تذكر الخطأ في شيء ، وإنما عليك أن تبين الصواب فيه ، ولا يكفي أن تهدم ، بل عليك أن تبني ، وعليك دائماً أن تقدم البديل الصالح للمبدل عنه الخاطىء خاصة إذا كان ما أنت فيه يستحيل الاستغناء عنه أو التفريط فيه أو تجاهله .

لابد من صيغة صحيحة كبديل عن الأساس الواهي أو الضعيف ، ولابد من بيان الحق في كل أمر ، ومن جملة ذلك مباحث علم التصوف وأفعال أهله وأقوالهم ، وهذا وحده مبرر كاف للكتابة في هذا الموضوع ، على أن الأمر أوسع من ذلك ، وضرورات الكتابة في هذا الموضوع أكبر بكثير مما يظنه الظانون ، فالقلب والروح والنفس والعقل والجسد وأشياء كثيرة كبيرة كلها تقتضي بياناً من العاملين في الدعوة إلى الله ، وإذا لم يؤدوا واجب البيان الصحيح يبقى للضلال سلطانه على النفوس بواسطة البيان الخاطىء ، ويبقى للمستغلين لقضايا التطلعات العليا للقلوب والأرواح سلطانهم على من يسمع لهم ، دون أن يكون لديه ميزان صحيح ، أو معرفة سليمة من خلالها يعرف ما يسمع وما لا يسمع وما يقبل وما لا يقبل وما يجب فيه الرفض وما يجوز فيه القبول وما محل ما يلقى إليه وما يدعى إليه في

شرع الله ... وإني لأظن أن أكثر ما سيذهب الإنكار عليَّ فيه في هذه السلسلة هو قضية الاسم ، فهناك ناس لا يطيقون أن يسمعوا اسم تصوف وصوفية ؛ ولهؤلاء أقول : على رسلكم فهذا هو التاريخ بيني وبينكم إنه لم ينكر خلال العصور اسم التصوف أحد من الناس ؛ لأنه اصطلاح على علم كعلم النحو والبديع والمعاني والفقه وغير ذلك ، ولا مشاحة في الاصطلاح ، كما يقول العلماء ، وحتى في عصرنا هذه فتاوى ابن تيمية خرج منها مجلدان تحت اسم التصوف والأخلاق ، ولم أر على ذلك منكراً ، فأرجو التأني في الإنكار على قضية لا مبرر للإنكار فيها أصلاً ، إذ ما مبرر الإنكار على اسم مباح أُطلق على علم من العلوم حتى أصبح علماً عليه ؟ فإذا تجاوزوا هذه النقطة - وينبغي تجاوزها - فإن المضمون هو الذي ينبغي أن يكون محل النقاش ؛ فليكن همنا هو الوصول إلى الحق في المضمون بدلاً من مناقشة في جانب لايترتب على النقاش فيه أي طائل .

ولقد حاولنا في هذه السلسلة أن نقدم نوعاً من التصوف المحرر على ضوء الكتاب والسنّة ومذاهب أهل الحق ؛ لإيماننا أن هذا وحده هو الذي يجب أن يكون وأن يصير إليه الناس جميعاً ، فالسير إلى الله لا يمكن أن يلغى ، بل يجب أن يكون حثيثاً ، ولكن ينبغي أن يحرر ويدقق ، وتحرر مسائله تحريراً دقيقاً ، فليس الصوفية ولا غيرهم معصومين ، والمعصوم هو الكتاب والسنّة ، وقديماً قال أكبر أعلام الصوفية في عصره أبو سليمان الداراني - رحمه الله - : (ربما وقعت النكتة من كلام القوم في قلبي فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل من الكتاب والسنّة ؛ لأن الله عز وجل ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها لي فيما سوى ذلك) . ومن هنا ندرك خطأ الصوفي الذي يريد أن يجعل كل حرف قاله صوفي معصوماً ، والذي يريد أن يجعل لكتب الصوفية من العصمة ما للكتاب والسنّة . إن أمثال هؤلاء لا فارق بينهم وبين غلاة اليهود والنصارى الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالمسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾[1] فإذا كان رأينا في أمثال هؤلاء كذلك فرأينا في الذين يرفضون أصل علم التصوف وما فيه لمجرد أن وجد خطأ فيه هو أن هؤلاء يجانبون الرأي الصحيح في هذا الموضوع ، فيقابلون خطأ بخطأ ، ويتصرفون برد فعل انفعالي غير عقلاني ولا متزن .

---

(١) التوبة : ٣١ .

ولقد حاولنا في هذه السلسلة أن نضع قدم المسلم في سير إلى الله صحيح وخالٍ من الخطأ ، وحاولنا أن نرسم الطريق لوجود طبقة من الورّاث الكاملين لرسول الله ﷺ يحملون دعوة الله كاملة ، ويربون الناس ظاهراً وباطناً على الحق ، فإن أصبنا في ذلك فلله الحمد وإن أخطأنا فإننا نستغفر الله ، ونحن على استعداد إذا قامت الحجة على خطأ منا أن نتراجع عنه جهرة ، فإن الحق وحده هو الذي نحرص عليه ، ونحرص على التمسك به ، وإنّ في قول الله عز وجل : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾[1] لعظة لنا ولغيرنا تحول دون مجانبة الحق خشية من الخلق ، ونحب أن نؤكد أنه إذا كنا في هذه السلسلة قد حاولنا إبراز ماهية سير صوفي محرر ، فحملنا خلال ذلك على انحراف ، وصححنا خطأ ، وأيّدنا حقاً ، فإننا في ذلك لم نأت بدعاً من الأمر ، فلم يزل العلماء خلال العصور يقررون السير إلى الله ، ويؤيدونه ، ويهاجمون المتصوفة الخاطئين ، أو المبتدعين أو الجاهلين ، ولم يزل المتصوفة أنفسهم يبرزون الجوانب الإيجابية في هذا العلم ، ويحملون على الخطأ في التطبيق ، ولنضرب على ذلك مثلين ، مثلاً عن العلماء ومثلاً عن الصوفية :

أ ـ في مقدمة كتاب / كفاية الأخيار / في فقه الشافعية يقول مؤلفه : (اعلم أن طلاب العلم مختلفون باختلاف مقاصدهم ، وهممهم مختلفة باختلاف مراتبهم ، فهذا يتطلب الغوص في البحر ونحوه لنيل الدرر الكبار ، وهذا يقنع بما يجد في غاية الاختصار ، ثم هذا القانع صنفان أحدهما ذو عيال قد غلبه همُّ الرزق ، والآخر يتوجه إلى الله تعالى بصدق وجد ، فلا الأول يقدر على ملازمة الخلق والسالك مشغول بما هو بصدده ليله ونهاره مع نفسه في قلق فأردت ...) لاحظ قوله : والسالك مشغول بما هو بصدده ليله ونهاره مع نفسه في قلق ، فهنا كلام عن سالكين متوجهين إلى الله عز وجل ، وفي مقامٍ آخر من كتابه يحمل على الصوفية . من هذا كله ندرك أدب العلماء ، فالسلوك إلى الله مطلوب ، وجوانب الخطأ تُقَوَّمَ هي وأهلها في الله ولننتقل إلى المثال الآخر .

ب ـ في قصيدة المباحث الأصلية لابن البنا السرقسطي وهي قصيدة لها عند الصوفية مقام كبير ، يقال في مقام من هذه القصيدة :

هـذا الطريـق من أجـلّ الطرق ... فـافهم هـديت واقتـده بنطـق

---

(١) يس : ١٢ .

ثم هو نفسه يقول في مقامٍ آخر :

فهـــذه طريقــــة قــــد دُرست ... وشجرة أغصـــانهـــا قـــد يبست
كانت إذن مــــوارداً شريفـــــة ... فـــاستبـدلت مـذاهبـاً سخيفـة
قـــد أُسست على صحيـح العقـل ... وإنهـــا الآن بمحض الجهـــل
يـدعي الـذي يمشي عليهـا سـالـك ... وسـالكـوهـا اليـوم حـزب هـالـك

ثم يقول بعد أبيات :

يـا قـاصـداً علم الطريـق السـالف ... لا تقتـــد بهـــذه الطـــوائف
مــــا منهم من علم المقصـــودا ... منـــه ولا الـــوارد والمـــورودا
لم يعرفـوا حقيقـــة الطريقـــة ... فـــالقـوم جهـــال على الحقيقـــة
فـــاحـــذرهـــو خشيـــة يفتنـــوكا ... واترك سبيـــلاً لم يــــزل متروكاً

وإذن فما جرينا عليه هو دأب العلماء والصوفية بآنٍ واحد خلال العصور ، نقول هذا ليعرف الصوفي والعالم بآنٍ واحد أننا لم نأت بدعاً من الأمر بل ما نحن فيه هو الذي يجب أن يصار إليه ، والعبرة للتحقيق والحكم الفصل للنصوص ، قال تعالى : ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾[1] والصدر مفتوح لكل كلمة حق تقال ، سواء قالها صوفي أو سلفي بلا حساسية من أحد ، فلا يليق بطالب علم أن يكون إلاعاشقاً للحق باحثاً عنه ، إذا عثر عليه اعتنقه ، أما ما سوى ذلك فشأن أهل الأهواء ...

إن للتصوف فيما آل إليه جانبين : جانباً عملياً ، وجانباً نظرياً ، والجانب العملي منه ما هو متفق مع السنّة ، ومنه ما يخالفها ، والجانب النظري منه ما هو من باب الكشوفات والإلهامات ، ومنه ما كان شرطاً لطريقة التحقق بالعقائد وأخلاق النفس ، والمعركة القائمة حول التصوف إنما تدور بسبب بدع الأعمال وبسبب الكشوفات والإلهامات ، وسنحاول أن نضع الأمور في مواضعها في الكثير من هذه الأمور في هذه السلسلة إن شاء الله تعالى .

إن علينا في أمر التصوف واجبين : الأول : أن ندل الإنسان على السير الصحيح إلى الله

---

(١) النساء : ٥٩ .

عز وجل ، والثاني : أن نحرر التصوف من دخنه لتكون لدى المسلم مناعة ضد الوقوع في أسر جاهل أو جهل ، وكل ذلك من أجل الوصول إلى تربية روحية رفيعة وواقعية وهذا الذي حاولنا فعله ، ولكن هذا كا قلت سيدخلني في صراعات مع جهات متعددة بعضها صوفي وبعضها سلفي وبعضها ذو حساسية خاصة بشأن هذه الأمور . سيقول بعض الصوفية : إن هذا ما شم رائحة الذوق الصوفي ، وأنه لم يعرف اصطلاحاتنا ، وأنه لا يحق له أن يتكلم في شيء لا يعرفه ، وسيقول بعض أعداء التصوف : إن في هذا الكتاب خدمة لحلقات الصوفية القائمة على الخطأ ؛ إذ كثيرون سيقرؤونه ويقتنعون بالسير ؛ وتكون الحصيلة أن يذهبوا إلى شيخ من شيوخ الصوفية غير المتحققين بما ذكرت ، والذين يربون على الغلط فيسلكون على يديه وسيُنسَون ما ذكرت أو يفتنون بغيره ... وسيتهمنا بعض الناس أننا منّاعون للخير . ولعله لهذه الأسباب ولأسباب كثيرة مثلها بقيت متردداً آماداً كثيرة في الكلام عن هذه الشؤون . فكم مرة وصلت إلى قناعة بضرورتها ، وكم مرة وصلت إلى قناعة بأن عليّ ألا أفعل ، وأن أكتفي بسلسلة (الأساس في المنهج) عنها ، وأخيراً شرح الله الصدر للكلام ولله الحمد ، ولم يعد في العمر فسحة حتى أحسب للخلق حساباً ، فلا أقول لهذه الأمة الإسلامية كل ما ينبغي أن يقال لها . وبالإجمال أقول لأصناف الناس الذين ذكرتهم :

أ ـ لقد تتلمذت في باب التصوف على ـ من أظنهم ـ أكبر علماء التصوف في عصرنا ، وأكثر الناس تحققاً به ، وأذن لي بعض شيوخ الصوفية بالتربية وتسليك المريدين ، واشترطت عليه أن لا أقيد نفسي بطريقة ، وألا أتقيد في هذا الشأن إلا بالكتاب والسنّة . أقول هذا ليعرف الصوفية أنني أتكلم ـ بفضل الله ـ عن علم وذوق ، وليعرف غيرهم أنه لا يستهويني إلا الكتاب والسنّة .

ب ـ إن الله عز وجل يقول : ﴿ **وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَّبِكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾[1] فنحن مهمتنا التبصير والله عز وجل يقول : ﴿ **مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ** ﴾[2] .

جـ ـ إنني حريص على أن يوجد نوع من التصوف السلفي له شيوخه وحلقاته ،

---

(١) الكهف : ٢٩ .

(٢) الإسراء : ١٥ .

حلقات العلم والذكر ، وليس أمامي غير هذا الطريق .

د ـ لست حريصاً على أن ينفضّ الناس عن شيوخهم ، ولست حريصاً على أن ينقطع خير ، بل على العكس من ذلك أتمنى أن تزداد الصلات الطيبة بين الناس ، وأن تكثر حلقات الخير والعاملون لها ، ولكن على أن يكون ذلك كله مستقيماً على أصول الشريعة وفروعها ، وألا يكون على حساب واجبات أخرى .

هـ ـ لقد ظهر من خلال التجربة للحركة الإسلامية المعاصرة أن الشيء إذا لم تكن أبعاده واضحة لا يؤتي ثماره ، وبعض أبناء الحركة الإسلامية المعاصرة اعتمدوا التربية الصوفية فكراً وسلوكاً بشكل مجمل ، فقد ذكر الأستاذ البنا ـ مثلاً ـ في رسالة التعاليم كيف أن مرحلة من المراحل في دعوته طابعها صوفي من جانب ، وذكر في رسالة المؤتمر الخامس أن من خصائص دعوته أنها حقيقة صوفية ، وترك في مذكراته لمريد التربية الخاصة الحرية في أن يسلك طريق ذلك وذكر ذلك في معرض الكلام عن موقفه من التصوف ، ولكن الذي حدث أن تفسيراً سلفياً في السير إلى الله لم يتم ؛ فكان من آثار ذلك أن كثيرين من أبناء دعوة الأستاذ البنا كانوا يستشعرون فراغاً وخواء روحياً ، فأدى ذلك ببعضهم إلى السلوك على يد شيخ أو شيوخ لم يعرفوا حقيقة الدعوة الإسلامية المعاصرة وضرورتها ، فحرفوهم أو صرفوهم عن واجباتٍ هي في الذروة من فرائض الله في هذا العصر .

و ـ وأخيراً فإن عصرنا عصر الشهوة وعصر النزوة وعصر المادية ؛ ولابد أن نقابل هذه الأشياء فيه بما يكافئها ويقابلها ، وبجزم أقول : إن التربية الصوفية وحدها هي التي تقابل ذلك ؛ فالشهوة لا يحل مشكلتها المقال وحده بل لابد من الحال ، ولابد من البيئة والتربية ، والمادية لا يكافئها الكلمة وحدها بل لابد من الشعور والذوق والإحساسات الإيمانية مع المقال ، والتمرد لا يعالج بالكلمة وحدها بل يعالج بالإخبات لله والتقوى والورع والأدب وهذه طريقها العملي هو التصوف .

فإذا اتضح هذا كله لم يبق إلا أن يناقش مناقش ولماذا اسم التصوف ؟ والجواب كما قلت من قبل : ولماذا اسم النحو ؟ ولماذا اسم البديع ؟ ولماذا اسم الصرف ؟ إنه مجرد اصطلاح على علم نشأ كما نشأت بقية الاصطلاحات وتأكد خلال العصور .

ومن الابتداء أحب أن أسجّل (ولو كررت) أكثر من أمر حول هذه السلسلة .

١ ـ إنني أريد في هذه السلسلة أن أضع قدم المسلم على طريق السير إلى الله ليذوق حقيقة الإيمان ، وفي الوقت نفسه أريد أن يتعرف المسلم على معنى الحقيقة الصوفية التي هي إحدى سمات دعوة الأستاذ البنا ـ رحمه الله ـ وهو الذي قدّم ـ في علمي ـ أصفى اجتهاد في القرن الرابع عشر الهجري ، ولم أرد أن أستوعب موضوع التصوف من بدايته إلى نهايته ، فذلك بحث هو أليق بالدراسات العليا وبأهل الاختصاص ، وأنا أكتب لكل إنسان .

٢ ـ كما أنني أريد في هذه السلسلة أن أضع قدم المسلم على الطريق للدراسات الصوفية ، بحيث يقرأ كتب التصوف وبيده ميزان أو مصباح على ضوئه يسير ، وبه يزن ما يقرأ ، ومن ثم فأنا لا أعتبر هذه السلسلة إلا سلماً للقراءة في كتب التصوف وخاصة كتب المحاسبي والغزالي ـ رحمها الله ـ والرسالة القشيرية للعالم الفارس المجاهد أبي القاسم القشيري .

٣ ـ وليست هذه السلسلة بديلاً عن الصحبة والاجتماع ، ولا تغني عن توجيهات الشيوخ العالمين العاملين ، الواعين البصيرين بأحوال العالم وأحوال المسلمين ، والقادرين على نقل الإنسان من حالة دنيا إلى حالة عليا في الصلاح ، لكنها تدل على النوعية التي ينبغي أن يبحث عنها الإنسان ليأخذ عنها وتدله على طبيعة أخذه ، وتحذره من جوانب الخطأ ، وهي في الوقت نفسه كافية كنقاطِ علام على الطريق إلى الله إذا فقد الإنسان أمثال هؤلاء ، أو هي زاد الطريق ريثما يعثر الإنسان على أحدٍ منهم يستريح للأخذ عنه عقل العالم ويستروح له قلب الفقيه ، ثم إذا أخذ منه أخذ على بصيرة . على أنه إذا التزم الإنسان بما فيها فإنني مطمئن إلى أنها تغنيه وتكفيه في سيره إلى الله بما فيه نجاته عند الله إن شاء الله ، ثم إنني أجيز كل مسلم أحس من نفسه فهماً صحيحاً لها وطبّقها ، وظهرت عليه آثار التطبيق أن يقرئها وأن يربي عليها وخاصة طلاب العلم من خريجي كلية شريعة أو أزهر أو متخرجين على شيوخ .

٤ ـ إنني لم أبنِ في هذه السلسلة على فراغ ، ولم أنشىء علماً من عند نفسي ، بل أخذت الكثير مما تيسّر لي أن أقرأه من كتب الصوفية ، كما أن لي تجربتي ، ونحن في عصر يمر على هذه الأمة يختلط فيه الخير بدخن ، قال حذيفة سائلاً رسول الله ﷺ : فهل بعد هذا الشر

من خير ؟ قال : « نعم وفيـه دخن »[1] . أذكر هذا لأنـه قـد يقول قـائل : إن كاتب هـذه السلسلة قد نقل النقل الفلاني عن الكتاب الفلاني الذي فيه كيت وكيت مما قد أعتبره أنا في نفسي من الدخن الكثير ، يفعل ذلك ليسفِّه السلسلة ويهدم قيمة هذا الجزء الذي نقلته ، وإني لأرجو أن لا يقع المنصف في مثل هذا ؛ لأن الخير قد يختلط بالدخن ، فقد نجد كتاباً فيه الدخن الكثير ولكن فيه الخير الكثير أيضاً ، فإذا كان الأمر كذلك فلا يصح أن يحول بيننا وبين أخذ الخير وجود هذا الدخن ، كما لا يصح لإنسان أن يلزمني بكل كلمة قالها مؤلف في كتاب على أن كلامه كله يمثل رأيي لمجرد أنني نقلت عبارة ، أو سريت على مسرى صاحب هذا الكتاب في شيء منه .

٥ ـ إنني أفهم أن الدعوة الإسلامية المعاصرة تحاول أن تجمع فيها كل الخير الموروث ، محررة إياه من دخنه ، وكل الخير اللازم لهذه الأمة على أن يكون بلا دخن ؛ بل إنني أفهم أن هذا هو الواجب الأول للحركة الإسلامية المعاصرة . لقد انطلق العمل السياسي في الأرض الإسلامية بلا ضوابط ولا قيود ، ونريده بناء منضبطاً بالإسلام خالياً من الدخن منطلقاً على أساس صحيح .

وانطلقت الحركة السلفية في أكثر الأقطار بمفاهيم غامضة وأحياناً خاطئة ، وبطرق يختلط فيها الهدم بالبناء ، ونريدها سلفية منضبطة واضحة المعالم ، تعرف ما ينبغي تهديمه ، وما ينبغي بناؤه .

وورثت الأمة الإسلامية إرثاً ضخماً من كتب التصوف ، ودوائره المتمثلة بمئات الطرق الصوفية ، وفي خضم الإرث تجد خيراً كثيراً ودخناً كثيراً ، ونريدها حقيقة صوفية محررة من الدخن ... وقل مثل ذلك في كل شيء ، ولم يكن حسن البنا رحمه الله مخطئاً ـ وهو الذي قدم أصفى اجتهاد في القرن الماضي ـ عندما جعل من سمات دعوته أنها حقيقة صوفية لأمور :

أ ـ لأن التصوف نزعة أصيلة في النفس البشرية ، فلابد أن تكون جزءاً من أية دعوة راشدة .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

ب ـ لأنه ليس هناك خيار في الرفض المطلق للإرث الصوفي ولا في القبول المطلق ، فكان لابد من وجود ميزان للأخذ وميزان للرفض .

جـ ـ إنه بدون الاستفادة من التجربة الصوفية قد لا نستطيع أن نعالج الكثير من أمراض النفس البشرية التي عقدتها مسيرة الحياة وطبيعة العصر ، فكما أن الكثير من المسائل اليومية احتجنا للإجابة عليها لرأي الفقيه فإن الكثير من المسائل العقلية والروحية والنفسية نحتاج فيها لتجربة المجرب وفيما كتبناه في رسالة (جولات) وفي هذه السلسلة ما يكفي للإقناع .

٦ ـ إنني أعتبر أن نقطة البداية في صحة أمتنا وجود طبقة من الورّاث الكاملين يغطّون احتياجات الدعوة بما يسع الأمة ، أعتبر ذلك هو الخطوة التي لابدّ منها ، وأي فشل في ذلك إنما هو فشل في الصميم ، ولا وراثة إلا إذا اجتمع علم وعمل وحال قلبي .

* * *

لقد جربت كثيراً ورأيت كثيراً ، ونادراً ما وجدت كمالاً في النفس أو إحساناً في السلوك أو قدرة على التعامل إلا إذا وجدت تربية إسلامية صوفية صافية ؛ وذلك لأن مفاتيح النفس البشرية إنما هي في هذه التربية وأصولها وقواعدها ؛ لأن الصوفية هم الذين ورثوا عن رسول الله ﷺ تربية النفس وتزكيتها وتخصصوا لذلك وتفرغوا له وفطنوا لما لم يفطن له غيرهم ، وقامت لهم فيه أسواق من التجارب الثرة في كل عصر فما لم يأخذ الإنسان عنهم تبقى نفسه بعيدة عن الحال النبوية ، إن أهل التصوف الحق هم الذين ملكوا العلم الذي تتهذب به النفوس البشرية ، إنْ في علاقتهم مع الله عز وجل أو فيما سوى ذلك كالقدرة على التعامل مع الناس ... ولقد درجت الحركات الماسونية على أن تسمي الإنسان الذي لم ينتسب إلى المحافل الماسونية حجراً غشيماً ؛ لأنه ليس منحوتاً بحيث يمكن أن يأخذ محله في بناء المجتمع ، والذي نقوله : إن الماسونية يمكن أن تنحت الحجارة ولكن تبقى الحجارة حجارة في قسوتها ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً** ﴾[1] ولكن التصوف والبيئات الصوفية هي القادرة على إيجاد الإنسان في كمالاته

---

(١) البقرة : ٧٤ .

كلها ، الإنسان الذي يقوم بفرائض العبودية لله ، والإنسان الذي يقدم أعظم العطاء في باب التعامل مع الآخرين ، فيقوم بذلك مجتمع كله أدب ، وكله تراحم ، وكله عطف ، وكله مودة ، وكله إيثار وكله لطف ... لكن خلط بعض الصوفية الخير بكثير من الدخن فأثّر على الهيكل العام للبناء ، ومهمتنا في هذا العصر أن نوجد التربية الصوفية الكاملة الصافية ، وذلك بزرع بيئات صوفية صافية ، على أن يأخذ التصوف محله في مجموع الإسلام فلا يكون ملاذاً لكسل أو هرباً عن جهاد ...

وهناك ناس يطرحون سؤالاً إذ أعيتهم الحجج وهو : أليس في الكتاب والسنة ما يغني عن مثل هذا العلم ؟ والجواب : نعم ولكن هذا العلم يجمع المثل إلى المثل ، ثم إنه ليس كل إنسان بقادر على أن يقرأ ويستوعب الجميع ويربط بين المواضيع ، ولابد للإنسان من أساس موضح ، ونقطة انطلاق سريعة المتناول ، ومن ثم كانت هذه السلسلة .

فإذا كانت هذه السلسلة مقيدة بالكتاب والسنة ومحرّرة على ضوء ذلك ، فالإنكار عليها خطأ ؛ لأن المنكر عليها ينبغي أن ينكر على أي كتاب ألف إذ أليس في الكتاب والسنة ما يغني ويكفي ؟ ... وهذا الذي ذكرته في الجواب ههنا هو في الحقيقة السر في نشأة هذا العلم ونشأة كل علم ، لقد وجد علم التصوف واستقر ـ وكما قررنا في رسالة (جولات) لم يكن ممكناً ألا يوجد وأن لا يستقر ـ فعندما تقرأ الكتاب والسنة تجد كلاماً كثيراً عن القلب والإيمان والذوق وأمراض القلوب ودواء هذه الأمراض ، وتجد كلاماً عن صمم القلب وعماه وعن سلامته وسقمه وعن تقواه وفسوقه ، وعن النفس البشرية عن زكاتها وعن فجورها ، وأمثال هذه المعاني فشيء عادي أن يسجل علماء المسلمين كل ما له علاقة بهذه المعاني وهذه القضايا ضمن سجل خاص ، وأن ينشأ نتيجة لذلك علم خاص في كل ما له علاقة في حيثيات هذه المعاني ، وكان هذا العلم هو علم التصوف والسلوك .

فليس المستغرب إذن أن يوجد هذا العلم ، بل المستغرب ألا يوجد إذ دأب علماء المسلمين أن يكتبوا في كل موضوع على حدة ؛ فيضموا الشيء إلى نظيره ومثيله ، ويشرحوا ويفصّلوا ويجيبوا على أي سؤال له علاقة بالموضوع الواحد ، ومن ثم وجد العلم وتطور ، وحدث له ما يحدث لكل علم من التصدي له ممن ليس من أهله والتأليف فيه ممن يتقنه أو لا يتقنه ومن منحرف فيه ومستقيم ، إنه ليس غريباً أن يوجد العلم الذي يسجل فيه المسلمون خلال

تاريخهم ملاحظاتهم وتجاربهم الخاصة في موضوع السير ؛ من الغفلة عن الله إلى اليقظة ، ومن الشرود إلى الالتزام ، ومن مرض النفس والقلب إلى صحتها ، ولكن المستغرب ألا يوجد ، فإذا وجد العلم ووجد المختصون فيه ووجد الآخذون له فقد قام سوقه ، كيف وهو علم يحتاجه كل مسلم ، وإذا كان الأمر كذلك فشيء عادي أن تقوم له مدارس ، وأن يكثر فيه الأخذ والرد ، وأن توجد أشياء كثيرة ترافق هذا العلم وتعتبر من مكملاته أو لوازمه ، وشيء عادي أن يكون الطريق الأقصر للراغب أن يتعلم أو يتعرف أو يعمل ، أن يقرأ هذا العلم في كتبه وأن يأخذه من معدنه وفي هذا المقام يقال ما يقال في غيره من العلوم : الكتاب والسنة فيهما بيان كل شيء ومن ذلك ما له علاقة بهذا العام ولكن ..

هل كل إنسان أحاط بالكتاب والسنة ، وعنده قدرة أن يجمع النظير إلى النظير ، وأن يعرف تفصيل المجمل ، وأن يضع الأمور في مواضعها ؟ وهل الناس متساوون في الفهم ، وفي بعد النظر ، وفي عمق الإدراك ؟ إن الذين ينفرون المسلم العادي من أخذ العلوم من كتبها وأهلها يطولون عليه الطريق ، بل يمنعونه من الوصول ، فكما لا يقال للمسلم : تتبع موضوع الناسخ والمنسوخ من كتب التفسير إن أردته ؛ وكما لا يقال للمسلم : تتبع أسباب النزول من مطولات كتب التفسير مع وجودها فيها بل يقال له : اقرأ كتاب الناسخ والمنسوخ لفلان ، وأسباب النزول لفلان ، فهكذا كان في هذا العلم وفي كل علم ، فذلك الطريق الأقصر لتحصيل العلم والتعرف عليه . وإذا كان لابد من وجود علم فلا بد كذلك من تحريره وتنقيحه ، فكيف إذا حدث لهذا العلم ما حدث لعلم التصوف المحرّر من كونه سار في وادٍ والتصوف العملي سار في واد آخر ؟ ونقصد بعلم التصوف المحرر ههنا التصوف العلمي المحرر على ضوء الكتاب والسنة ، والمرضي من قبل العلماء الراسخين في العلم ، فإذا اتضح هذا كله فإن عذرنا في كتابة هذه السلسلة أصبح قائماً ... وإنما أطلنا في الاعتذار لكتابة هذه السلسلة ، وأطلنا في تبيان الضرورات التي ألجأتنا لكتابتها ؛ لأن كثيرين من إخواننا الذين نحبهم ويحبوننا ، ويتمنون لنا ولأنفسهم أن نبقى في معزل عن المعارك العلمية الدائرة رحاها بين المسلمين اليوم ، لنكون أداة جمع للجميع على الخير ، ونشكل قاسماً مشتركاً بين الجميع لصالح معركة الإسلام ، وأنا أحرص على ما يحرصون ، ولكن عملية التربية لأنفسنا لا تعفينا من أن نطرق هذه المواضيع وعملية التزكية تأتي دائماً في الدرجة الأولى ...

ولقد أهملت في هذه السلسلة بحث كثير من الأمور التي أعتبر أن بحثها لا يخدم من الناحية النظرية أو العملية إلا خدمات استثنائية لا تذكر ؛ لاعتقادي أن مثل هذه الأمور يجدها الإنسان في أي كتاب ، ولا يترتب على قراءتها في هذه الكتب ما يمكن أن يسبب ضرراً ، ولذلك أعفيت نفسي من الإشارة إلى كثير من المباحث ؛ حرصاً مني على أن تبقى هذه السلسلة مختصرة جداً ، لا يمل منها قارئها ، ولا يضيع في ثنايا الحيثيات عن الجوهر الأصيل ، وأنا من طبيعتي أنني لا أحب أن أكتب في أمر إلا حيث أجد ضرورة لذلك ، وبالقدر الذي تحتاجه هذه الضرورة ، وههنا الأمر كذلك فإذا رأى راءٍ أنني لم أسر في هذا التأليف على الطريق المعتادة عند المؤلفين من كونهم يهتمون بذكر الاسم وسبب التسمية وغير ذلك مما يعتبرونه أركاناً في التأليف في أي علم ؛ فذلك لاعتقادي أن هذا متوافر في كثير من الكتب والذي أحرص عليه هو أبعد من أن تكون هذه السلسلة إضافة كتب في علم على ما لذلك من مبررات ولكني أعتبر ذلك مهمة الأكاديميين ، وإنما واجبي أن أبذل جهداً بقدر استطاعتي فيما يحيي سنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أقول هذا معتذراً عن القصور الذي يمكن أن يؤاخذني فيه قارىء هذه السلسلة إذا لم يجد فيها بعض ما يجب أن يكون على أنني أظن أنني لم أفرط في جوهر ينبغي أن يعرف ولا يصعب على القارىء أن يمد يده إلى مثل الرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري ، أو لكتاب قواعد التصوف للشيخ أحمد الزروق ليجد جواباً على أي موضوع أهملته أو أهملت التوسع فيه ، وكم أتمنى لو طبع هذان الكتابان مع التعليق المختصر عليهما من فقيه صوفي ...

وأخيراً أقول : إن الكتابة في موضوع السير إلى الله ضرورة تقتضيها ضرورات متعددة ، فهذا الإنسان له ما يسمى بالنفس وما يسمى بالعقل وما يسمى بالقلب وما يسمى بالروح ، وكل واحد من هذه المعاني عوالم عجيبة غريبة لا تنكشف بعض ملامحها للإنسان إلا من خلال السير إلى الله عز وجل ، ومن ثم كان السير إلى الله عز وجل ضرورياً للإنسان ؛ ليعرف الإنسان ذاته وما انطوى عليه ، ومن ثم كان الإنسان الذي لا يسير إلى الله لا يعلم شيئاً كثيراً عن آفاق النفس وآفاق الذات ، وهذا سبب أول يدفع الإنسان نحو السير إلى الله عز وجل . والسير إلى الله عز وجل هو الطريق الوحيد للمعرفة الصحيحة الذوقية الشعورية لله عز وجل ، فإن الإنسان يجهل الكثير عن خالقه عز وجل ما لم يسر إلى الله عز وجل حتى لو كان مؤمناً ، ففارق كبير بين الإيمان العقلي النظري وبين الإيمان الشعوري

الذوقي ، وهذا سبب ثان يدفع الإنسان إلى السير إلى الله عز وجل ، والنفس البشرية تمرض ولا تصح إلا بلسوكها الطريق الصحيح إلى الله عز وجل ، والنفس البشرية مطالبة بعظيم من الأخلاق ، ولا تنال الفلاح بدونه ، ولا تتحقق به بدون السيرإلى الله عز وجل ، وهذا سبب آخر يدفع إلى السير إلى الله عز وجل ... ومن ثم كان السير إلى الله عز وجل واجباً على درجات تختلف باختلاف الاستعدادات ، فلابد من سير وعلى قدر الهمم تكون درجات السائرين قال تعالى : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** ﴾[1] . وقال : ﴿ **لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا ولا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ** ﴾[2] . وقال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح : « لو كان الإيمان في الثريا لناله رجال من أبناء فارس.»[3] والسير إلى الله ـ عز وجل ـ يقتضيه التنفيذ الواعي الحكيم لأوامر الله.ـ عز وجل ـ فالذي لا يعرف أصول السير إلى الله والغاية منها يفوته الكثير من تنفيذ الأوامر الإلهية ، كقوله تعالى : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ﴾[4] وكقوله تعالى : ﴿ **واذْكُرِ اسْم رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً** ﴾[5] كما ينقصه تذوق المعاني الإسلامية الوادرة في الكتاب والسنة كقوله تعالى : ﴿ **كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ** ﴾[6] وكقوله عليه الصلاة والسلام : « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[7] ، فالسير إلى الله ضروري ، والكتابة فيه ضرورية ، ودفع الأوهام فيه ضروري ، وإنهاء الغلو في شأنه ضروري ... وكل ذلك دافع إلى كتابة هذه السلسلة على أنه كما قلنا من قبل : (إننا نعتقد أن كل مسلم سائر إلى الله منا دام يفعل ما أمره الله ـ عز وجل ـ وله حظ من مقامات السير بذلك ، ولكن البحث عن الكمال ، والوصول إليه ، وإتيان البيوت من أبوابها ، ومعرفة المصادر والموارد والبدايات والنهايات ، والحدود والقيود للمقامات كلها دنياها وعلياها هذا الذي يطلق عليه اسم السير الكامل) ومن هنا ندرك غلط الذي لا يتصور أي سيرإلى الله ـ عز وجل ـ إلا من خلال التصوف والسير فيه ، وهو شيء ذكرناه من قبل رداً على من ينكر وجود علم التصوف ، ورداً على غلاة الصوفية الذين لا يتصورون سيراً إلى الله بدون سير على أيدي أهل الطريق ، إذ

---

(١) الشمس : ٩ ، ١٠ .
(٢) الحج : ٣٧ .
(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي .
(٤) العلق : ١ .
(٥) المزمل : ٨
(٦) القصص : ٨٨ .
(٧) رواه أبو نعيم في الحلية بهذه الصيغة وهو حديث حسن ، ومعناه في الصحيحين .

الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ومن بعدهم إلى أن تقعدت قواعد علم التصوف ما كان لهم همّ إلا في دراسة الكتاب والسنة وتطبيق ذلك . فإذا لم يكن هذا سيراً فما هو السير ؟ ومن هذه النقاط البسيطة يستطيع المسلم أن يدرك بعض ملامح هذه السلسلة فلنكتف في هذه المقدمة بذلك .

* * *

وها نحن أولاء نبدأ الكتاب الأول من هذه السلسلة وهو كتاب : « تربيتنا الروحية » بمدخل إسلامي عام وقد جعلناه الباب الأول في هذا الكتاب ؛ لشعورنا أن مجموعة من الأمور تحتاج إلى تصحيح قبل البدء في عرض موضوعات هذا الكتاب .

* * *

الباب الأول

مدخل إسلامي عام

الإسلام كما قال الأستاذ البنا (نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً ؛ فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة ، هو خلق وقوة أو حق وعدالة ، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء ، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى ، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة ، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء) وقال رحمه الله : (فإننا نعتقد أن الإسلام معنى كامل ، ينتظم شؤون الحياة جميعاً ، ويفتي في كل شأن ، ويضع له نظاماً محكماً دقيقاً ، ولا يقف مكتوفاً أمام المشكلات الحيوية والنظم التي لابد منها لإصلاح الناس) وهذا الذي قاله الأستاذ البنا عن الإسلام هو عين الحق في شأن الإسلام ، وهو من أهم البدهيات التي غابت عن أذهان الكثير من المسلمين ، فضلاً عن غيرهم ، مع أن نصوص القرآن واضحة في هذا الشأن قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[1] فكلمة ﴿ تبياناً لكل شيء ﴾ واضحة في أن القرآن قد غطى الحياة البشرية كلها بإعطائها الجواب الشافي في شؤون الهداية في كل أمر ، وإنما غطى القرآن الحياة البشرية إما بالجواب المباشر ، وإما بقول الرسول ﷺ وفعله وحاله الذي هو شرح للقرآن ، وإما بما أحال عليه الكتاب والسنة من طرق من خلالها تستنبط أحكام الإسلام في الأحوال العادية والأحوال الاستثنائية بما يسع الزمان والمكان والأشخاص والأحوال ، وههنا مواضيع متعددة غفل عنها الكثيرون أو جهلها الكثيرون ، وكما غفل كثير من الناس أو جهلوا قضية شمول الإسلام ، فقد جهلوا أو أغفلوا قضية أخرى وهي قضية الإيمان ، إذ الإيمان بالإسلام كله شرط لاعتبار الإنسان مسلماً ، فإذا كان القصور في فهم الإسلام مخدوشاً فشيء عادي أن تكون قضية الإيمان نفسها مخدوشة ... وكثيراً ما يحدث لبس في موضوع الصلة بين الإسلام والإيمان ، وكثيراً ما يحدث خطأ في فهم النصوص التي تذكر الإيمان والإسلام ، فاقتضى ذلك أن نوضح هذه القضايا .

إن كلمة الإسلام تطلق على الدين الذي أنزله الله عز وجل على محمد ﷺ ، والذي

---

(١) النخل : ٨٩ .

فصّلته نصوص الكتاب والسنة ، وهو بهذا المعنى ـ كما رأينا ـ نظام شامل كامل ، يسع مسائل الحياة البشرية كلها ، ففيه العقائد وفيه العبادات وفيه الشرائع ، وله مؤيداته فهو عقائد وشرائع وشعائر ، وهو تغطية كاملة شاملة لأمر الدنيا والآخرة بما يسع الزمان والمكان . وتطلق كلمة الإسلام صفة للإنسان الذي دخل في الإسلام فيقال : فلان أسلم بمعنى دخل في الإسلام ، ويقال : إسلام فلان بمعنى استسلام فلان وعمله في هذا الدين ، ومن ثم تطلق كلمة الإسلام على العمل ، فإذا أسلم قلب الإنسان وجوارحه لله في كل ما كلفه الله به ظاهراً وباطناً فذلك المسلم الحق قال تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَّبِّهِ ﴾[1] وإذا أسلمت جوارح الإنسان دون قلبه فذلك المنافق ما دام كذلك ، وأما الإيمان فيطلق على مجرد التصديق القلبي مع الإذعان ، كما يطلق أحياناً على إيمان القلب وما يقتضيه ذلك الإيمان من آثار عملية وذلك هو الإيمان الكامل الذي وقر في القلب وصدقه العمل ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقاً ﴾[2] وقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾[3] وعلى هذا فالإيمان الكامل : تصديق القلب وإذعانه مع عمل الجوارح بمقتضيات ذلك ، فالإيمان الكامل والإسلام الكامل سواء ، فهما بمعنى واحد ؛ إذ الإسلام الكامل استسلام القلب والجوارح ، والإيمان الكامل هو تصديق القلب وتصديق الجوارح ، ومن ثم نجد القرآن يقول : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[4] فهؤلاء مسلمون ومؤمنون ، إيمانهم هو عين إسلامهم ، وإسلامهم هو عين إيمانهم ، إنهم مؤمنون كُمّل ، ومسلمون كُمّل ، فالإسلام الكامل هو عين الإيمان الكامل .

وأحياناً يتخلف الإيمان عن الإسلام كأن يدخل أحد في الإسلام ويعمل بأعماله ولم يصل نور الإيمان الكامل إلى قلبه ، قال تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾[5] فههنا عمل بالإسلام وتخلف في نورانية القلب بالإيمان ، فههنا نجد فارقاً بين كلمتي الإسلام والإيمان . إذا أدركنا مبدئياً هذه

(١) الزمر : ٢٢ .
(٢) الأنفال : ٢ ، ٣ ، ٤ .
(٣) الحجرات : ١٥ .
(٤) الذاريات : ٣٥ ـ ٣٦ .
(٥) الحجرات : ١٤ .

المعاني ، أصبحنا نستطيع أن نفهم لماذا تذكر بعض الأمور ـ أحياناً ـ على أنها من الإسلام ، ولماذا تذكر نفس هذه الأمور على أنها من الإيمان ، ولماذا تذكر بعض الأمور في سياق الكلام عن الإيمان المحض بمعنى التصديق ، وأحياناً تذكر بعض الأمور في سياق الكلام عن الإسلام بمعنى عمل الجوارح واستسلامها ، وفي هذه الجوانب كلها يقع نوع من الغلط ، أو يوجد نوع من القصور في الفهم والتصور .

وكما حدث قصور في التصورات حول الإسلام ، فقد وجد قصور في التصورات حول مقامات السير في دين الله ، وقصور في العمل في هذه المقامات نفسها هو أثر عن القصور في التصور العام .

إنه في الأحوال العادية إذا قبلت الدخول في دين الله ـ الإسلام ـ فعليّ أن أعرف ماهية دين الله ، وعليّ أن أعرف ما هو واجب الوقت في حقي ، وأن أنفذه سلباً أو إيجاباً تنفيذاً لأمر أو انتهاء عن نهي ، وسيترتب على عملي في الإسلام أن يتنور قلبي ، وأن يزداد نور الإيمان فيه ، وكلما زدت في العمل ازداد نور الإيمان ، حتى يرتقي القلب إلى مقام الإحسان « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] إذ مقام الإحسان هو ذروة مقام الإيمان بدليل الحديث « أفضل الإيمان أن تعلم أن الله شاهدك حيثما كنت »[2] وبقدر نمو الإيمان والتحقق بمقام الإحسان سينعكس ذلك على سلوكي استقامة وعملاً وإحساناً وبذلك أتحقق بالتقوى التي هي هبة الله لعباده قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾[3] وبقدر الاستمرار على تقوى الله نكون مؤدين حق الشكر ، ونحن في سبيل الترقي فيه ، وهو أعلى المقامات وأرقاها ، قال تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾[4] .

وما التقوى إلا الطريق الموصل لهذا المقام . قال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[5] إنه بقدر وضوح قضية الإسلام وما يجب عليّ فيه من عمل هو واجب الوقت ، وهذا يختلف سعة وشمولاً باختلاف أحوال الناس ، وبقدر وضوح قضية الإيمان في

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية وهو حديث حسن .
(٢) رواه الطبراني وأبو نعيم وهو ضعيف .
(٣) محمد : ١٧ .
(٤) سبأ : ١٣ .
(٥) آل عمران : ١٢٣ .

جانبيه العملي والذوقي وبقدر وضوح قضية الإحسان في جوانبها القلبي والذوقي والعملي ، وبقدر وضوح قضية التقوى في جوانبها القلبية والتصورية والسلوكية وبقدر وضوح قضية الشكر في القيام بحقوق العبودية الكاملة لله شكراً . إنه بقدر هذا كله يكون السير في دين الله صحيحاً . وهذه مواضيع كبيرة ، والأخطاء في شأنها كثيرة ، ولكثرة الأخطاء فيها فلا علينا لو عرضنا هذه القضية بتوسع .

رأينا أن الإسلام دين الله ؛ وأن الله عز وجل لم يترك قضية إلا وقد ذكر حكمها إما صراحة أو استنباطاً ، فالإسلام على هذا : هو مجموع أحكام الله في كل قضية ؛ في العقائد ، والعبادات ، وأنظمة الحياة ، ويدخل في الإسلام الإيمان بنصوص الكتاب والسنة ، وبطرق استنباط الأحكام من الكتاب والسنة ، وعلى هذا فالإسلام شيء واسع ، ويكفي لتصور هذه السعة أن ينظر الإنسان إلى هذا الإرث الضخم من الكتب الفقهية التي تبلغ عشرات الآلاف ، وإلى هذا الإرث الضخم من كتب أصول الفقه ومن كتب العقائد ومن كتب التصوف وإلى غير ذلك من التآليف ، من تفاسير وشروح لكتب السنة إلى غير ذلك ، فإذا كان هذا هو الإسلام فما مجموع ما يكلف به الإنسان ؟ وماذا ينبغي أن يأخذ كل فرد على حدة من هذا الدين ؟ وما هي مقامات السير في هذا الدين إلى الله عز وجل ؟..

إن من الواجبات الأولى على المكلّف أن يقبل هذا الدين ويؤمن به ، فإذا قبله فعليه أن يبدأ العمل فيما هو مفروض عليه منه أو مندوب ، وأن يترك ما هو محرم عليه أو مكروه ، فيبدأ يتعلم ويتعرف ويأخذ حظه من الصلاة والزكاة والصوم ، وإذا جاءت أشهر الحج وكان عليه حجّ حجّ ، ويذكر الله ، ويقيد نفسه بالكسب فلا يأخذ إلا حلالاً ، فهذا حظه من الإسلام بمعنى الاستسلام العملي لله بالمعنى الوارد في قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ولَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾[1] ومن الآية ندرك أن استمرار الإنسان في القيام بأعمال الإسلام يرشحه ليأخذ حظه من مقام الإيمان القلبي . لاحظ قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ يقول النحاة إن (لما) تؤذن بتوقع ثبوت ما بعدها نحو (بَل يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)[2] أي إلى الآن لم يذوقوه وسوف يذوقونه. طبق هذا المعنى على قوله : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ فيكون المعنى : أي إلى الآن

---

(١) الحجرات : ١٤ .   (٢) صٓ : ٨ .

لم يدخل وسوف يدخل إذا استمررتم على ما أنتم عليه . لاحظ أنه سيدخل إلى القلوب ، والمراد بالقلوب هنا القلوب التي في الصدور قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[1] . وهذا الموضوع سنتوسع فيه ـ بإذن الله ـ في ما بعد .
إن الانتقال من الإيمان العقلي إلى الإيمان القلبي الذوقي هو المقام الثاني من مقامات السير إلى الله في دين الله عز وجل . إن كثيرين يبقى إيمانهم في حدود الأعمال الظاهرة والأقوال الظاهرة لاحظ هذا الحديث الصحيح : « سيخرج قوم في آخر الزمان حدثاء الأسنان ، سفهاء الأحلام ، يقولون من قول خير البرية ، يقرؤون القرآن ، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم ؛ فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة »[2] . فههنا ظاهرة عبّر عنها الحديث « إيمانهم لا يجاوز حناجرهم » فهو لا ينتقل من الحناجر إلى القلب أي لا يتجاوز الكلام إلى الفؤاد ، إنها ظاهرة مرضية تعني انقطاع الإنسان عن السير في دين الله ، ووقوفه عند المرحلة الأولى منه ... فإذا استطاع الإنسان أن يتجاوز هذه المرحلة فيصل عندئذ الإيمان إلى قلبه ، فإن هذا الإيمان يزداد ويزداد حتى يصبح شعوراً بصفات الله عز وجل وأفعاله ، وعندئذ يصل الإنسان إلى مقام الإحسان الذي عبّر عنه الرسول ﷺ بقوله : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[3] . إن مقام الإحسان هذا هو ذروة الإيمان ، فإذا تمكّن الإيمان في القلب أصبح إحساناً ، ولذلك ورد في الحديث « أفضل الإيمان أن تعلم أن الله شاهدك حيثما كنت »[4] . وبالجمع بين الحديثين ندرك أن الإحسان هو أفضل الإيمان ، ومن تعريف الإحسان في الحديث ندرك أن الإحسان هو عبادة الله في حالة شعورية محددة .
والعبادة بشكل عام في دين الله توصل إلى مقام في دين الله أرقى ، وهو مقام التقوى ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[5] والتقوى هي مرحلة النضج الكامل المتفاعل مع الإسلام والإيمان والإحسان فهي علم وعمل ، وهي ملكة قلبية وسلوك ، وهي حالة ينسجم فيها العقل مع القلب مع الجوارح ، وهي في

---

(١) الحج : ٤٦ .
(٢) رواه الشيخان وأبو داود والنسائي .
(٣) رواه مسلم .
(٤) رواه الطبراني وأبو نعيم .
(٥) البقرة : ٢١ .

النهاية هبة الله لمن أسلم وعمل وأحسن قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾[١] فالتقوى هبة الله لمن اهتدى والهداية بدايتها الإيمان بالله قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾[٢] والطريق إليها المجاهدة ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[٣] إيمان بالله يرافقه مجاهدة للنفس بالقيام بالعبادة وأعمال الإسلام توصل إلى التقوى التي هي إيمان واتباع كتاب كما ورد في أوائل سورة البقرة وهو موضوع فصلنا فيه كثيراً في كتاب (جند الله ثقافة وأخلاقاً) فإذا تحقق الإنسان بالتقوى أوصلته التقوى إلى مقام الشكر وهو أعلى المقامات في السير في دين الله تعالى ... ودليلنا على أن التقوى توصل إلى الشكر قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٤] فالشكر ذروة المقامات وقليل أهله وهو مقام الرسل عليهم الصلاة والسلام قال رسول الله ﷺ : « أفلا أكون عبداً شكوراً »[٥] . وقال تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾[٦] فأن يعمل الإنسان شكراً لله على نعمه ، بأن يسخر كل شيء أعطاه الله إياه في الطريق الأحب إلى الله ، على ضوء شرع الله ، دون أن يهمل أمراً لله ، تاركاً المحرمات والمكروهات ، مقيماً الفرائض والواجبات والمندوبات ، على حالة قلبية هي حالة الشكر لله عز وجل ، إن هذا هو ذروة السير في دين الله ... إذا اتضحت هذه المعاني كلها أصبح بالإمكان أن ندرك مجموعة الأخطاء التي يقع الناس فيها في هذا الباب ، فهناك ناس يتصورون أن عليهم أن يصلوا ويصوموا .. ويؤمنوا ويعبدوا .. دون أن يكون عندهم تصور عام لدين الله ، ودون أن يصلوا إلى التقوى بمعناها الواسع ، الذي هو الالتزام المطلق بشرع الله في الشؤون الفردية والشؤون العامة ، وفي تحقيق الإسلام في النفس وعلى الأرض ، ومن ثم فمع أنهم يسلمون بالتقوى ، إلا أنهم لا يعرفون مضمونها الحقيقي ، وقد يتوهمون أنها المقام الأدنى من المقامات ، فهي دون الإحسان عندهم ، وينتج عن ذلك أن تصورهم لمقام الشكر خاطىء ، وبالتالي فإن تحققهم ضعيف أو قاصر ، وهناك ناس يبنون تصورهم على فهم قاصر لحديث شريف يفصلونه عن سواه من النصوص ، ويظنون أنه قد اجتمع فيه كل شيء ، مع أنه تفصيل لبعض المعاني وتبيان لأهمية بعضها ، وله محله في مجموع دين الله فلايفهم منفصلاً عن

---

(١) محمد : ١٧ .
(٢) التغابن : ١١ .
(٣) العنكبوت : ٦٩ .
(٤) آل عمران : ١٢٣ .
(٥) رواه البخاري .
(٦) سبأ : ١٣ .

النصوص ، بل يفهم في محله من مجموع النصوص ، هذا الحديث هو الحديث المشهور الذي تحدث فيه رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان وهو موضوع توسعنا فيه في مقدمة كتابنا عن الإسلام فليراجع هناك ، فالحديث بيَّن أهمية أركان الإسلام بالنسبة لمجموع الإسلام ، وبيَّن ماذا يدخل في كلمة الإيمان ، وأعطانا مفهوماً دقيقاً لموضوع الإحسان في دين الله ، فهو مبين لدين الله من حيث إنه فصل في قضايا مهمة في دين الله ، ولا يعني أن هذا وحده هو دين الله .

وكما وقع الكثير من الناس في أغلاط حول ما مر ، فقد وقعوا في أغلاط حول قضية التكليف والمكلف وأنواع التكاليف :

١ - من بين المخلوقات المشاهدة كلف الله عز وجل الإنسان ، وكلف الجن من المخلوقات المغيبة عنا ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] فما هو التكليف ؟ ومن هو المكلف ؟ وما هي التكاليف ؟ أما التكليف فله تعريفان : التعريف الأول : أنه إلزام ما فيه كلفة ، والتعريف الثاني : أنه طلب ما فيه كلفة والفارق بين التعريفين أن التعريف الأول فيه إشارة إلى التكليف بفعل الواجب وترك المحرم ، وأما التعريف الثاني فيدخل فيه فعل المندوبات وترك المحرمات ، ومن التعريف ، ومن اسم التكليف نفهم أن ما كلف الله عز وجل به عباده فيه شيء ما من المشقة ، فالذين يتصورون أن الدين هو لصالح الراحة فقط بمعناها العامي مخطئون ، وأما المكلَّف فهو الإنسان البالغ العاقل السليم الحواس الذي بلغته دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وكذلك الجني العاقل الذي بلغته دعوة الرسل وكان سليم الحواس ، وقال علماؤنا : إن الجن مكلَّفون من لحظة خلقهم فلا يتوقف تكليفهم على البلوغ . وأما التكاليف فمنها العقلي ومنها الفكري ومنها العلمي ومنها العملي . والمكلِّف هو الله عز وجل بواسطة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فالإنسان لم يخلقه الله عبثاً بل خلقه ليكلفه ، ولم يخلق الله عز وجل هذا الكون بلا حكمة بل خلقه لحكمة لا تتحقق دون وجود تكليف .

٢ - وأول الواجبات هو معرفة الله عز وجل ، ثم معرفة الرسل ، ثم معرفة شريعة الله عز وجل ، ثم معرفة ما يلزم كل مكلف من هذه الشريعة على حدةٍ تفصيلاً ، ثم معرفة ما

---

(١) الذاريات : ٥٦ .

يلزم لتحقيق هذه الواجبات ؛ إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، والالتزام بكل ما يقتضيه ذلك من عمل إن في التعليم أو في التطبيق ، وفي هذا المقام تجد أخطاء كثيرة ، فمثلاً التصور العام الصحيح عن شريعة الله فريضة يهملها الكثير ، ومجموع ما يطالب به كل إنسان من علم وعمل قضية لا يعرفها الكثير ، فيعرضونها عرضاً قاصراً مبتوراً ، ومعرفة لوازم القيام بكثير من الواجبات المفروضة تغيب عن كثير من الناس ، فيهملون نتيجة لذلك فرائض ، ومن ثم كان من فرائض هذا العصر البيان المستوعب لهذه الشؤون .

٣ ـ يدخل في باب معرفة الله معرفة صفاته وأسمائه وأفعاله ، وما يجب له وما يستحيل في حقه ، وما يجوز ، وهو باب واسع ، وقع فيه أكثر الخلق بأخطاء كثيرة ، وعصم الله أهل السنة والجماعة فيه ، قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللهِ المُخْلَصِينَ ﴾[1] فعباد الله المخلصون هم الذين وصفوا الله عز وجل بكل كمال ، ويدخل في باب معرفة الرسول معرفة ما يجب في حقه وما يستحيل وما يجوز ، ومعرفة مجموعة من المسائل في هذا المقام ، ويدخل في باب معرفة شريعة الرسول أن يكون عند الإنسان تصور عام عن هذه الشريعة وأصولها وفروعها وبدهياتها ومعالمها ، ويدخل في باب ما يلزم كل مكلف من معارف تخصه أن يعرف الإنسان ما يجب عليه من مقام الإسلام ومقام الإيمان ومقام الإحسان ومقام التقوى ومقام الشكر ، ويختلف ذلك من إنسان لإنسان سعة وشمولاً ، ويدخل في باب ما يلزم كل مكلف التعرف على الطريق لتحقيق الواجبات بمعرفة الطريق لأداء كل فريضة ولإقامتها ، سواء كانت فريضة عينية أو كانت فريضة كفائية ، ومن جملة ذلك في عصرنا أن يعرف الإنسان الطريق إلى جعل كلمة الله هي العليا في قطره ، وفي مجموع أقطار الأمة الإسلامية ، ومجموع العالم ، وهذا كله هو الأساس العلمي للعمل فهناك فرائض في باب العلم ، وفرائض في باب العمل .

٤ ـ وهناك تكليفات كلف الله عز وجل بها كل إنسان على حدة ، ولكن هناك تكليفات كلف بها مجموع الأمة ، وقد أطلق علماؤنا على هذا كله تعبير فروض العين وفروض الكفاية ، والناس كثيراً ما يغلطون في هذا الموضوع ؛ فكثيراً ما ينظرون إلى موضوع فروض الكفايات نظرة قاصرة ، هذه النظرة القاصرة تتعطل بها فروض

---

(١) الصافات : ١٥٩ ، ١٦٠ .

الكفايات ، فمثلاً من المعلوم أن فرض الكفاية يبقى فرض عين حتى يقوم ـ وأحياناً يتعين ـ إنسان ما أو مجموعة ما بعينها لإقامة فرض كفاية ، وعندئذ يصبح فرض الكفاية في حق هؤلاء فرض عين ، وكثيراً ما يحدث أن قضية النظرة الشاملة لفروض الكفاية تنعدم عند بعض الناس ، فينعدم نتيجة لذلك التوجيه نحوها ، فتبقى الأمة الإسلامية في حال قصور أو تخلف أو تأخر ، وكثيراً ما يحدث أن تغيب عن بعض الناس معرفة الطريق لتحقيق الوصول إلى فروض الكفاية ، كما يغيب عنهم معرفة الطريق لمعرفة الوصول إلى التحقق بفرض العين وفي ذلك ما فيه .

٥ ـ وقد رأينا في هذا الباب أن المكلَّف هو العاقل البالغ السليم الحواس الذي بلغته الدعوة ، فالبالغ إذن هو المكلّف ، ولكن مرحلة من يؤهله لمرحلة ما بعد البلوغ ، فما هي مجموع القضايا التي ينبغي أن يعطاها كل إنسان قبل البلوغ ؟ وكم من المسلمين يفطن لها ؟ ويعطيها حقها ؟ إن هذه كذلك من جملة المسائل التي يقع فيها الكثير في أخطاء أو في تصورات قاصرة أو ضعيفة ، وسبب ذلك كله ضياع التعليم الصحيح ، وفقدان الإنسان المستوعب لرسالة الله عز وجل إلا القليل ممن أكرمه الله عز وجل .

وكما وقع الكثير من الناس في أخطاء حول ما مر ، فقد وقعوا في أخطاء حول نظرتهم إلى أشياء في ذواتهم أو من ذواتهم ، فمثلاً يعرف الإنسان عن نفسه أن له عقلاً ، ويتكلم الإنسان عن شيء اسمه القلب وشيء اسمه الروح وشيء اسمه النفس وشيء اسمه الحياة ، وهذه الأمور كلها من ألصق الأشياء في الإنسان ، ولكن تجد في هذا المقام أغلاطاً لاتكاد تنحصر : منها أغلاط عند غير المسلمين ، وأغلاط عند المسلمين ولا يُستغرب القصور عند الكافر إن فاته الإدراك الصحيح لهذه الأمور ، ولكن المسلم الذي ينبغي أن يكون عنده الجواب الصحيح هو الذي يُستغرب في حقه ألا تكون واضحة لديه هذه المعاني ، ومن ثم نجد خلطاً عند الكثيرين حول التصور عن العقل الشرعي ، والعقل الذي هو أداة التفكير ، وخلط في الكلام عن جهاز التفكير الذي هو الدماغ ، وعن القلب الذي هو شيء آخر موجود في الصدر ، ونجد خلطاً بين الكلام عن القلب الحسي وعن القلب الآخر ، كما نجد عدم وضوح في التصورات عن النفس والروح ، متى تكون النفس عين الروح ومتى تكون النفس والروح عين القلب وعين العقل ، ومتى تكون المسألة غير ذلك ، ثم الحياة وصلتها بهذه الأشياء ، حياة الحيوان المنوي ، ثم حياة الجنين قبل نفخ الروح فيه ، ثم حياة الجنين بعد نفخ الروح

فيه ، هناك أخطاء كثيرة حول هذه الأمور بعضها صغير وبعضها لا يترتب عليه شيء ، وعلى كلٍ فإنه من المناسب أن نقول كلمة في هذا الموضوع ، ولهذه الكلمة أهميتها بالنسبة لموضوع هذه الرسالة ؛ وهذه الرسالة ستوضح بعض هذه الأمور شيئاً فشيئاً :

يختلط على الكثير فهم قضية العقل والقلب والروح والنفس في المصطلح الإسلامي ، فيقعون نتيجة لذلك في أغلاط متلاحقة ، وكثيراً ما يدخل الكتّاب الإسلاميُّون في أبحاث ومناقشات نتيجة للغموض في هذا الشأن ، والسر في ذلك - والله أعلم - أن الشارع أعطى هذه الأمور مصطلحات ، ويستعملها الناس في معان أخرى ، ومن ثم يقع اللبس في هذا الشأن ، وهو لبس يؤدي أحياناً إلى كفر أو إنكار معلوم من الدين بالضرورة ، ولنضرب الأمثلة الآتية على ذلك :

(القلب) :

تطلق كلمة القلب على القلب الحسي الذي محله الصدر ، والشارع يطلق كلمة القلب على قلب آخر محله الصدر مرتبط بالقلب الحسي هو محل الإيمان والكفر . وألِفَ الشعراء والكتاب أن يتحدثوا عن القلب كمحل للعواطف من حب وبغض ، ولا شك أن الصلة قائمة بين القلب في كلام الشعراء والأدباء وبين القلب الذي هو محل الكفر والنفاق والإيمان ، كما سنرى ولا شك أن القلب الحسي شيء ، وهذا القلب شيء آخر ، ألا ترى مثلاً في عصرنا حيث أبدلوا قلباً حسياً بقلب حي لم تتغير نتيجة لذلك العواطف ... إذا أدركت هذا المعنى عرفت الفارق بين القلب في اصطلاح الشارع والقلب في اصطلاح الناس ، والخلط في ذلك سبّبَ أخطاءً كثيرة ... وكما حدث هذا في موضوع القلب حدث هذا في موضوع الروح والنفس والعقل ، وأدى ذلك إلى الوقوع في أغلاط مرتبطة بالعقائد ، ومن ثم كان علماؤنا يعتبرون الكلام عن هذا الموضوع جزءاً من أبحاث العقائد ، وهي كذلك جزء رئيسي من أجزاء علم التصوف ، بل هي محوره الرئيسي ، وإنما تحدث علماؤنا عنها في كتب العقائد لأن هناك جانباً غيبياً في هذه الأمور ، والأمور الغيبية يكون التفصيل فيها من اختصاص الشارع ، فالشارع وحده هو الذي يحدثنا عنها وموقفنا منها هو الإيمان والتسليم ، غير أن هذه الأمور وإن كانت غيبية إلا أن لها وجودها المحس ، ويستطيع صاحبها أن يحسها ، كما يستطيع الآخرون أن يستشعروا آثارها ومن ثم فهي قضايا غيبية من ناحية ، محسة من

ناحية أخرى ، للتجربة البشرية والإحساسات البشرية دخل كبير في التعرف عليها ، ولذلك كان هذا الموضوع متداخلاً ؛ تتداخل فيه قضايا العقائد بقضايا التصوف بقضايا المادة العلم والتجربة ، ومن ثم كانت كل طائفة من الخلق عندها عن هذه الأمور تصورات تختلف عن تصورات طوائف أخرى ، ولكل طائفة في هذا الشأن دعاوى في هذه الأمور .

والمسلم العليم هو وحده الذي يضع الأمور في مواضعها في هذه الشؤون ؛ لأنه على نور من ربه ، وربه دلّه على الطرق العملية التي توصله إلى معرفة كل أمر بطريقه ، فما يوصل إليه التجريب فالطريق إليه التجريب ، وما يوصل إليه العقل فالطريق إليه العقل ، وما يوصل إليه بيان الشارع فالطريق إليه هذا البيان ، ولا يفوتنا أن نسجل ههنا أمراً هو : إن أمور العقائد الإسلامية لا تنفصل عن قضايا التحقق والتذوق والسلوك ، وأن الكلام عنها بشكل مجرد لابد أن يكمله كلام عنها في مكان آخر ؛ ومن ثم نجد الكلام عن القلب أو الروح أو النفس موزعاً بين كتب العقائد والتصوف ، وكون التصوف أصابه ما أصابه ، وكون علم العقائد تعقد كثيراً حتى صعب على الإنسان العادي فهم مسائله ، فقد غابت معان كثيرة عن المسلم ، ونحن هنا بسبيل جلاء التصور العام عن النفس والروح والقلب والعقل ، ونبدأ بما قاله حجة الإسلام الغزالي في إحيائه : قال تحت عنوان (بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل وما هو المراد بهذه الأسامي) : اعلم أن هذه الأسماء الأربعة تستعمل في هذه الأبواب . ويقل من فحول العلماء من يحيط بهذه الأسامي واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها ، وأكثر الأغاليط منشؤها الجهل بمعنى هذه الأسامي واشتراكها بين مسميات مختلفة ، ونحن نشرح في معنى هذه الأسامي ما يتعلق بغرضنا :

اللفظ الأول : لفظ (القلب) :

وهو يطلق لمعنيين : أحدهما : اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر وهو لحم مخصوص وفي باطنه تجويف وفي ذلك التجويف دم ... هو منبع الروح ومعدته ، ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته إذ يتعلق به غرض الأطباء ولا تتعلق به الأغراض الدينية ، وهذا القلب موجود للبهائم ....

ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب لم نعن به ذلك ، فإنه قطعة لحم لا قدر له ، وهو من عالم الملك والشهادة إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلاً عن الآدميين . والمعنى

الثاني : هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان ، وهو المخاطب والمعاتب والمعاقب والمطالب ، ولها علاقة مع القلب الجسماني ، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته ؛ فإن تعلقه به يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات ، أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة ، أو تعلق المتكن بالمكان ، وشرح ذلك مما نتوقاه لمعنيين أحدهما : أنه متعلق بعلوم المكاشفة وليس غرضنا من هذا الكتاب إلا علوم المعاملة ، والثاني : أن تحقيقه يستدعي إفشاء سر الروح وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله ﷺ فليس لغيره أن يتكلم فيه ، والمقصود أنّا إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها في ذاتها وعلم المعاملة يفتقر إلى معرفة صفاتها وأحوالها ولا يفتقر إلى ذكر حقيقتها .

اللفظ الثاني (الروح) :

وهو أيضاً يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين : أحدهما : جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني ، فينتشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن ، وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها ، يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت ، فإنه لا ينتهي إلى جزء من البيت إلا ويستنير به ، والحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان ، والروح مثالها السراج ، وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه ، والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى : وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب وليس شرحه من غرضنا إذ المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان ، فأما غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينساق إلى جوار رب العالمين ، فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلاً . و (المعنى الثاني) هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان ، وهو الذي شرحناه في أحد معاني القلب ، وهو الذي أراده الله تعالى بقوله ﴿ **قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي** ﴾[1] وهو أمر عجيب رباني تعجز أكثر العقول والأفهام عن إدراك حقيقته .

---

(١) الإسراء : ٨٥ .

اللفظ الثالث (النفس) :

وهو أيضاً مشترك بين معان ويتعلق بغرضنا منه معنيان : أحدهما أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان على ما سيأتي شرحه ، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف ، لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان ، فيقولون : لابد من مجاهدة النفس وكسرها ، وإليه الإشارة بقوله ﷺ : « أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك »[١] المعنى الثاني هي اللطيفة التي ذكرناها والتي هي الإنسان بالحقيقة ، وهي نفس الإنسان وذاته ، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها ، فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة ، قال الله تعالى في مثلها ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴾[٢] والنفس بالمعنى الأول لا يتصور رجوعها إلى الله تعالى ، فإنها مبعدة عن الله ، وهي من حزب الشيطان . وإذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت النفس اللوامة ؛ لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه ، قال تعالى ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾[٣] وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء . قال تعالى حكاية عن امرأة العزيز : ﴿ وَمَا أُبَرِّيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾[٤] وقد يجوز أن يقال : المراد بالأمارة بالسوء هي النفس بالمعنى الأول ، فإذن النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم ، وبالمعنى الثاني محمودة لأنها نفس الإنسان أي ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات .

اللفظ الرابع (العقل) :

وهو أيضاً مشترك لمعان مختلفة ذكرناها في كتاب العلم ، والمتعلق بغرضنا من جلتها معنيان : أحدهما : أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور ، فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب ، والثاني أنه قد يطلق ويراد به العلم المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعني

(١) رواه البيهقي في الزهد بإسناد ضعيف وله شاهد .
(٢) الفجر : ٢٧ ـ ٢٨ .
(٣) القيامة : ٢ .
(٤) يوسف : ٥٣ .

تلك اللطيفة ونحن نعلم أن كل عالم فله في نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه ، والعلم صفة حالّة فيه والصفة غير الموصوف ، والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم ، وقد يطلق ويراد به محل الإدراك أعني المدرك . إذاً قد انكشف لك أن معاني هذه الأسماء موجودة وهي : القلب الجسماني ، والروح الجسماني ، والنفس الجسمانية الشهوانية ، والعلوم ، فهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة ومعنى خامس ، وهي اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان ، والألفاظ الأربعة بجملتها تتوراد عليها ، فالمعاني خمسة والألفاظ أربعة ، وكل لفظ أطلق لمعنيين ، وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الألفاظ وتواردها ، فتراهم يتكلمون في الخواطر ويقولون : هذا خاطر العقل ، وهذا خاطر الروح ، وهذا خاطر القلب ، وهذا خاطر النفس ، وليس يدري الناظر اختلاف معاني هذه الأسماء ، ولأجل كشف الغطاء عن ذلك قدمنا شرح هذه الأسامي .

وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب ، فالمراد به المعنى الذي يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء ، وقد يكنى عنه بالقلب الذي في الصدر لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة ، فإنها وإن كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له ولكنها تتعلق به بواسطة القلب ، فتعلقها الأول بالقلب وكأنه محلها ومملكتها وعالمها ومطيتها) (إنتهى) .

من كلام الغزالي ندرك أن النفس والعقل والقلب والروح تأتي أحياناً بمعنى واحد وإنما تختلف التسميات باختلاف الصفة التي للروح البشرية ، فإذا غلبت الشهوة هذه الروح سميت نفساً ، وإذا غلبت الروح الشهوة المحرمة سميت عقلاً ، وإذا أصبحت لها مواجيدها الإيمانية سميت قلباً ، وإذا عرفت الله حق المعرفة وأعطته العبودية الخالصة سميت روحاً ، كما أن هذه الأشياء تأتي أحياناً ويراد بها شيء آخر غير ما ذكرناه ، فقد يراد بالنفس الدم ، وقد يراد بها الحياة ، ويطلق الناس إسم العقل أحياناً على محل التفكير وهو الدماغ ، ويطلقونه أحياناً على الذكاء ، ويطلقونه أحياناً على المعنى المنظم للجسم ، وكل ذلك مرتبط بالدماغ ، وقد يذكرون الروح ويريدون بها مجرد الحياة . ثم ما هي هذه الحياة ؟ الناس يختلفون في الجواب ، ونتيجة لهذا كله فإن مجموعة من الأخطاء في هذه المقامات تقع ، ومجموعة من التشويشات كذلك تقع ، إذ يأتي - مثلاً - كافر إلى نص محمول على معنى في هذه الشؤون فيحمله على معنى آخر فيها ليشوش على الجهلة ، ونجد بعض المسلمين

يستغرقهم أحد الملاحظ في هذه الشؤون فيحملون عليها كل هذه المعاني في كل الأحوال ، فمثلاً تبدأ رحلة الحياة بالنسبة للإنسان منذ تخلقه حيواناً منوياً ، ولكل حيوان منوي حياته الخاصة به ، فإذا ما اتحد الحيوان المنوي بالبويضة وجدت قطعة حية مرتبطة بحياة جسد الأم ، حتى إذا بلغ كذا شهراً دخلته الروح ، فبدأ حركته الخاصة به فالحياة الخلوية موجودة قبل وجود الروح ، وهي لا تناقضها ولا تعارضها ويأتي كافر يخلط بين قضية الروح والحياة عن عمد ، فيحاول أن يشوش ، كما فعل بعضهم إذ جاؤوا إلى قوله تعالى ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ﴾[1] فقالوا : إن هذا النص محمول على أن الحيوان المنوي ميت بينما هو حي ، والمراد بالنص الحالة التي كانت لأجزاء الحيوان المنوي قبل تخلقه ، إن أجزاءه ليست إلا ذرات ميتة صارت غذاء ثم منها وجد الحيوان المنوي ، فبدأت رحلة حياة الإنسان ثم .... فالحياة الخلوية إذن شيء ومجيء الروح بعد ذلك شيء آخر ، ولا يتناقضان بل هما شيئان متكاملان .

لاحظ الآن حالة الجنون والحالة التي يسميها الصوفية الجذب ، فالجنون حالة مرتبطة بالدماغ أحياناً ، بينما الجذب حالة مرتبطة بالقلب ، فللدماغ صلة بما يسميه الناس عقلاً ، وللقلب صلة بما يسميه الناس عقلاً ، والعقل الشرعي مرتبط بالدماغ من ناحية ، وبالقلب من ناحية أخرى ، ومن ثم قال العلماء : إن العقل هو القلب ، وتشهد لذلك نصوص كثيرة ، والمراد به ههنا العقل الشرعي الذي يضبط الإنسان به تصرفاته على مقتضى شرع الله ، ثم لاحظ أن نوعاً من الأدوية تسكّن الأعصاب ، فنجد الإنسان إذا أخذها هادئاً لا يستثار ، ولاحظ أن نوعاً من الأدوية يجعل الإنسان في حالة هيجان كامل ، وهكذا نجد أن ما يلقى في الدم يؤثر على حالة الإنسان بشكل عام ، ومن ثم فالدم يمكن أن يكون في بعض الحالات هو النفس ، وقد تطلق كلمة النفس على الذات كلها ، وقد تطلق على التصرفات الشهوانية والعصبية للإنسان ، والناس يغلطون في هذه المقامات ، فيسمون شيئاً باسم شيء ، وتكون الجهة مختلفة ، ونحن ههنا لسنا بسبيل التفصيل ولكنّا نريد أن نوضح نقطة من النقاط التي يقع فيها الغلط ، ونظن أن الأمر اتضح نوع وضوح ، ولنختصر الكلام في هذا الموضوع بما يلي :

---

(١) البقرة : ٢٨ .

إن هناك حياة للجسم قبل حلول الروح فيه ، وإن هناك نفساً للإنسان هي أثر مجموعة العوامل الفيزيولوجية والبيئية في الجسد بعد وجود الروح فيه ، وإن هناك دماغاً للإنسان ينظم قضية الجسد كلها ، وللروح تعلق به ، وإن هناك قلباً حسياً للإنسان ، وللروح تعلق به ، فالجنين في بطن أمه قبل حلول الروح فيه يستمد حياته من حياة أمه ، ولكنه بعد حلول الروح فيه تصبح له حياته الكاملة المستقلة نوع استقلال ، ومن ثم فعندما تسحب هذه الروح من الإنسان فيما بعد يموت ، وبهذا نفهم الفارق بين حياة الجنين بدون روح وهو في بطن أمه قبل نفخ الروح فيه ، وموته فيما بعد إذا سحبت الروح منه .

وإذا حلت الروح في الجسد تأثرت بالعوامل الفيزيولوجية والبدنية المختلفة ، فأثرت عوامل الشهوة والغضب فيها ، فإما أن تتغلب على ذلك بسلوك الطريق الموصلة ، أو تغلبها عوامل الشهوة والغضب ، وههنا معترك الصراع بين هدي الأنبياء لإبقاء الروح على طبيعتها السلمية ، وبين غواية شياطين الإنس والجن في أن يجعلوا الروح تتابع الهوى .

إن الفقهاء يسمون الدم نفساً ، فيقولون مثلاً : إذا مات حيوان ليس له نفس سائلة ووقع في الماء ... ومرادهم بهذا الدم . وعَنْوَنَ صاحب المنتقى لأحد الأبواب بقوله : (باب ما لا نفس له سائله لم ينجس بالموت) لاحظ الآن هذا الكلام الطبي يقول الدكتور الطبيب خالص كنجو : وما هو السر في الميل الجنسي ، إنه يعود إلى عملية الإباضة الداخلية ، حيث ينفجر جريب صغير حامل للبويضة ، ليقترن بها ، من المبيض إلى البوق حيث يحدث اللقاح في الثلث الوحشي النهائي منه ، وهذه الأخيرة ظاهرة تحتاج للوقوف عليها ، وتندلق الهرمونات من هذه القربة الصغيرة إلى داخل الجسم بكثرة مما يرفع التوتر الجنسي عند المرأة ، وهذا بدوره يعود إلى الحلقة الخفية حلقة التبادل المتعاكس ما بين النفس والجسم » .

إذن للدم ومحتوياته صلة كبيرة بالروح وتأثير عليها ، في حديث ضعيف عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الغضب جمرة في قلب ابن آدم » فللأشياء الموجودة في الدم صلة بقضية الشهوة وقضية الغضب ، وإذن فللتركيب الجسمي تأثيره على الروح ، وهذا التأثير يقوى أو يضعف والإنسان يستسلم لهذا التأثير أو يقاومه أو يسعى للتحكم فيه . والمهم أن هناك صلة بين الجسد وتركيبه ومراده ، وعالم الروح ولكل منهما تأثيره على الآخر ، والرسل عليهم

الصلاة والسلام هم الذين دلونا على حدود التعامل ما بين الجسد والروح أو ما بين النفس الشهوانية والروح .

وكما وقعت أخطاء فيما مرّ ، فقد وقعت أخطاء حول قضية التقليد والاجتهاد ، وقضية ما لا يسع الإنسان جهله ، وما يسعه جهله ، وما يسعه أن يقلد فيه ، وما لا يسعه أن يقلد فيه ، وما يجب عليه أن يرفضه بداهة لأنه يناقض المعلومات من الدين بالضرورة ، وما يمكن أن يكون للبحث والتحقيق فيه سبيل ، ولإدراك طرف من هذا الشأن ، نقول :

١ ـ يفرق علماؤنا بين التقليد في أصول الشريعة ، وبين التقليد في فروع الشريعة ، وبين التقليد في الواضحات البدهيات ، وبين التقليد في المشتبهات ، وهذه قضايا ندر من يضعها في مواضعها ، ويعرف حدود مسائلها ، وقد كثر الجهل بها حتى بين الذين يتصدرون للعلم والتعليم ، ومن ثم عمّت البلوى وطمّت ولم تعد هذه الأمور واضحة عند الكثير من الناس .

فالأصل أن التقليد في أصول الدين أي في العقائد لا يجوز ، والأصل أن التقليد في كل ما علم من الدين بالضرورة لا يجوز ، على خلاف بين العلماء في حدود عدم الجواز هل يصل إلى الكفر أو إلى الفسوق ، والأصل عندهم أن التقليد لغير العالم في فروع الشريعة ـ التي لا يستطيع الإنسان العادي أن يعرف حكم الله فيها بنفسه ـ أن يقلد فيها من هو مظنة معرفتها ، وهم الأئمة المجتهدون ، وحدود هذه المعاني واسعة ، فما هي هذه العقائد التي لا يجوز التقليد فيها ؟ وما هي بدهيات الشريعة التي لا يسع مسلماً إلا أن يعرفها ؟ وما هي الفروع التي يسع المسلم أن يجهلها فيقلد فيها ؟ كثيراً ما يكون قصور في التعبير عن هذه الأشياء ، إن معرفة الله ، والطريق إلى التعرف على رسل الله عليهم الصلاة والسلام ، ومعرفة الأدلة التي تدل على الله وصفاته ، ومعرفة الأدلة التي تثبت أن محمداً رسول الله ، كل ذلك من الأصول ، ومعرفة أصول الشريعة الإسلامية وأنها الكتاب والسنة والإجماع ، وما اعتمده الكتاب والسنة والإجماع من معايير وموازين متفق عليها ، كل ذلك من الأصول ، وما كان واضحاً في الكتاب والسنة والإجماع من أمور إذا كان هناك تواتر لفظي أو معنوي ، فكله من باب الأصول ، إن القرآن كله متواتر اللفظ ، وكثير من نصوص السنة متواتر اللفظ أو المعنى ، وكل ما كان من هذا القبيل إذا كان واضح المعنى قطعي الدلالة فإن

مدوله يكون من باب المعلوم من الدين بالضرورة ، لا يسع مسلماً جهله ، والتقليد فيه مما لا ينبغي .

٢ - غير أن هناك فارقاً بين التقليد في بعض أنواع العقائد ، والتقليد في بعضها الآخر ، والتقليد في بعض الأصول والتقليد في الفروع ، فهناك قضايا يعتبر تقليد الشارع وحده فيها هو الواجب ، وهناك قضايا تعتبر القناعة العقلية مع الشرعية هي الواجب ، وفي الفروع تقليد الأئمة هو الواجب - لغير المجتهد - مع معرفة الدليل إذا كان المرء عالماً ، وتقليد الأئمة فيها هو الواجب للعامي ولا يلزم بمعرفة الدليل ، وهذه كذلك من غوامض المسائل في هذا المقام .

٣ - ويدخل في الأصول والبدهيات الشرعية أمور كثيرة : منها معرفة الله ، ومعرفة السير القلبي إليه ، ومنها معرفة الرسول ، ومنها معرفة ضرورة اتباع الكتاب والسنة ، ومنها معرفة الواجبات والمحرمات ، ومعرفة أنواع من السنن الثابتة بالتواتر ، ويدخل في ذلك أشياء كثيرة من جملتها معرفة وجوب تزكية النفس ، وقضايا الإيمان القلبي والعقلي ، ومنها التصور العام للإسلام ، ومنها وجوب الجهاد لإعلاء كلمة الله ، ومنها وجوب الحكم بما أنزل الله ، ومنها وجوب معرفة أن الأمة الإسلامية أمة واحدة ، وأن وحدتها السياسية واجبة ، وقضايا كثيرة لا تدخل تحت حصر ، وفي هذا الكتاب بيان لبعض القضايا ووضعها في محلها .

٤ - والأمور التي يجوز فيها تقليد الشارع وحده ، والأمور التي يجب أن يصل فيها الإنسان إلى قناعة عقلية ، لا يشترط فيها أن يحسن الإنسان تعدادها ، ولا ذكر التفصيلات في شأنها ، وإنما يكفي فيها أنه لو سئل الإنسان عنها ألا ينكرها ، وأن يعرف بعض الأدلة الإجمالية فيها .

فإذا أدركت حدود التقليد فإنك تجد محل الغلط الكثير في هذا الشأن ، تجد إنساناً يقلد حيث لا يجوز التقليد ، وإنساناً يتحرج عن التقليد حيث يجوز التقليد ، وإنساناً تدفعه الثقة فيقلد في الأخطاء المنسوبة إلى إنسان ، وقد تكون مكذوبة عليه ، وكل ذلك لابد للمسلم أن يحرر ذاته منه ... وهكذا نجد أغلاطاً في التصور العام عن الإسلام ، وأغلاطاً في التصور حول قضية الإيمان ، وأغلاطاً في التصور العام عن مقامات السير في دين الله ،

وأغلاطاً في قضية التكليف ، وأغلاطاً في التصورات عن النفس والعقل والقلب والروح ، وكل ذلك تنعكس سلبياته على المسلم وعلى الحياة الإسلامية نوع انعكاس ، وإذا بحثنا عن سبب مجموعة الأغلاط التي ذكرناها ، فإننا نجد أن سببها يعود إلى فقدان العلم الصحيح المستوعب الشامل وخاصة عند العلماء الذين عنهم يأخذ الآخذون المفاهيم والتصورات والذين هم القدوة العملية وإليهم المرجع ...

النظرة الكلية الشاملة للإسلام أحياناً نجدها مفقودة ، الفهم الصحيح المستوعب للكتاب والسنّة نجده قاصراً ... التصور العام عن طرق استنباط الأحكام الشرعية نجده ضعيفاً ... العلوم التي انبثقت عن الكتاب والسنة من فقه وتوحيد وتصوف نجد التصورات في شأنها إما قاصرة أو ضعيفة أو غير شاملة أو فيها أخطاء ، ما يلزم من جوانب أخرى كلها ضروري لاستكمال الثقافة الإسلامية المتكاملة نجده مهزوزاً أو معدوماً ... القدوة الصالحة في هذا كله ، والبيئات الصالحة لعطاء هذا كله تكاد تكون محصورة ...

ومن أجل بعض هذا كتبنا كتاب (جند الله ثقافة وأخلاقاً) وكتبنا كتاب (جولات في الفقهين الكبير والأكبر وأصولها) وكتبنا هذه السلسلة لأن التصوف ودوائره كان من أهم الأسباب التي عن طريقها تسلل الغلط إلى كثير من الدوائر ... وقبل أن نبدأ الكلام فيه نحب أن نعتذر لعلمائنا وشيوخنا المحققين إذ إننا ونحن نتهم بالقصور ، ونوزع التهم يميناً وشمالاً لم نقصد أن نمس منهم أحداً ، ولكن نريد أن ترتفع همنا وهم إخواننا طلاب العلم لنحصّل جميعاً ما ينبغي لنا من كمال . وإنما فصلت في هذا المدخل في هذه الأمور التي ذكرتها حتى لا يغيب عن بال أحد محلّ بحثنا في هذا الكتاب بالنسبة لمجموع ما يحتاجه الإنسان ، وأن هذا الكتاب ليس إلا تصحيحاً لبعض الأمور في جانب واحد ، وكل ذلك للتنبيه على أن هذا الكتاب جزء من كل ، ولنبدأ الكلام في علم التصوف .

* * *

الباب الثاني
في مجالات علم التصوف الأصيلة

تجد في كتب هذا العلم عشرات الآلاف من المسائل ، تجدها في معرض تقرير مسائله ، أو في ذكر قضايا تاريخية ، أو في معرض الكلام عن أئمته وأعلامه المشتغلين فيه ، ولكن مجالات هذا العلم الأصيلة ترجع إلى مجموعة أمور ، وكلها يكمل بعضها البعض ، وبعضها متداخل في بعضها الآخر ، فهو في مباحثه الرئيسية يبحث في الروح وفي القلب وفي العقل وفي النفس ، كما يبحث في الجانب التحقيقي من علم العقائد ، وفي الجانب القلبي من قضايا الفقه ، وفي الجانب العملي التحققي بالكتاب والسنة ، ثم محاولة للتحقق الكامل بحال رسول الله ﷺ وأصحابه ، وسيرهم في مقامات الإسلام والإيمان والإحسان والتقوى والشكر وغير ذلك ، ومباحثه هذه ذات جانبين : نظري وعملي ، ونستطيع أن نقول : إن هذه هي مجالات هذا العلم الرئيسية ، ولكن ككل علم لابد أن تنشأ بسبب مجالاته الرئيسية مجالات أخرى متفرعة عن هذه المجالات ، وهذا يقتضي اصطلاحات لغوية ، ومصطلحات علمية وتعبيرات خاصة ، كما يقتضي وجود مدارس وأئمة ، وتجارب ووقائع ، كما يقتضي وجود خطأ يحتاج إلى تحقيق وتحرير وتنقيح ، وهذا كله يقتضي ضوابط وقواعد تضبط الشطط ، وتبعد عن الانحراف ، وتبقى الأمور في إطارها الصحيح ، وكل هذا ارتبط بهذا العلم وأصبح أجزاء فيه وهذا الباب تعريف بمجالات هذا العلم الرئيسية كما حددناها ، فلنعرض لها باختصار لندرك طبيعة هذا العلم من خلال معرفتنا لهذه المجالات الرئيسية فيه .

١ ـ الروح في علم التصوف :

ليس في هذا العلم في أصوله بحث في ماهية الروح فهذا شيء محكوم بالنصوص ، والنصوص لم تتحدث عن هذه الماهية ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾[1] ... فالبحث عن ماهية الروح تكلف ، وأهل هذا العلم بعيدون عن التكلف ، ولذلك كان كلامهم في الروح يدور حول قضيتين هما :

إرجاع الروح إلى أصل معرفتها ، وإرجاعها إلى كمال عبوديتها ، فالله عز وجل قال

---

(١) الإسراء : ٨٥ .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾[١] ... قال أبي بن كعب : جمعهم فجعلهم أرواحاً ثم صورهم فاستنطقهم فتكلموا ثم أخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ...[٢] .

فالروح في أصل الخلقة عارفة بالله مقرة له بالعبودية معترفة أنه ربها ، ولكنها بمخالطتها الجسد تطرأ عليها الطوارىء ، فتفقد من معرفتها وعبوديتها نتيجة لذلك ونتيجة لسماعها وتلقيها وأخذها من بيئتها ، كما قال عليه السلام « يولد الإنسان على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصّرانه أو يمجسانه »[٣] فالروح تبدأ تتأثر بمجموعة العوامل التي تحيط بها ، ويترتب على ذلك ما يترتب من بُعْدٍ كثير أو قليل عن معرفتها الخالصة بالله وعبوديتها له ، وهذا يقتضي إرجاعها إلى أصلها وإلى كمالها .:. كثيراً ما يقع الناس في غلو يبعدهم عن الفطرة ، أو في تقصير يبعدهم عن العبودية ، قال تعالى ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الحَقَّ ﴾[٤] .

وقال تعالى عن أهل الكتاب ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[٥] .

إن إرجاع الروح إلى وضعها الأصيل الكامل ليس عملية سهلة لا يتقنها كل إنسان ، وهذا العلم يبحث فيما يبحث في هذا الشأن . فالروح ينبغي أن تعود الى معرفتها الكاملة بالله ، وهذا يقتضي فيما يقتضي أن يتحقق الإنسان بأسماء الله مع العبودية الكاملة لله ، وهذا طريقه علم صحيح ومجالسة مع أهل ذلك وذكر لله عز وجل ، قال تعالى ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ الرَّحْمَنُ فاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾[٦] . لاحظ قوله تعالى ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ إن هذا النص يحتمل أكثر من معنى ، أحدها أن تسأل العارفين بالله عن الله . وفي وصية لقمان لابنه قال تعالى ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾[٧] فالرجاعون إلى الله طريقهم مسلوكة ، فالعلم بالله وصفاته والعلم بالعبودية الخالصة

---

(١) الأعراف : ١٧٢ .

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل وفيه محمد بن يعقوب الربالي وهو مستور وبقية رجاله رجال الصحيح كذا في مجمع الزوائد ٧ / ٢٥ .

(٣) رواه البخاري وغيره .

(٤) النساء : ١٧١ .

(٥) الحديد : ٢٦ .

(٦) الفرقان : ٥٨ ، ٥٩ .

(٧) لقمان : ١٥ .

لله وطريقها والأخذ عن أهل ذلك والاقتداء بهم مع الذكر الكثير وتذكر الآخرة ذلك هو طريق الروح إلى العودة . ونلح على قضية الذكر لأنه بالذكر يتم التحقق الكامل بأسماء الله وبمعرفته ، يقول رسول الله ﷺ في ما يرويه عن ربه « وأنا معه إذا ذكرني »[١] . فالله عز وجل مع العبد إذا ذكره العبد ، ومعية الله للعبد آثارها كثيرة ، من جملتها رعاية الله للعبد ، فلا يخطىء ولا يزل ، ومن جملتها أن يحققه الله عز وجل بأسمائه ، فمعية الله لروح الإنسان تجعل هذه الروح تأخذ من أسماء الله وصفاته كالعلم والحكمة والرحمة مع التحقق بالعبودية له جلّ جلاله ، فهذا أول مجال من مجالات علم التصوف .

٢ ـ القلب في علم التصوف :

يوجد عن القلب في كتاب الله كلام كثير ، قال تعالى : ﴿ **فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾[٢] فالقلب يعمى ، وقال تعالى ﴿ **لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ** ﴾[٣] فالقلوب تقسو ، وقال تعالى ﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً** ﴾[٤] فالقلوب تمرض . وقال تعالى ﴿ **كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾[٥] وقال تعالى ﴿ **خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ** ﴾[٦] فالقلب يصيبه الختم ويكون عليه الران ، وقال تعالى ﴿ **وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ** ﴾[٧] فالقلب الكافر يصغي لوسوسة شياطين الإنس والجن وقال تعالى ﴿ **يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾[٨] . فللقلب وضعه الصحي الذي يكون به سليماً وقال تعالى ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى** ﴾[٩] . فالقلب يمتحن كما يمتحن الجسد وبالتالي فإنه يسقط أو ينجح ، وقال تعالى : ﴿ **لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا** ﴾ [١٠] . فهناك قلوب لا تعقل ، وقال تعالى ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ** ﴾[١١] فالإنسان يريد ولكن القلب لا يطاوع ، وقال تعالى ﴿ **ومن يؤمن بالله يهد**

(١) متفق عليه .
(٢) الحج : ٤٦ .
(٣) الحج : ٥٣ .
(٤) البقرة : ١٠ .
(٥) المطففين : ١٤ .
(٦) البقرة : ٧ .
(٧) الأنعام : ١١٣ .
(٨) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .
(٩) الحجرات : ٣ .
(١٠) الأعراف : ١٧٩ .
(١١) الأنفال : ٢٤ .

قلبه ﴾[١] فلا هداية لقلب إلا بالإيمان بالله ، وقال تعالى ﴿ **ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ، ماذا قال آنفاً أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم** ﴾[٢] فهذه حالة يطبع الله بها على قلب صاحبها ، وكذلك تجد كلاماً كثيراً عن القلب في حديث رسول الله ﷺ .

قال عليه الصلاة والسلام : « ألا وإن في الجسد لمضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب »[٣] وقال عليه الصلاة والسلام : « تعرض الفتن على القلوب عوداً عوداً فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلب ، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مربادّ كالكوز مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه »[٤] . قال أبو خالد : فقلت لسعد يا أبا مالك : ما أسودُ مربادٌّ ؟ قال : شدة البياض في سواد ، قلت فما مجخياً ؟ قال منكوساً .

عن حذيفة قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين ، قد رأيت أحدهما ، وأنا انتظر الآخر . حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن ، فعلموا من الكتاب وعلموا من السنة . يقول حذيفة : ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال : ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوكت ، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر المجل كجمر دحرجته على رجلك ، فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال للرجل ما أجلده ، ما أظرفه ، ما أعقله ، وما في قلبه مثقال حبة من إيمان ، ولقد أتي عليَّ زمان وما أبالي أيكم بايعت ، لئن كان مسلماً لَيَرُدَّنَّه عليَّ دِينُهُ ، وإن كان نصرانيّاً أو يهوديّاً لَيَرُدَّنَّه عليَّ ساعِيهِ ، وأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً »[٥] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح ، فأما القلب الأجرد

---

(١) التغابن : ١١ .
(٢) محمد : ١٦ .
(٣) رواه البخاري .
(٤) رواه مسلم .
(٥) رواه الشيخان وأبو داود والنسائي .

فقلب المؤمن فسراجه فيه نوره ، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق كمثل القرحة يمدها القيح والدم فأي المدّتين غلبت على الأخرى غلبت عليه »[1] ... وهكذا نجد كلاماً كثيراً عن القلب في كتاب الله وفي سنة رسوله عليه الصلاة والسلام ...

ما هي علامات صحة هذا القلب وسقمه ؟ وما هي موازين استقامته وانحرافه ؟ وما هي ضوابط كمالاته ونقصانه ؟ وكيف نعيد الإبصار الصحيح إليه والسمع الغيبي له ؟ كيف يستنير وكيف يظلم ؟ ما هو طريق السير إلى تنويره ؟ كل ذلك جزء من علم التصوف وكل ذلك له اختصاصيوه ، والمتبعون له ، والعاملون فيه ، ولا يجوز أن تخلو الأمة الإسلامية منهم ، ومتى خلت الأمة منهم فهذا يعني أن أنواعاً من العلوم بدأت ترتفع من الأرض . أخرى الترمذي بإسناد قال عنه حسن غريب عن أبي الدرداء قال : « كنا مع النبي ﷺ فشخص ببصره إلى السماء ، ثم قال : هذا أوانٌ يختلسُ العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء . فقال زياد بن لبيد الأنصاري : كيف يُختلسُ منا ، وقد قرأنا القرآن فوالله لنقرأنّهُ ولنقرئنّهُ نساءنا وأبناءنا ؟ فقال النبي ﷺ ثكلتك أمك يا زياد إنْ كنتُ لأعدّكَ من فقهاءِ أهل المدينة ، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم ؟ قال جبير : فلقيت عبادة بن الصامت فقلت ألا تسمع ما يقول أخوك أبو الدرداء ؟ فأخبرته بالذي قال أبو الدرداء قال : صدق إن شئت لأحدثنّك بأول علم يرفع ، أول علم يرفع من الناس : الخشوع ، يوشك أن تدخل مسجد الجامع فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً .. » .

ولاحظ هذه النصوص : قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ ﴾ - أي السورة المنزلة - ﴿ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾[2] وقال تعالى ﴿ قل هو ﴾ أي القرآن ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً ﴾[3] وقال تعالى ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[5] وقال

(١) قال ابن كثير عن سند هذا الحديث : وهذا إسناد جيد حسن .

(٢) التوبة : ١٢٥ .
(٣) فصلت : ٤٤ .

(٤) الأنفال : ٢ .
(٥) يونس : ٥٧ .

تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾[١] وقال تعالى ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾[٢] وقال تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[٣] إنك ترى من ملاحظة هذه النصوص موازين تعرف بها صحة القلب ومرضه من خلال أحواله مع القرآن ، وتدرك من خلالها كيف أن لبعض الناس قلباً ، وإذاً فبعضهم لا قلب له ، والقلب في هذا كله هو غير القلب الأحمر الذي ينظم عملية توزيع الدم ، والذي يشترك فيه الإنسان والحيوان ، إنه قلب آخر مرتبط بذلك القلب نوع ارتباط ومحله الصدر . قال تعالى ﴿ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[٤] . وقال تعالى ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾[٥] وهو موضوع مرّ معنا من قبل .

هذا الموضوع ، موضوع القلب صحته ومرضه ، جزء رئيسي من مباحث علم التصوف ، فالصوفية العاملون - تقريباً - هم أبرز من تكلم في هذا الموضوع خلال العصور ، حتى أصبحوا أهل الاختصاص فيه ، ولكن لما غلب الجهل على المتكلمين في هذا العلم ، اختلط الأمر حتى أصبح ما هو طريق صحة القلب علامة على الخطأ ، ومن ثم فقد عمت أمراض القلوب ، فكان ذلك جزءاً من أمراض هذا العصر ، وكان شيئاً طبيعياً أن يكون جزءاً من أجزاء التجديد الإسلامي المعاصر إحياء هذا الجانب .

مما مر تتبين أهمية هذا الجانب من علم التصوف ، وتتبين كذلك أهمية هذا العلم ، ومن النصوص التي ذكرناها ومن الملاحظات التي أبديناها يصبح بالإمكان أن نضع خطوطاً عريضة لقضية القلب هي بمثابة نقاط علاّم على الطريق الأقوم لهذا الموضوع .

١ - إن عالم القلب عالم واسع ، ومرضه وصحته قضيتان دقيقتان يتوقف عليهما فساد دنيا الإنسان وآخرته أو صلاحهما . فالقلب إذا كان مريضاً رافق ذلك في الدنيا مواقف متناقضة خاطئة ، يبقى الإنسان معها في قلق وحيرة ، وكان عاقبة أمره إلى بوار وخسار ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾[٦] .

---

(١) ق : ٣٧ .
(٢) الزمر : ٢٣ .
(٣) محمد : ٢٤ .
(٤) الحج : ٤٦ .
(٥) الأحزاب : ١٠ .
(٦) النساء : ٨٨ .

٢ ـ إصلاح القلب يحتاج إلى علم وعمل وصحبة . العلم : ليعلم الإنسان ماهية الصحة من المرض ، والعمل : لإنهاء المرض وطرده ، والصحبة : لاستمرار الهمة في السير والمذاكرة في شأنه حتى لا يتصور متصور أن ما دون الصحة صحة ، وهذه الأمور كلها بعض مباحث هذا العلم ، علم التصوف .

٣ ـ العقل في علم التصوف :

يلاحظ في المصطلحات الإسلامية أن هناك العقل التكليفي والعقل الشرعي ، فالعقل التكليفي يملكه كل إنسان ما لم يكن مجنوناً وبه يكلف الإنسان ، فهذا حدّ أدنى من العقل ، يملكه الإنسان المكلف ، وبسببه يكلف ويحاسب ، ويكون مسؤولاً أمام الله عن تصرفاته ، ثم بعد ذلك ، الناس قسمان : فقسم فقهوا عن الله وعقلوا خطابه فآمنوا به والتزموا فيه فهؤلاء هم العقلاء حقاً ، وفريق لم يفقه عن الله ولم يلتزم ، فهؤلاء لم يحصلوا العقل الشرعي ، قال تعالى عن أهل النار ﴿ **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾[1] . هذا النوع من العقل مقره القلب وله درجات ، فهناك العقل الشرعي الكامل الذي مظهره ضبط الإنسان شهواته على أمر الله ، مع الفهم عن الله ، والتسليم له . هذا النوع من العقل وكيفية الوصول إليه هو أحد مباحث علم التصوف .

كيف تفقه قلوبنا عن الله ؟ كيف يكون ضبطنا لأنفسنا عل مقتضى أمر الله ، ما هو الطريق لذلك ؟ كل ذلك من مباحث علم التصوف ، ولا شك أن هذا مرتبط بقضية الإرادة الخيِّرة وتقويمها ، ومخالفة النفس الأمارة بالسوء وتربيتها ، فموضوع العقل هذا مرتبط بعالم القلب من ناحية ، وعالم النفس من ناحية أخرى ... إن القلب عندما يكون ضعيفاً أمام قوة النفس الأمارة بالسوء فإنه يستسلم لرغباتها ، وأهوائها المخالفة لشرع الله ، وكلما قوي القلب بدأ يستعصي على هذه الرغبات ، ولكنه يبقى ضعيفاً أمام بعضها الآخر ، فمع كراهيته للمعصية نجده مغلوباً على أمره أحياناً أمام هوى نفسه الأمارة ، وهكذا نجد الناس أنواعاً تتدرج قوة ضبطهم لأنفسهم من الصفر إلى المائة على حسب كالهم ، فالضبط الكامل هو العقل الشرعي الكامل ، فكيف تتم عملية الارتقاء بالعقل من نقطة البداية حيث يبدأ الفقه عن الله حتى نقطة النهاية حيث يضبط سلوك الإنسان انضباطاً تاماً على أمر الله

---

(١) الملك : ١٠ .

في كل شيء ، هذا الجانب يبحثه علم التصوف ويتكلم فيه .

والانضباط على أمر الله لا يعني أن يخرج الإنسان من شهوات نفسه كلها ، فالإنسان مبتلى بهذه الشهوات ، وقد أعطاه الشارع المسار الصحيح لتحقيق الشهوات المباحة ، وفتح له منافذ للخلاص من الشهوات المحرمة وهذا كله جزء من الطريق ، فالسير الحقيقي إلى الله سير يتفق مع الفطرة ... ولا يعارضها ولا يحاربها ... نجد مسلماً راغباً في التوبة من الزنا مثلاً ، فإذا وجد في ظرف شهواني وجد نفسه مغلوباً على أمره مساقاً إلى المعصية من قبل نفسه وشيطانه مع كراهته لما هو فيه كيف يفعل هذا المسلم ليقوى قلبه على دفع المعصية والبعد عنها ؟

هناك مجموعة أمور: أن يزداد نور قلبه ، أن تزكو نفسه ، أن يسير في الطريق الصحيح لقضاء شهوته في حدود المباح ، أو أن يخفف من دوافع الشهوة بواسطة بعض الرياضات ، من تحكم بالتغذية ، وإتعاب للجسد ، وتخفيف للطعام ، وبعد عن مثيرات الشهوة وغير ذلك ، كل ذلك جزء من العلاج ليتغلب المسلم على المعصية ، وتغلبه على المعصية هو عقل في حقه ، والأمر واسع جداً : فهناك الشهوات الحسية ، وهناك الشهوات المعنوية ، كحب الرئاسة ، والجاه ، والحرص على الدنيا ، وغير ذلك ، وهناك ضبط الجوارح ومنها اللسان على أمر الله ، وهناك ضبط النفس والقلب على أمر الله ، وهناك السير نحو تحقيق الأوامر كلها ، كل ذلك أثر من آثار وجود العقل الشرعي عند الإنسان ، ولكي يصل الإنسان إلى العقل الشرعي فعليه أن يسير في طريق ذلك . وهذا أحد مجالات هذا العلم ومباحثه الرئيسية ، بل إنّ السير العملي الصحيح في هذا العلم هو في الحقيقة سير للوصول إلى العقل الشرعي الكامل ، فالراغبون في هذا العلم عليهم أن يرغبوا في مثل هذا ، والمعترضون عليه عليهم ألا يعترضوا على مثل هذا .

٤ ـ النفس في علم التصوف :

بعض الصوفية يعتبر النفس هي الروح بعد مخالطتها الجسد ، فمخالطة الروح للجسد جعلت للجسد تأثيرات عليها ، سبب هذه التأثيرات احتياجات الجسد التي تتبناها الروح ، فإذا ما أصبح للجسد مطالب مَرَضية ولم يكن هنالك ضبط للنفس ، وصلاح في القلب ، فإن مطالب النفس تصبح متنامية متجددة والجسد يسير في خدمتها نحو البوار ، عندما

خالطت الروح الجسد أصبح لها تطلعاتها ومن تطلعاتها الرغبة في الخلود الحسي أو المعنوي ، وهو الموضوع الذي استغله الشيطان في إزلال آدم ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى ﴾[1] وهكذا تتوالد عند النفس معان توصل في أحيان كثيرة إلى أمراض . والأمراض يتوالد بعضها عن بعض ، وتتزايد أو تتناقص ، ولكنها تبقى أمراضاً ومن ثم جاءت شرائع الله عز وجل بمجاهدة هذه النفس حتى تستقيم ، قال عليه الصلاة والسلام : « والمجاهد من جاهد نفسه في ذات الله » رواه الترمذي وقال تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾[3] . ولذلك كانت نقطة البداية في الصحة النفسية أو المرض النفسي ، عدم الرضى عن النفس . قال ابن عطاء في الحكم : (أصل كل معصية وشهوة وغفلة ، الرضى عن النفس ، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا عنها ، ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه ، فأي علم لعالم يرضى عن نفسه ، وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه) وقال الشيخ زروق : (وأصول الأخلاق المذمومة ثلاثة : الرضى عن النفس ، وخوف الخلق ، وهم الرزق ، فيتولد من الأول الشهوة والغفلة والمعصية ، ومن الثاني الغضب والحقد والحسد ، ومن الثالث المرض والطمع والبخل ، ثم قال : لكن التزام أصل واحد ينفي جميعها وهو عدم الرضى عن النفس في جميع الأحوال والحذر منها في كل الأوقات) وقال السلمي : (وأما أخلاق النفس فمنها : الكبر والعجب والفخر والخيلاء والغش والبغض والحرص والأمل والحقد والحسد والضجر والجزع والهلع والطمع والجمع والمنع والجبن والجهل والكسل والبذاء والجفاء واتباع الهوى والازدراء والاستهزاء والتمني والترفع والحدة والسفه والطيش والمراء والتحكم والظلم والعداوة والمنازعة والمعاندة والمخالفة والمغالبة والمزاحمة والغيبة والبهتان والكذب والنميمة والتهويش وسوء الظن والمهاجرة واللؤم والوقاحة والغدر والخيانة والفجور والشماتة ... إلى غير ذلك مما يكثر تعداده فيجب على المريد معرفتها ومجانبتها والمجاهدة في تبديلها بأحسن منها ، فمن لم يعرف ذلك لم يزدد مع مرور الأيام إلا إدباراً ، فتبدل الكبر بالتواضع ، والحدة بالتؤدة ، والكذب بالصدق ، وبالله التوفيق) . واستطراداً نقول : إن أصول المعالجة كما يراها أئمة السلوك إلى الله تكن في مخالفة النفس إذا طالبت بمعصية أو توسع في المباح ، وفي احتمال

---

(١) طه : ١٢٠ .
(٢) رواه الترمذي .
(٣) النازعات : ٤١ .

الأذى من الخلق في طاعة الله ، وفي التحكم باللباس ضمن الحدود الشرعية والمسنونة ، ولنرجع إلى أصل الموضوع :

قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾[3] وقال تعالى ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾[4] هذه آيات ذكرت حالات للنفس ، فهناك نفس مزكاة ، ونفس مدساة ، ونفس أمارة بالسوء ، ونفس لوامة ، ونفس مطمئنة ، تستحق من الله الرضى وهي في ذاتها راضية عن الله . يفهم من هذا كله ومن قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى ﴾[5] أن النفس بحاجة إلى مجاهدة . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[6] هذه المجاهدة ما هي ، وما هي حدودها ؟ وما هي وسائلها المشروعة ؟ وما هي كالات النفس المزكاة التي ينبغي أن تتحقق بها ، كل ذلك أحد مباحث علم التصوف الرئيسية وهو أحد مجالات هذا العلم . إن تزكية النفس هي إحدى أمهات أمور التصوف بل إنها لتكاد أن تكون علماً على هذا العلم وهي قضية أهملت في هذه الأمة تقريباً إلا عند هذه الطائفة مع إنه من المقاصد الرئيسية لبعثة الرسل عليهم السلام تزكية الأنفس . قال تعالى ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُم آيَاتِنَا وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ ﴾[7] إنك نادراً ما تجد من يتكلم في شأن تزكية النفس وهو عارف ماهية هذه التزكية وطريقها من خارج هذه الطائفة ، حاول أن تقارن بين آثار علماء المسلمين خلال العصور واحصِ من منهم تكلم في هذا الموضوع فإنك لا تجد إلا القليل من خارج هذه الطائفة أعطىٰ هذا الموضوع حقه أو أغناه . وحتى ابن القيم رحمه الله وهو أحد الأفذاذ الذين تكلموا في هذا الموضوع كانت نشأته وتربيته الأولى صوفية ثم تتلمذ على ابن تيمية فأعطى التصوف اتجاهاً سلفياً ولولا النشأة الأولى ما استطاع ابن القيم أن يفيض فيما أفاض فيه بل إنه عندما تكلم في كتابه « مدراج السالكين » عن

---

(١) الشمس : ٧ ـ ١٠ .
(٢) يوسف : ٥٣ .
(٣) القيامة : ٢ .
(٤) الفجر : ٢٧ ـ ٣٠ .
(٥) النازعات : ٤٠ .
(٦) العنكبوت : ٦٩ .
(٧) البقرة : ١٥١ .

معاني السير إلى الله بنىٰ على كتاب « منازل السائرين » للهروي الصوفي ، ولولا ابن القيم ما وجد في مدرسة ابن تيمية من يتكلم في هذا العلم ويخصه بالتأليف .. ومما مر معنا ندرك أن تزكية النفس تحتاج إلى مزك وتحتاج إلى مجاهدة من قبل صاحبها وهذا يقتضي علماً ، علماً بكمالات النفس ونقائصها ، وعلماً بطريق التحقق في الكمالات وطرق التخلص من النقائص وكل ذلك من مجالات علم التصوف الرئيسية .

٥ ـ التصوف والجانب التحققي من علم العقائد :

في علم العقائد عادةً تعرض مسائل الاعتقاد ، وتعرض الأدلة عليها ، وتذكر أمهات الأمور التي وقع فيها خلاف بين أهل السنة والجماعة وغيرهم ، ولا يشار إلى الجانب الذوقي والعاطفي والشعوري والتحققي والطريق إلى ذلك إلا لماماً ، فمثلاً يعرض في علم العقائد أن الله عز وجل متصف بالسمع والبصر والكلام والإرادة والقدرة والحياة والعلم ، ولكن أن يستشعر العبد أن الله يسمعه ، وأن الله يراه ، وأن يتذوق القلب وهو يقرأ القرآن أن القرآن كلام الله ، وأن يستشعر الإنسان أن كل شيء مخلوق هو أثر قدرة الله عز وجل .... هذه المعاني وأمثالها لا تبحث عادة في كتب علم العقائد ، وإنما تبحث عادة في كتب التصوف ، فهي التي تبحث عن تذوق معاني العقيدة ، مع ملاحظة أن هذا التحقّق ليس من باب المندوبات بل أحياناً يكون من باب الفرائض ، ونلاحظ أن السنة أعطت قضية التذوق لمعاني العقيدة الكثير الكثير « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً »[١] « ثلاث من كن فيه وجد فيهن طعم الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله ، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار »[٢] . في كتاب للعقائد قد تقرأ كلاماً عن الإيمان وحدّه ، وعن الكفر ومظاهره ، وعن النفاق وتعريفه ، ولكن كتب التصوف هي التي تتحدث عن الطريق للتحقق العملي بمعاني الإيمان ، والطريق العملي للتحقق باليقين والاطمئنان ، كما تذكر فيها طرق التخلص من النفاق ، وهذه كلها قضايا لا يكفي فيها أن يعرف الإنسان حدها فقد يعرف الإنسان حدها ويبقى بينه وبين حقائقها بعد إذا لم يسر في طريق ذلك ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا ، قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ

---

(١) رواه مسلم والترمذي .

(٢) رواه الشيخان والترمذي والنسائي .

الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾[1] أخرج الطبراني في الكبير بإسناد رجاله رجال الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كنت عند النبي ﷺ إذ جاءه حرملة بن زيد فجلس بين يديه فقال يا رسول الله : الإيمان ههنا : وأشار إلى لسانه ، والنفاق ههنا وأشار إلى صدره ولا نذكر الله إلا قليلاً فسكت عنه ﷺ فردد عليه ذلك حرملة فأخذ ﷺ بطرف حرملة فقال : « اللهم اجعل له لساناً صادقاً وقلباً شاكراً وارزقه حبي وحب من يحبني وصيِّر أمره إلى الخير » فقال حرملة : يا رسول الله إن لي إخواناً منافقين كنت فيهم رأساً ألا أدلك عليهم ؟ فقال ﷺ : « من جاءنا كما جئتنا استغفرنا له كما استغفرنا لك ومن أصر على دينه فالله أولى به ولا تخرق على أحد ستراً » وهكذا نجد أن قول اللسان شيء وما في القلب شيء آخر ، فما هو الطريق للتحقق بمعاني العقيدة ؟

تجد إنساناً يحفظ الكثير عن صفات رسول الله ﷺ ولكنه بعيد عن الاقتداء به ، وتجد إنساناً لا يعرف إلا القليل ولكنه حريص على الاقتداء ، تجد إنساناً قد أخذ حظه من وراثة النبوة في صفاتها الضرورية كالأمانة والتبليغ والصدق والفطانة ، وتجد إنساناً يتكلم في مثل هذا وهو أبعد الناس عن ذلك ، فمجرد العلم شيء والسير للتحقّق في طريق ذلك شيء آخر ، فما هو العلم الذي يدل على الطريق ويكمّل الجوانب التي تتحدث عنها كتب العقائد عادة ؟

إن هذا العلم هو علم التصوف من بين العلوم الإسلامية ، ولئن خالط هذا العلم الكثير فهذا لا يلغيه ، ولا يجعلنا نتحسس منه بل علينا أن نصفيه ونعطيه حدوده وحقوقه ، فعلم العقائد هو الذي يقيد علم التصوف ، وعلم التصوف هو الذي يكمل علم العقائد من حيث إنه الجانب التحققي فيه ، فإذا زاد على ذلك بأن ناقضه أو أوجد عقائد جديدة تخالف كتاباً وسنة أو تخالف عقائد أهل السنة والجماعة كما ورثت عن السلف فههنا الانحراف والزيغ والابتداع الخبيث ، عندما تقرأ في كتاب صوفي ، أو تسمع من صوفي كلمة لم ترد في كتاب أو سنة ، أو لم تجر عادة على ألسنة السلف مما ليس من قبيل الاصطلاح ، أو من قبيل الفهم الصحيح للنصوص ، أو من قبيل التحقق بمعنى مذكور في الكتاب والسنة فلا عليك أن ترده وأنت مطمئن على أن ما فعلته هو عين التصوف الحق وليس سواه ، وهؤلاء أئمة السلوك الذين أجمعت الأمة على قبولهم معك ... قال أبو سليمان الداراني : (ربما وقعت النكتة من

---

(١) الحجرات : ١٤ .

كلام القوم في قلبي فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل من الكتاب والسنة فإن الله ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها لي فيما سوى ذلك) ومن وصايا أئمة السلوك المشهورة قول أحدهم : (يا بني كن محدثاً صوفياً ولا تكن صوفياً محدثاً) وما ذلك إلا لأن الصوفي المحدث يجعل النص من وراء الهوى ، أما المحدث الصوفي فيجعل الهوى من وراء النص . عندما تجد في كتاب أو تسمع من إنسان فهماً لنص يخالف فهم أئمة الاعتقاد أو أئمة الاجتهاد أو أئمة التفسير أو قواعد الفقه فأسقطه بدون تردد . إن التصوف هو التحقق ، فإذا ما أراد أهله أن يعطونا عقائد جديدة ، أو اجتهادات فقهية جديدة ، أو تصورات خاطئة أو بناءات فاسدة في قضايا العقائد على أحاديث موضوعة أو ضعيفة فلا ينبغي أن نتردد في الرد ، بل إن مثل هذه المعاني هي أول ما يحمل عليه الحديث : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »[1] .

ترى أي حدث أكبر من أن نحدث في قضايا العقائد ما لم يجر على قلب صحابي أو على لسانه ، بل لو نطق به أحد أمام ذلك الجيل لقتلوه أو عزروه بلا تردد ... اللهم إننا سلم لمن سالمت ، حرب لمن حاربت ، براء من كل ما خالف هدي رسولك ﷺ وأصحابه . لقد أصبح من علامات الوصول عند متأخري الصوفية أن يقول الإنسان (أنا الله) وأصبح علامة على الفتوح أن يقول قائل : إن الكون هو الله . فوالله ما لهؤلاء إذ قالوها إلا السيف يقطع رقابهم مهما لبسوا من مسوح الترهب وتزيوا بأزياء الصلاح . جاء القرآن ليقول : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾[2] وهؤلاء يقولون عن كل شيء إنه الله ، ترى هل يتردد مسلم في أن يستعمل السيف مع هؤلاء ... أنا أقول هذا الكلام وأنا أعلم ما يتأولون به هذا الكلام ، ولكن والله لأن نقتل من يقول هذا وإن كان له تأويل أفضل ألف مرة أن نعتقد بصلاحه ، أو نسكت عليه ، مهما كان له من تأويل ، وأي تأويل يمكن أن يقبله قلب مسلم لإنسان يقول : (أنا الله) أو مثل ذلك من الكفر اللعين الخبيث . إن التصوف الحق هو التذوق للعقيدة الحق ، فإذا ما زاد على ذلك أصبح زندقة ولم يعد تصوفاً . على أننا نقول : إن علينا ألا نتسرع في الحكم بالكفر إلا بعد التثبت من فهمنا ، ومن نسبة القول إلى صاحبه . وعبارة : هذا النص كفر والله أعلم بصاحبه عبارة حكيمة إذا

---

(١) رواه البخاري .

(٢) المائدة : ٧٢ .

وافقت محلها حقيقة . وبعد هذا الاستطراد نرجع لنقول :

إن من مجالات علم التصوف الرئيسية هذا الجانب الذي أسميناه بالجانب التحققي بالعقائد الإسلامية ، عقائد أهل السنة والجماعة ، أما ما سوىذلك فليتق الله أهله ، ترى هل فهم أحد من سلف هذه الأمة أن العذاب في مثل قوله تعالى ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً ﴾[1] بأن العذاب ههنا من العذوبة . وهل فهم أحد من السلف مثل قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾[2] ترى هل فهم أحد من سلف هذه الأمة من مثل هذه الآية أن الكفار يتلذذون بالعذاب حتى لو عرض عليهم أن يخرجوا من النار ما خرجوا . أليس ربط هذه المعاني بالتصوف إثباتاً لعقائد مناقضة لما عليه السلف ، ولما ذكره أهل السنة والجماعة في كتبهم ، أليس هذا هو الضلال والكفر بعينهما ؟ شيء عجيب مثل هذه الاتجاهات والأعجب من ذلك أن يعتبر القائلون بمثل هذا أنهم عارفون بالله ، وأنهم أهل الحقيقة . تالله إنهم لأجهل خلق الله بالله ، وإنهم لأهل حقيقةِ الكفر .

إن الله عز وجل قال : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾[3] أن يجعل أحد لله من عباده جزءاً فذلك كفر مبين . أترى هؤلاء الذين يقولون بأن الكون هو جزء من الذات الإلهية تكثف : أفهؤلاء عارفون بالله ؟ يا ويلهم ، يا ويلهم ، اللهم إنا نبرأ إليك من تأويل الجاهلين وغلو الغالين وانتحال المبطلين ... إن هذا النوع من التصوف الذي يحرف النصوص عن مواضعها ، والذي يثبت عقائد مناقضة أو مخالفة لعقائد أهل السنة والجماعة ليس تصوفاً إسلامياً بل هو الضلال عن الحق ، إن التصوف الذي نعرفه والذي ندعو إليه هو التصوف الذي يتحقق به الإنسان بمعاني العقيدة ، فصاحبه عارف بالله معرفة أهل السنة والجماعة ، وله معرفة ذوقية شعورية تتفق مع محكمات الكتاب والسنة . فصاحبه متحقق بالاقتداء برسول الله ﷺ في الظاهر والباطن فهو يستشعر أمر الآخرة وكأنه رأي عين ، وقل مثل ذلك في استشعاره أمور العقيدة كلها أما أن يكون للصوفية

---

(١) النبأ : ٣١ .
(٢) فاطر : ٣٦ ، ٣٧ .
(٣) الزخرف : ١٥ .

عقائد خاصة بهم فإن هذا هو الضلال عن التصوف نفسه كما أراده أئمته الذين تكلموا فيه وابتدؤوه علماً منبثقاً عن الكتاب والسنة ، يجتمع في أهله الفهم الصحيح والتذوق الصحيح للنصوص . أما أن تحرّف النصوص عن مواضعها فذلك طريق اليهود مع كتبهم لا طريق المسلمين . تالله لقد ضل بعض هؤلاء أكثر من ضلال النصارى ، فالنصارى جعلوا المسيح جزءاً لله وهؤلاء جعلوا كل شيء جزءاً لله . إن التصوف الحق تحقق بأمور العقيدة فقط ولا زائد على ذلك .

٦ - التصوف كمكمل لعلم الفقه :

تبدأ كتب الفقه عادة بأبحاث الطهارة ، ولكنها نادراً ما تتحدث عن المعاني القلبية التي ينبغي أن ترافق عملية الطهارة ، ثم تتحدث عن الصلاة : شروطها وأركانها وواجباتها وسننها وآدابها ومكروهاتها ومفسداتها ، ولكنها لا تتحدث عن المعاني الباطنة التي ينبغي أن ترافقها : كالخشوع مثلاً ، والطريق له ، والعوامل المؤدية إليه . مع أنه علم من العلوم بشهادة النصوص ، بل هو أول علم يرفع من الأرض كما ورد في الحديث .

فما هو العلم الذي يكمل علم الفقه في هذه الشؤون ؟ لا شك أنه علم التصوف ؛ فهو العلم الذي يبحث عادة عن مثل هذه الشؤون ، فهو العلم الذي يكمل علم الفقه في النواحي الباطنة كعلم الإخلاص والطريق إليه ، بل هو الذي ينمي استعداد الإنسان للالتزام بالأحكام الفقهية ، لأن الإنسان لا يكمل التزامه إلا إذا كمل سيره الروحي ، ومن ثم فقد تحدث أئمة السلوك عن الفناء في أفعال الله ، وعن الفناء في صفاته ، وعن الفناء في ذاته ، وهي مواضيع سنرى ما فيها ، ثم يتحدثون عن الفناء في الأحكام ، فالنتيجة العادية للمعرفة الذوقية لله عز وجل هي الالتزام الكامل بأحكامه ، ومن هنا نفهم ضلال بعض المحسوبين على التصوف إذ يعتبرون السير إلى الله قرين التفلت من أحكامه ، وكيف يكون الأمر كذلك والله عز وجل يقول لرسوله ﷺ : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[1] ولذلك قال الجنيد في طائفة جعلت الوصول إلى الله قرين التفلت من أحكام الشريعة ، قال في هؤلاء : (نعم وصلوا ولكن إلى سقر) . وقديماً قال الفقهاء : (من تفقه ولم يتصوف فقد تفسّق ، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن

(١) الجاثية : ١٨ .

جمع بينهما فقد تحقق) فالتصوف لابد منه كمكمل للفقه ، والفقه لابد منه كحاكم على التصوف وكضابط للعمل وموجه له ومن فاته شيء من ذلك فقد فاته نصف الأمر ...

التصوف والفقه علمان متكاملان فإذا تعارضا فذلك الخطأ أو الضلال أو الانحراف ، والمقصود بالتعارض أن ينطلق الصوفي بعيداً عن الفقه ، مع أن الفقه هو الحاكم ، أو يبتعد الفقيه عن التطبيق فذلك علامة على فسوق القلب ، إنّ على الفقيه أن يتصوف ، وعلى الصوفي أن يتفقه ، والمراد بذلك أن يشمل علم الفقيه ما له علاقة بالأحكام ، وما له علاقة بطريق العمل والتحقق ، وأن يشمل علم الصوفي ما يلزمه من الأحكام التي يحتاج إليها ، وأن يرافق ذلك كله عمل صحيح على ضوء العلم الصحيح ، ولذلك قال كبار أئمة السلوك كالشيخ الرفاعي : (إن نهاية العلماء والصوفية واحدة) نقول هذا ههنا لأن بعض جهلة الصوفية يقذفون في وجه كل إنسان هذه العبارة (من لا شيخ له فشيخه الشيطان) يقولها صوفي جاهل وهو يدعو لشيخه الجاهل ، ويقولها صوفي جاهل وهو يدعو لشيخه العليم . ويقولها صوفي مخطىء وهو لا يعرف أن يضعها في مواضعها ... إن من لا شيخ له هو الإنسان الجاهل الذي لا يتعلم ويرفض التعليم فهذا إنسان شيخه الشيطان ، أما الإنسان الذي يسير على ضوء العلم فهذا إمامه العلم والشريعة .

من القواعد التي ذكرها الشيخ زروق في كتابه (قواعد التصوف) موضوع احتياج المريد للشيخ فقال : إن التقوى لا تحتاج إلى شيخ لوضوحها وقال : (واللبيب يكفي الكتاب في ترقيه ولكنه لا يسلم من رعونة نفسه) فالمهم إذن هو قدرة الإنسان على التعلم ثم السير على ضوء هذا العلم .. هذا هو الحد الأدنى الذي افترضه الله على عباده ، وهذا يمكن أن يتوافر للإنسان إذا كان عنده قدرة على التعلم والفهم من خلال مطالعات شخصية في الكتب المعتمدة الموثقة ، كما يمكن أن يأخذه الإنسان من العلماء العاملين سواء كانوا ممن اصطلح على تسميتهم صوفية أو لا وهو موضوع سنراه ، ولكننا أحببنا أن نؤكده بأن نذكره أكثر من مرة ، ولنعد إلى موضوعنا ، إن علم التصوف وعلم الفقه علمان متكاملان ، ولا بد منهما لكل إنسان مع ملاحظة أن ما يحتاجه إنسان منهما يختلف عما يحتاجه إنسان آخر ، ويبقى التوسع فيهما أو في واحد منهما من فروض الكفايات في حق الأمة ، ومن باب المندوبات في حق كل مسلم ، وبهذه الفقرة عرفنا مجالاً رئيسياً من مجالات علم التصوف .

٧ ـ التصوف والجانب العملي التحققي بالكتاب والسنة :

الكتـاب والسنـة نصوص ، والمسلم مكلف بـالفقـه لهـا والتحقـق فيهـا ، فـإذا وجـد فقـه للنصـوص ، دون تحقـق فيهـا كان هنـاك خلـل ، فرسـول الله ﷺ « كان خلقـه القرآن » وأصحـاب رسـول الله ﷺ كانـوا يحفظـون بعض القرآن فيتـدبرونـه ، ثم يعملـون بـه ، ثم ينتقلون إلى غيره .

والعلماء العاملون ، والصوفية المحققون هم الذين اجتمع لهم الفقه والتحقق بآن واحد . مـا هو الإيمان وما هي حقيقته وكيف التحقق بذلك ؟ ما هو الإسلام ومـا هي حقيقتـه وكيف التحقق بـذلـك ؟ مـا هو الإحسـان ومـا هي حقيقتـه ؟ وكيف التحقق بـذلـك ؟ مـا هي التقوى ؟ وما هي حقيقتها وكيفية التحقق بذلك ؟ ما هو الشكر وما هي حقيقته وكيفيـة التحقق بذلك ؟ وقل مثل ذلك في الصبر والتسليم والرضا والتوكل ومحبـة الله والإخلاص ... وقل مثل ذلك في الحلم والكرم والعفـة والتواضع وعـدم الاستشراف لمـا في أيـدي الآخرين ، والزهد والورع والخشوع ... وقل مثل ذلك في آداب الظـاهر والبـاطن ، إنْ في الصلاة ، أو في الـزكاة ، أو في الصـوم ، أو في الحـج ، أو في السفر ، أو في الجهـاد ، أو في التنـاصـح والمذاكرة ، أو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو في أدب الصحبة والجوار ، أو في البر وصلـة الأرحـام ، إلى غير ذلـك ممـا تحـدثت عنـه النصوص ... الفقـه الصحيـح للنصـوص ، والتحقق الصحيح بها يمثل الأخذ الكامل للكتاب والسنة . وقد بذل العلمـاء الربـانيون كامل الجهـد للوصول إلى فقـه الكتـاب والسنـة ، وبـذل الصوفيـة المحققـون كامـل الجهـد للتحقـق بالكتاب والسنة لتبقى معانيها حية تتمثل بأنـاسي هم محل القـدوة خلال العصور ، وبـذلـك كله بقي ويبقى الإسلام حياً ، ولا يأتي الخلل إلا من فهم خـاطىء أو قـاصر ، أو من تحقق قاصر أو ناقص ، وقد وجد هذا وهذا فكان ما كان ، ولابد من عودة كاملـة لهـذا وهـذا حتى يصلح الأمر ويحيـا الإسلام . والطـامـة الكبرى تكـون عنـدمـا يجتمـع فهم خـاطىء وتحقـق خاطىء وأبشع ما نرى ذلك عند بعض جهلة الصوفية ، فعندئذ يقع في هـذه الأمـة مـا وقع في غيرهـا من تحريف للكلم عن مواضعـه ، وتحقق في مسـارب الضلال ، وههنـا تـأتي مهمـة العلمـاء الربـانيين في إرجـاع الأمور إلى نصـابهـا في نفي تـأويل الجـاهلين وتحريف الغـالين وانتحال المبطلين .....

عند قوله تعالى ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنَ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ﴾[1] وقف بعض جهلة الصوفية ، فأرجع الضمير في كلمتي منه إلى الله عز وجل ، وذلك تحريف للكلم عن مواضعه ، وفهم جاهل للنصوص لم يقل به أحد من هذه الأمة ، وأمثال ذلك ما أكثره عند أمثال هؤلاء ، فإذا ما سكت العالم أمام هذا الهراء فماذا بقى من معالم للعلم - بل للإسلام - لم تهدم .

إن واجب العالم العامل في هذا المقام أن يعيد الأمر إلى نصابه من أجل سلامة الفهم ، وأن يحقق المسلم بما يستوجبه الفهم الصحيح للنص في الفرار من قسوة القلب بمعرفة أسبابها ، والفرار من موجباتها ، والتحقق بما يقابلها من إخبات لله رب العالمين وخشوع له ، إن هذا هو المجال الصحيح للعالم والصوفي ، أو للعالم الصوفي وما سوى ذلك فليس من العلم في شيء ، ولا من التصوف في ورد ولا صدر ، وفي هذا المقام نذكر هذا النص : أخرج الدارمي عن معاذ أنه قال : « إنه يفتح القرآن على الناس حتى تقرأه المرأة والصبي والرجل فيقول الرجل : قرأت القرآن فلم أتبع ثم يقوم به فيهم فلا يتبع ، ثم يحتظر في بيته مسجداً فلا يتبع ، فيقول : قد قرأت القرآن فلم أتبع وقمت به فلم أتبع واحتظرت في بيتي مسجداً فلم أتبع ، والله لآتينهم بحديث لا يجدونه في كتاب الله ولم يسمعوه عن رسول الله لعلي أتبع . قال معاذ : فإياكم وما جاء به فإنه ضلالة » وأخرج أبو داود عن معاذ رضي الله عنه أنه قال : « إن وراءكم فتناً يكثر فيها المال ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق والرجل والمرأة والعبد والحر والصغير والكبير ، فيوشك قائل أن يقول : ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن وما هم بمتبعي حتى أبتدع لهم غيره ، فإياكم وما ابتدع فإنما ابتدع ضلالة ، وأحذركم زلّة الحكيم ؛ فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلال على لسان الحكيم ، وقد يقول المنافق كلمة الحق وقال : اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات التي يقال ما هذه ؟ ولا يثنينك ذلك عنه فإنه لعله يراجع وتلق الحق إذا سمعته فإن على الحق نوراً » .

إن المجال الصحيح للتصوف الصحيح هو التحقق الصحيح بالنصوص على ضوء الفهم الصحيح فالصوفي الحق هو الذي لا يكتفي بمجرد الفهم بل يحاول أن يجمع مع الفهم التحقق

---

(١) البقرة : ٧٤ .

حيث يفوت غيره ذلك . أما ما سوى ذلك فليس تصوفاً بل هو انحراف وضلال ...

عندما تعرّف السنة يقال في تعريفها : هي ما أُثر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة ، والصفة على أنواع : منها الصفة الحسية ، ومنها الصفة المعنوية ، والصفة المعنوية أو الباطنة يسميها الصوفية حالاً ، والصوفية المحققون هم من أكثر خلق الله حرصاً على التحقق بصفة رسول الله ﷺ الظاهرة والباطنة ، فكما أنهم حريصون على الاقتداء به ﷺ في لباسه وطعامه وشرابه وهيئته فهم حريصون على الاقتداء به باطناً ، وعلى أن يتحققوا بحاله عليه الصلاة والسلام « كان رسول الله ﷺ إذا صلى يسمع من جوفه أزيز كأزيز المرجل »[1] من كثرة خشوعه عليه الصلاة والسلام . هذا حال وكان رسول الله ﷺ أحب اللباس إليه القميص أي ما يسمى باصطلاح الناس اليوم (الكلابية) فهذه صفة ، والصوفية أكثر الناس مسارعة إلى التحقق بصفات رسول الله ﷺ العملية والحالية . فهذا مجال رئيسي آخر للتصوف الحق ، فإذا أدرك إنسان ما ذكرناه في هذه الفقرات السبع ، أدرك ماهية علم التصوف ، ومجاله الحقيقي . وأدرك بالتالي جوانب الغلو والانحراف عن هذا العلم ، كما أدرك خطأ الذين يحاربونه كله ، وأدرك من خلال ذلك كثيراً من الأسباب التي تدعو بعض الناس إلى أن يحاربوا هذا العلم بسبب انحرافات بعض المنتسبين إليه ، وعلى أهل العلم في كل عصر أن يضعوا الأمور في مواضعها ، دون حساسيات ، ودون وجل ، ودون خوف من لومة اللائمين بالباطل ؛ فذلك جزء من التحقق بقوله تعالى ﴿ **يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ** ﴾[2] نسأل الله أن يجعلنا منهم ...

وشيء عادي ، وهذه مجالات التصوف أن يعتبر التصوف علماً ، وأن يكون لهذا العلم اصطلاحاته ككل علم ، ومن ثم نجد في هذا العلم اصطلاحات : حال ، ومقام ، وبقاء ، وفناء ، وقبض ، وبسط ، وغير ذلك من اصطلاحات كثيرة ، وكلها تعبر عن معان صحيحة في الأصل ، وإذا أعطاها بعض المنتسبين الغلاة لهذا العلم مفاهيم خاطئة فهذا لا يؤثر على جوهر الحقيقة .

وكما نشأت لهذا العلم وفيه اصطلاحات فقد وجد عند أهل هذا العلم كثير من الأمور اعتمدوها لإقامته ، وللتحقق بمضامينه كأثر عن نص أو أثر عن تجربة ، هذه الأمور أصبحت

---

(١) رواه أبو داود والترمذي .

(٢) المائدة : ٥٤ .

جزءاً كذلك من هذا العلم . وما دام الأصل المعتمد في هـذا العلم أن الفقـه الصحيح هو الحـاكم فلا حرج في أمر يعتمد إذا كانت الفتوى الصحيحة المستقيمة تجيزه . أما إذا كان غير ذلك فهو مردود على صاحبه كائناً من كان . وإذا أردنا أن نختصر في تعريف هذا العلم بعد أن أدركنا أبعاده وآفاقه ومجالاته الرئيسية فإننا نستطيع أن نقول : إن التصوف ـ باختصـار ـ هو السير إلى الله في الطريق الذي حدده الله لمرضاته . فليكن الباب الثـالث في هـذا الموضوع ، ومن الآن فصاعداً علينا أن تعطي للعمل محله بعد الفهم .

* * *

الباب الثالث

في السير إلى الله

« ماذا يعني : ما هي أركانه ؟ ما هي نقطة البداية فيه ؟ »

السير إلى الله يعني الانتقال من نفس غير مزكاة إلى نفس مزكاة ، ومن عقل غير شرعي إلى عقل شرعي ، ومن قلب كافر أو منافق أو فاسق أو مريض أو قاس إلى قلب مطمئن سليم ، ومن روح شاردة عن باب الله غير متذكرة لعبوديتها وغير متحققة بهذه العبودية إلى روح عارفة بالله قائمة بحقوق العبودية له ، ومن جسد غير منضبط بضوابط الشرع إلى جسم منضبط بشريعة الله عز وجل ، وبالجملة من ذات أقل كمالاً إلى ذات أكثر كمالاً في صلاحها وفي اقتدائها برسول الله ﷺ قولاً وفعلاً وحالاً . هذا كله يدخل في عباراتهم في تعريف السير إلى الله ، وهو في مجمله كله سير إلى الله عز وجل . وبعضهم يقصر السير إلى الله على حالة وحيدة ، وهي حالة الانتقال من الإيمان العقلي إلى الإيمان الذوقي ، ومن حالة الشعور القلبي بأفعال الله إلى الشعور بصفاته ، إلى الاستغراق الروحي ، أو ما يسمى عندهم بمقام الفناء ، ثم مقام البقاء ، ولكن هذا في الحقيقة أحد مظاهر السير ، وواحد من أجزائه ومرحلة فيه . وما أكثر الأغلاط التي ترافق هذا الموضوع عند الكثيرين من الناس ، وما أكثر الأوهام التي تصيب تصورات الناس في هذا الشأن ، وما أكثر ما يختلط الجوهر بالعرض ، والحقيقة بالخطأ في هذا الموضوع ، ولذلك كان الكلام في هذا الموضوع صعباً ومحيراً ، كما أنّ تقريبه وتبسيطه فيه مشقة كبيرة ؛ فكثيراً ما تصبح الوسائل غايات ، والبدايات نهايات ، وما هو كالمقدمة لما بعده يصبح وكأنه كل شيء ، ولنضرب على ذلك مثلاً : يعتبر بعضهم الوصول إلى القلب السليم المطمئن هو ذروة السير إلى الله ، ويعتبرون ذلك غاية الغايات وينسون واجبات كثيرة .

إن الوصول إلى القلب السليم هدف ، ولكن القلب السليم هو الذي يتلقى أوامر الله بمنتهى التسليم والرضى ، ويسير الجسم به على حسب أوامر الله بكامل القوة والحيوية والجدية ، ومن أوامر الله الأمر بالجهاد ، وجعل كلمة الله هي العليا ... فإن ترى صوفياً مشغولاً بقضية القلب السليم طوال حياته وهو ناس أوامر الله بإعلاء كلمته ، وغافل عن واجبات

الوقت الكثيرة ويعتبر ما هو فيه هو الكمال مع تفريطه بكثير من الواجبات ... مثل ذلك غلط كبير ، إن لم نقل أكثر من ذلك ، إن للفارق بين صاحب القلب السليم وغيره كما يكون في جوهر القلب يكون في صلاح العمل ، وقوة الأخذ بكتاب الله وأحكامه ، وقديماً كان ادعاء المعرفة بالله عاملاً من عوامل الفرار من الورع ... فأي معرفة هذه تلك التي ينطفىء بها من الإنسان نوع ورعه ؟ هذا رسول الله ﷺ أعرف الخلق بالله ، كان أكثر خلق الله خشية ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام « إني لأتقاكم لله وأكثركم له خشية »[1] .

إن الكلام عن السير إلى الله ليس سهلاً ... أولاً : لأنه يصعب حصره وضبطه ، وثانياً : لأن الناس في هذا الشأن أصناف ، ولكل مشربه الذي ألفه وأصبح ينظر إلى الأمور كلها بمنظاره الخاص به وهذا يستتبع أن يحاسبك صاحبه على ذلك ، والأخير مظهر من مظاهر الغلط في هذا الشأن ، ومن العجيب أنك تجد عند كثير من الناس القاعدة المسلمة والعمل المخالف ، فمثلاً من عبارات الصوفية المشهورة على لسان كل واحد منهم (لله طرائق على عدد الخلائق) وهي عبارة واضحة المعنى تشير إلى أن طرق الوصول إلى الله كثيرة جداً ، ولكنك تجد الكثيرين يربطون بين الوصول وبين معان بعينها ، هذه المعاني قد لا يستطيعون إقامة الدليل على اعتمادها ، فكيف يعلق أمر الوصول إلى الله - وهو من أهم الأمور الشرعية على الإطلاق - بقضايا لم تكن النصوص فيها واضحة وضوحاً كاملاً ؟ لذلك أجدني مضطراً لعرض قضية السير إلى الله عز وجل مرة ومرة ومرة ، بشكل ثم بآخر ليتضح الأمر في هذا الشأن ، وليتجنب المسلم الأغاليط ، وأهم من هذا كله ليأخذ حظه من السير إلى الله على بصيرة .

إن كثيرين من الناس ربطوا بين التصوف والألغاز ، وجعلوه مليئاً بالأسرار ؛ فضخموا وأوهموا حتى أصبح التصوف علماً على الشيء الذي لا يمكن فهمه أصلاً ، وجعلوا التصوف شيئاً خاصاً بطبقة من الناس وهو في أصله ومضمونه مطالب به كل الناس ، فهل كان واحد من الصحابة إلا وله سيره الخالص إلى الله عز وجل ، وهل الصحابة إلا قدوة الخلق في كل شيء ؟ ولماذا الدعاوى والتبجحات ؟

هذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهو الذي تمر عليه أكثر الطرق الصوفية في زعم

(١) متفق عليه .

الكثيرين عندما سأله بعضهم : هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله ؟ قال : لا ... ما أعلمه إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن وما في هذه الصحيفة[1] . ولم يكن في الصحيفة إلا بعض الأحكام الشرعية ، فالأمر إذن لا يخرج عن أن الإنسان كلما صفا حاله مع الله ، دق فهمه عن الله وعن رسول الله ﷺ . فالمرجع هو الكتاب والسنة . إنه لابد من إرجاع التصوف إلى أصوله الصحيحة ليكون زاداً للجميع ، ثم لكل إنسان سقفه وفهمه ، وقد خص رسول الله ﷺ بعض أصحابه بمعان ولكنها ليست من قبيل التكليف العام للأمة ، ثم إن تفسير هذه المعاني معروف ، فلا يجوز لأحد أن يحملها على ما ينقض الشريعة . لقد خص حذيفة رضي الله عنه بتعريفه على المنافقين ، وسر ذلك واضح وهو أن يوجد في جيل الصحابة من يضع الأمور في مواضعها إذا أصبح لواحد من المنافقين وضع يمكن أن يؤثر فيه على المجتمع الإسلامي ، وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول : (أخذت عن رسول الله ﷺ جرابين ، جراباً بثثته بينكم ، وجراباً لو ذكرته لقطع مني هذا الحلقوم)[2] رواه البخاري ، والجراب الثاني لمح إليه أبو هريرة عندما كان يقول : أعوذ بالله أن تدركني سنة ستين وإمرة الصبيان ، وقد تبين بعد ذلك أنه يعني إمرة يزيد بن معاوية ، وإذن فالأمر مرتبط بقضية أحداث سياسية معينة ستجري على هذه الأمة ، لو تكلم بها لقتل بسبب ما سيتركه كلامه من آثار ، فلو كان ما عند أبي هريرة مما كلفت به الأمة لأظهره ، وعلى كل الأحوال ، فإن كلامه لا يصلح متكأً لأي إنسان يدعي أن هذا الذي خص به هو نوع كذا وكذا مما لا يتفق مع أصل شرعي ، إذ في هذه الحالة يستطيع كل مدع وكل عدو للإسلام وكل زنديق ، وكل باطني أن يدعي أن ما هو فيه وما يدعو إليه هو من مثل هذا الجراب : هذا كلام ساقط لا تقوم به حجة . ليس هناك في الإسلام ظاهر ينقض باطناً ولا باطن ينقض ظاهراً ومن ادعى ذلك فإنه كافر بإجماع المسلمين ﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[3] « وايم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء »[4] ، إنه بحجة الأسرار صار لكل قضية رموزها ، وبحجة معرفة أسرار الذات الإلهية ، طرح بعضهم قضية وحدة الوجود حتى أصبح المسلم عند هؤلاء لا يعتبر عارفاً بالله حتى يعتقد أن المكوّن هو

---

(١) رواه البخاري والترمذي وأبو داود والنسائي وأحمد واللفظ للبخاري .

(٢) رواه البخاري . (٣) يوسف : ١٠٨ . (٤) رواه ابن ماجه .

عين الكون ، ويراوغ بعضهم في هذا الشأن فإن جاءه متشرع فسرها له بشكل وإن جاءه مستسلم فسرها له بشكل آخر ، ونحن لا نحاسب الناس على نياتهم ولكن نحاسبهم على أقوالهم . قال بعض الصوفية :

وما الكون في التمثال إلا كثلجة	وأنت لها الماء الذي هو نابع
فما الثلج في تمثالنا غير مائه	وغيران في حكم قضته الشرائع

ماذا يفهم الفاهم من هذين البيتين سوى أن هذا الكون هو الذات الإلهية بعينها ولكنها تكثفت فصارت كوناً ، كالماء تكثف فصار ثلجاً . فالشرائع تقول : إن الكون غير المكوّن بينما الكون هو الله في زعم هؤلاء ، أو هو جزء من الذات الإلهية تكثف .

وعبر بعضهم عن هذا الموضوع بالمثال التالي : إن هذا الكون بالنسبة للذات الإلهية كله كموج البحر فلا هو عين البحر وليس غيره . ونقول : إن موج البحر هو جزء من البحر .

لهؤلاء نقول : أفهمونا قوله تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً ، إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾[1] ما المراد بهذا ؟ أليست هذه الآية واضحة في الإنكار على من جعل لله تعالى جزءاً ، وأن مَن جعل له ذلك فهو كافر بيّن الكفر ... فهل الأسرار المدعاة في التصوف نتيجتها أن نضل كما ضلت أمم سابقة ؟ نعوذ بالله من ذلك .

نحن نعلم أن هناك حالات للسالك يستشعر فيها أحدية الذات الإلهية ويستشعر فيها اسم الله الصمد ، وهي حالة يستشعر فيها السالك فناء كل شيء ، ولكن هذا الشعور لابد أن يرافقه الاعتقاد بأن الله خالق ، وأن هناك مخلوقاً ، وأن الخالق غير المخلوق . إن التصوف هو تذوق العقيدة لا تقريرها بما يخالف النصوص والفهم الصحيح لها ولا يفوتنا ههنا أن نقول : إن هناك ناساً يؤولون مثل هذا الكلام الذي ذكرناه تأويلات يتفق ظاهرها مع شرع الله ، وقد سمعنا بعض شيوخنا يحمل البيتين على محمل مقبول شرعاً ، أمثال هؤلاء نحاسبهم على أقوالهم ونكل نياتهم إلى الله عز وجل ، فإذا كانت أقوالهم في هذا الشأن كاعتقادهم فيه فنرجو لهم السلامة ، وإلا فنصوص الكتاب ظاهرة في الحكم عليهم ...

إن التصوف علم يحتاجه كل الناس ، ويسع كل الناس ، وقد يدق فهم بعض السالكين

(١) الزخرف : ١٥ .

لبعض النصوص ، وقد يفهم بعض السالكين إلى الله من معاني النصوص دقائق صحيحة لا يفطن لها الآخرون وكل ذلك لا غبار عليه إذا لم ينقص نصاً أو يخالف نصاً أو إجماعاً ، غير أنا نرى كثيراً من الكلام عند طبقات من الصوفية لا مثيل له في عصر الصحابة ، ولا في عصر التابعين ، ولا في عصر تابعي التابعين وهو يخالف النصوص ويخالف الإجماع . ثم بعد ذلك يقدم التصوف للأمة على أنه هو هذا ويريد أصحابه هؤلاء من الأمة أن تسلم لهم بذلك ومن لم يسلم فيا ويله من الألسنة الحداد والقلوب المنكرة .. لهؤلاء نقول على رسلكم : إن الله حد حدوداً وأنزل شرائع ونصوصاً هي الفيصل بين الحق والباطل وهي وحدها الحكم والميزان وما خالف ذلك ضلال وأوهام ...

على ضوء ما ذكرناه سنعرض قضية السير إلى الله ، غير أننا نحب أن ننبه إلى أن علينا ونحن نحاول أن نقدم التصوف علماً للجميع أن نتأنى في الحكم ... فقد نقل عن كثير من أئمة التصوف بعض المعاني التي يمكن أن يكون لها وجهها الفقهي والعلمي والشرعي ، ومن ثم فعلينا أن نتأنى في الحكم ليكون حكمنا على بصيرة ، فإذا اطمأننا إلى أن حكمنا على قضية ما حكم صحيح شرعاً ، وأن ما حكمنا عليه أنه خطأ لا يحتمل غير ذلك فلا ينبغي عندئذ أن نتردد في الحكم ، وسنحاول في هذه الرسالة أن نضع كثيراً من الأمور في نصابها بحيث يتضح وجه الخطأ أو الصواب مما له علاقة في التصوف وأهله ولنبدأ بالمقصود :

إن ركني السير إلى الله اللذين يستحيل سير بدونها هما العلم والذكر ، فلا سير إلى الله بدون علم ، ولا سير إلى الله بدون ذكر ، فالعلم هو الذي يوضح الطريق ، والذكر هو زاد الطريق وأداة الترقي قال عليه الصلاة والسلام : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه أو عالماً ومتعلماً »[1] ، نحن بحاجة إلى العلم لنعرف الأوامر الإلهية ، ولنعرف حكمتها ؛ فننفذ الأوامر ونحقق الحكمة ، ونحن بحاجة إلى الذكر ليكون الله معنا في سيرنا إليه ، قال الله عز وجل في الحديث القدسي : « وأنا معه إذا ذكرني »[2] وسنرى قضية الذكر وأهميتها في السير إلى الله بشكل واضح في تفصيلات تأتي . فركنا السير إلى الله : علم ، وذكر ، ويستحيل أن يكون سير إلا بذلك ، غير أن السُلاّك على نوعين :

نوع غلب عليه الذكر مع أخذه حظاً من العلم ، ونوع غلب عليه العلم مع أخذه حظاً

---

(١) رواه ابن ماجه وهو صحيح .

(٢) متفق عليه .

من الذكر ، وكل واحد منها واصل في النهاية بإذن الله عز وجل ، ولاشك أن المراد بالعلم هنا هو العلم بالكتاب والسنة وما يحتاجه السالك في سيره ، والمراد بالذكر هو الذكر المأثور أو المندوب إليه الداخل ضمن أوامر الله ورسوله عليه الصلاة والسلام في باب الذكر ...

إن الناس بشكل عام نوعان : نوع رغبته في العلم كبيرة وقدرته على العلم موجودة ، ونوع قدرته على العلم محدودة وطاقته على العبادة والعمل والذكر كبيرة ، فهذا طريقه الإكثار من الذكر ، ولابد له من العلم ، والأول طريقه العلم ولابدّ له من الذكر ولقد قال ابن البنا السرقسطي : (والقوم في هذا على فرقتين وحكمهم فيه على ضربين) .

الفرقة الأولى :

(ففرقة طريقهم مبنية : على العقائد وحسن النية) وهذا يقتضي علماً وحسن توجه إلى الله .

(قالوا فإن النفس كالمرآة ينطبع الماضي بها والآتي)

أي مما هو مستقر في أصل الخلقة للروح من معرفة الله والعبودية له والتسليم لأمره ماضياً وحاضراً ومستقبلاً (وإنما يعوقها أشياء) أي يعوق الروح عن أصل معرفتها أشياء هي (ترك المحاذاة أو الصدأ) أي يعوقها عن معرفتها وعبوديتها إما غفلتها أو الصدأ المتراكم عليها بسبب الذنوب أو الغفلة ، وإذا كان الأمر كذلك ، فالعلاج هو إزالة الصدأ بحسن التوجه إلى الله عز وجل وذلك لا يتم إلا بذكر (قالوا : وإن العين قد تغور) أي يذهب ماؤها ، والمراد بالعين هنا أصل الفطرة (وإنما يخرجها الحفير) أي يرجع الماء في العين بعد نضوبه الحفر وذلك عن طريق الذكر (وهذه طريقة الإشراق) أي هذا النوع من السير إلى الله يسمى طريق الإشراق . قال ابن عجيبة : وتسمى طريقة الجلاء والتصفية لأنها مبنية على تصفية القلوب والسرائر بتخليتها من الرذائل وتحليتها بالفضائل .

أقول : وهذا كله لا يتم إلا بعلم وذكر (كانت وتبقى ما الوجود باقٍ) فهي طريقة في السير إلى الله مستمرة لأن كثيرين يسهل عليهم بعد أخذ حظهم من العلم أن يستغرقوا في الذكر والعبادة .

الفرقة الثانية :

(وفرقــة قــالت بــأن العلمــا من خــارج بــالاكتســاب أسمى)

أي أرفع وأعظم فهذه طريقة الأصل فيها العلم ولابد من الذكر (وشرطوا العلوم في اصطلاحه) أي في اصطلاح هذا النوع من السير (إذ لا غنى للباب عن مفتاحه) فالعلم هو مفتاح الوصول إلى الله عز وجل ولكن أي نوع من العلم ؟

(فليس للطــامع فيــه مطمــع مــا لم تكن فيــه علـوم أربـع)

فهذه العلوم مع الذكر هي شرط الوصول وقد حددها (وهي علوم الذات والصفات) أي معرفة ذات الله وصفاته وأسمائه (والفقه والحديث والحالات) أي وعلم الفقه وعلم الحديث أي والقرآن ثم علم الأحوال والمقامات والمنازلات ومخادع النفوس ومكايدها وما يجري مجرى ذلك (وهذه طريقة البرهان) أي هذا النوع من السير، سير قائم على الدليل التفصيلي في كل قضية (وهي لكل حازم يقظان) وإذن فكلاً من الطريقتين لابد له من علم وعمل ، وأول العمل الذكر ، ولكن كما قلنا من قبل . طريقةٌ : العلم فيها له المقام الأول من حيث نسبة العمل ، وللذكر المقام الثاني ، وطريقة : الذكر فيها له المقام الأول من حيث نسبة ما يقضي فيه من الوقت ، وللعلم المقام الثاني فلابد في كل من الطريقتين من علم وعمل ، ولذلك يقول ابن البنا نفسه :

(إذ الطريــق العلم ثم العمــل ثم هبــات بعــدهــا تــؤمــل)

إنما قيدنا الأولية في الطريقتين من حيث نسبة ما يعطى لكل منها من الوقت ؛ لأن الأولية المطلقة في كل من الطريقتين للعلم ، لأن العلم هو الإمام ولذلك قالوا :

(وكل من بغير علم يعمــل أعمــالــه مردودة لا تقبــل)

فالعلم هو البداية لكل أنواع السُّلاّك إلى الله عز وجل ، ولذلك قال ابن البنا : (فإن أتى القوم أخو فتون) ، الفتون : كما قال في مختار الصحاح ـ هو الافتتان ، أي إذا جاء الشيوخ إنسان مفتتن بما يقطع عن الله وبما يشغل القلب عنه من ذنب وغيره (وقال يا قوم أتقبلوني) (فقبلوه صادقاً أو كاذباً) فذلك أدبهم مع الله ، قال تعالى ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ

﴿يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُم كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَكَذَلِكَ نُفصِّلُ الآيَاتُ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المُجْرِمِينَ﴾[1] . ولذلك قال (إذ كان محتوماً عليهم واجباً) ، أي أن يقبلوا كل من جاءهم ثم بيّن بماذا يأمرونه ابتداءً فقال : (وحذّروه من ركوب الإثم وأمروه باقتباس العلم) لاحظ قضية العلم كبداية (وأمروه بلزوم الطاعة والماء والقبلة والجماعة) (وقرروا فيه شروط التوبة وأمروه بلزوم الصحبة) (ثم أمروه بعلم ظاهر) ، لاحظ قضية العلم (حتى استقامت عنده السرائر) ...

إن ركني الطريق كما قلنا علم وذكر ، ولابد من تحديد لقضية العلم ، ومن تحديد لقضية الذكر . فكل إنسان يطالب من العلم بقدر حاله وبقدر احتياجه ، وهو موضوع يختلف باختلاف الناس والبيئات واختلاف العصور ، فهناك قضايا يطالب بها كل إنسان ، وقضايا يطالب بها إنسان دون إنسان ، لم يكن الصحابي مثلاً بحاجة إلى أن يتعلم علوم اللغة العربية ؛ لأنه يفهمها ويتكلمها على السليقة ، ولم يكن بحاجة إلى علم تجويد لأنه يتلقى عن رسول الله ﷺ القرآن كما أنزل ويؤديه كذلك ، وكثير من الشبه والبدع وأنواع من الكفريات وزخارفها لا يصادفها جيل ويصادفها جيل آخر ، أو لا يصادفها إنسان في مكان ويصادفها إنسان في مكان آخر ، وكثير من الأمور يطالب بها جيل ولا يطالب بها جيل آخر ، فمثلاً لا يطالب جيل يعيش في ظل دولة إسلامية بالعمل لإقامة دولة إسلامية ، ولا بالعلوم اللازمة لذلك ، ولكن جيلاً فقد الدولة الإسلامية - مثلاً - ، ولم يعد يعيش في قطر كلمة الله هي العليا فيه ، مثل هذا الجيل بحاجة إلى أن يعرف العلوم اللازمة لإقامة فريضة الله هذه ، إن قضية العلم والذكر - كركنين في السير إلى الله - لابد أن تفهم فهماً صحيحاً ، وخاصة في عصرنا الذي غفل الناس فيه عن فرائض ، وضيعوا كثيراً من طاقاتهم في الدفاع عن قضايا ليست من باب السنن ، وهي إما من باب المباحات أو من باب البدع ، وكل ذلك لا يستأهل أن يقف المسلم المعاصر عنده طويلاً ...

إذا اتضح - إلى حد ما - موضوع العلم والذكر - كركنين في السير إلى الله - فقد آن لنا أن ندخل لب الموضوع بشكل أوسع ، إن لب الموضوع في السير إلى الله هو الوصول إلى

---

(١) الأنعام : ٥٤ ، ٥٥ .

القلب السليم ، ففي الحديث « إن في الجسد لمضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب »[١] إن صلاح القلب به صلاح النفس . وصلاح الجسد وصلاح الروح ، وهو نقطة البداية في الاستقامة ، فبهذا الصلاح يكون استعداد الإنسان للتلقي عن الله كاملاً ، والقدرة على الخلاص من الفتنة متوافرة بإذن الله ، ومن ثم فنقطة البداية الصحيحة لحياة إسلامية كاملة هي صلاح القلب وإصلاحه ، والسير إلى الله في جوهره هو السير بالقلب نحو صلاحه ، ثم الاستمرار به في حالة الصلاح والقيام بحقوق العبودية الخالصة لله عز وجل حتى الموت ، وفي هذه الدائرة أغلاط كثيرة يقع فيها السُلاّك إلى الله عز وجل ستتبين لنا شيئاً فشيئاً .

* * *

---

(١) رواه البخاري .

الباب الرابع
في ماهية السير القلبي إلى الله

قال عليه الصلاةوالسلام في الحديث الذي مر معنا من قبل : « القلوب أربعة ، قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط عليه غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح ، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة ، يمدها القيح والدم ، فأي المدّتين غلبت على الأخرى ، غلبت عليه » في هذا الحديث : بيان أنواع القلوب البشرية بالنسبة لقضية الإيمان ، وواضح من الحديث أن القلب الكافر الذي ربط على غلافه ، والقلب المنكوس لا فائدة منهما في قضية الإيمان ، والقلب الذي فيه مثل السراج يزهر هذا هو القلب الهدف وهو القلب السليم ، وهو غاية سير السائرين وهو المطلب في عملية إصلاح القلب ، والقلب الذي هو محل العلاج هو القلب الذي لا زال فيه بقية من نور الفطرة ، أو هو القلب الذي فيه بقية من إيمان . مثل هذا القلب هو محل العلاج وهو القلب الذي يفترض على أصحابه فرضاً عينياً أن يسيروا في الطريق إلى صلاحه وإصلاحه ، إن الفريضة الأولى في حق هؤلاء هي السير نحو صلاح قلوبهم حتى تصل إلى أن تكون القلب المؤمن العارف ، ولا شك أن الفريضة الأولى في حق أصحاب القلب الكافر والقلب المنافق هي الإسلام والإيمان ، ولكن هذا مما لا نطمع فيه ، إذ لا محل عند هؤلاء للسماع أصلاً فضلاً عن الاستجابة ، قال تعالى ﴿ **إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ** ﴾[1] وإذن فالفريضة الأولى في حق مرضى القلوب هي إصلاح قلوبهم ، ثم الاستمرار بها في حالة معينة بإعطائها الزاد اليومي اللازم والغذاء الذي تحتاجه ، وهي قضية تختلف من إنسان لإنسان ، ثم ملاحظتها من فترة إلى أخرى بالقيام بعملية تجديد الإيمان فيها وهكذا الشأن حتى الوفاة . ولن يستطيع أحد أن يحافظ على سلامة قلبه وصحته وهو مقصر في فريضة من الفرائض ، أو هو مستمر على منكر من المنكرات لاحظ أن رسول الله ﷺ قال : « إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر في

---

(١) النمل : ٨٠ ، ٨١ .

اليوم مائة مرة »[١] ، فأنت ترى أن رسول الله ﷺ يفعل شيئاً ما ليبقى قلبه على حال معين ، ثم إنه عليه الصلاة والسلام يقول : « إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم »[٢] ، وقال عليه الصلاة والسلام « جددوا إيمانكم ... قيل يا رسول الله كيف نجدد إيماننا ، قال : أكثروا من قول لا إله إلا الله »[٣] . إنه من خلال هذه النصوص ندرك صحة ما قلناه .

وإن المرحلة الأولى هي الانتقال بالقلب من مرض إلى صحة ، ثم المرحلة الثانية إعطاء هذا القلب الزاد اليومي والزاد اللازم كل حين ليبقى القلب محافظاً على حالته الإيمانية الرفيعة ، ويبقى هذا هو الشأن في حق كل إنسان حياته كلها ، حتى يلقى الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾[٤] أي الموت فإنه به انكشاف الأمور الغيبية على حقيقتها .

والطريق إلى إصلاح القلب العلم ثم العمل بالإسلام ، ومحل الذكر في العمل هو الأول فهذه قضايا ثلاث . قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح : « إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورَعَوْا . وأصاب طائفة أخرى منها إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل ، من فَقَّهَ في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به »[٥] ، من هذا الحديث ندرك أن طبيعة القلوب تتحدد وتتبين من خلال موقفها من العلم والهدى الذي بعث به رسول الله ﷺ ، إن تجاوب القلوب مع الوحي أو عدم تجاوبها ، كل ذلك يعرف عن طريق العلم ، فالعلم هو الأول كوسيلة للإصلاح ، لكن القلوب تتفاوت في مواقفها ، وعلى كل فإذا كانت القلوب من النوع الذي يحفظ ولا ينبت أو من النوع الذي لا يحفظ ولا ينبت وكان فيها إيمان فإنه لابد من عملية إصلاحية علاجية ، وههنا يأتي كوضع ضروري دورُ المربي والولي المرشد أو الشيخ الكامل .

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود .
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير وأخرجه غيره وهو حديث حسن .
(٣) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن .
(٤) الحجر : ٩٩ .
(٥) أخرجه الشيخان .

بشكل عام ندرك من هذا الحديث أن العلم لابد منه ، ومع العلم العمل بالإسلام كطريق لابد منه لتتسلل أنوار الإيمان شيئاً فشيئاً إلى القلب حتى يستنير كله ، قال تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾[1] . فالإيمان لم يدخل ولكنه على وشك الدخول بسبب الإسلام وأعمال الإسلام . فكل عمل من الإسلام يفعله الإنسان إذا صحت النية فيه له نوره الذي يتسلل إلى القلب ، فإذا تصورنا الآن قلب إنسان فيه إيمان ونفاق ، وتصورنا أن هذا الإنسان قطع مدد النفاق عن قلبه بتركه الفسوق وأعمال الكافرين ، وبتركه المعاصي ، وتصورنا أن هذا الإنسان أقبل بهمة ونشاط على أعمال الإسلام من صلاة وزكاة وصوم وجهاد وذكر وقراءة قرآن وغير ذلك ، مثل هذا الإنسان لا يلبث بعد فترة حتى يستنير قلبه ، ويصل بسرعة الى القلب المؤمن الذي فيه مثل السراج يزهر ، والفرائض كلها لابد منها كطريق في عملية الإصلاح هذه ، ومن الفرائض الصلاة وهي ذكر ولكن باب الذكر أوسع ، والذكر في قضية القلوب له المكان الرفيع ، قال تعالى ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ ﴾[2] ولكن الوصول إلى الحالة التي يعطي الذكر فيها القلب اطمئناناً يعتبر وضعاً متقدماً في السير الإيماني ، ولذلك جاء قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ ، أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ ﴾[2] .. والفلسفة الكثيرة في هذا المقام لا تغني شيئاً عن العمل الكثير . إنه بقدر الهمة على العلم وعلى العمل - وخاصة الذكر - يستطيع الإنسان أن يقطع مراحل كبيرة ، ولحكمة ما نلاحظ أن رسول الله ﷺ وأصحابه قد كلفوا بالآيات الأولى من سورة المزمل سنة كاملة ﴿ يَاأَيُّهَا المزمّلُ * قُمْ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ القُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾[3] . أن يقبل المسلم على صلاته فريضة ونافلة ، وأن تكون له أوراده الكثيرة من الأذكار وقراءة القرآن مع العلم والقيام بفرائض الوقت كلها ، إن شيئاً ما من هذا القبيل يختصر به المسلم سيره إلى إصلاح قلبه بسرعة كبيرة ، وذلك بقدر ما يبذل من جهد وطاقة ؛ فالمنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقىٰ ... فإذا وصل إلى طمأنينة القلب وحياته وتنوره بقي عليه أن

---

(١) الحجرات : ١٤ . (٢) الرعد : ٢٨ .

(٣) المزمل . ١ - ٨ .

يحافظ على هذه الحالة ، وأن يزيد نورانية قلبه ؛ وذلك بالمحافظة على حد أدنى من الأوراد المتعددة تكفي احتياجات قلبه .

وهذه الاحتياجات تختلف باختلاف الناس فالإنسان المضطر لخلطة بيئات فاسدة أو كافرة تختلف حاجات قلبه عن إنسان يعيش ليلاً ونهاراً في بيئة المسجد ، وفي أجواء الصالحين . ولذلك نلاحظ أن رسول الله ﷺ ندب الناس إلى أنواع كثيرة من الأذكار والأوراد ، وترك بعد الفرائض والواجبات للإنسان حرية الاختيار للمندوبات وما أكثرها ، ثم على كل مسلم أن يلاحظ حاله القلبي في كل فترة ؛ فيجدد إيمانه بالإقبال على كلمة التوحيد ؛ ولذلك نلاحظ أن الله عز وجل فرض علينا فرائض سنوية كالصوم والزكاة ، وبعضها عمرية كالحج . وكل ذلك له محله في قضية استمرارية الإيمان وتجديده وحياته وصلاح القلب ، وفي دوائر مما ذكرناه تقع أغلاط كثيرة يقع فيها كثير من الناس ، فلنحاول أن نحدد بعض هذه الأغلاط من خلال عرض بعض الأمور :

أولا : لم يأمر الله عز وجل الإنسان بشيء ولم ينهه عن شيء إلا وفي ذلك حكمة ومصلحة للإنسان ، ومجموع ما فرض الله عز وجل على الإنسان وشرعه له هو الذي فيه دواؤه وعلاجه . فلو حدث أن الإنسان عطل أمراً ما من الأوامر فلابد أن يترتب على ذلك فساد في نفسه وفيمن حوله . هذه ناحية ، والناحية الثانية أنه ما من شيء شرعه الله عز وجل إلا وفي ذلك حكمة ، فإذا لم يحقق الإنسان الحكمة من تنفيذ الأمر فسيترتب على ذلك فساد في نفسه ، وفساد فيمن حوله ، ولنضرب على ذلك أمثلة تبين المراد : فرض الله عز وجل الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والكسب الحلال وصلة الأرحام وبر الوالدين وغير ذلك من الفرائض ، وكل فريضة خوطب بها الإنسان إذا أتى بها ترتّبت على ذلك مصلحة لا تتحقق إلا بها ، وإذا تركها ترتبت على ذلك مفسدة لا تزول إلا بإقامتها ، فهذا القتال في سبيل الله عندما يكون فريضة فيه فيُهمَل يترتب على ذلك كما قال الله عز وجل ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي عن إقامة فريضة القتال ﴿ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾[1] فحيث لا يكون قتال في سبيل الله يوجد إفساد وقطيعة رحم . وهكذا قل في أي فريضة تعطل ، وفي أي حرام يرتكب ، لابد أن يترتب على ذلك فساد ، قال تعالى ﴿ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ ﴾[2] ثم كل فريضة شرعها الله عز وجل إنما

(١) محمد : ٢٢ .
(٢) المائدة : ١٤ .

شرعها الحكمة ، فهذه الصلاة قال الله عز وجل فيها ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾[2] فعندما يؤدي الإنسان الصلاة وهو غافل عن ذكر الله ولا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر لا يكون قد أدى حكمة الصلاة ، وقل مثل ذلك في كل فريضة ..فهذا الصوم شرعه الله عز وجل كطريق موصل للتقوى وضبط النفس ، قال تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[3] وقال عليه الصلاة والسلام « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه »[4] فلو أن إنساناً صام ولم يحقق حكمة الله التي من أجلها شرع الصوم لا يكون قد أقام الفريضة حق القيام ، ومن ثم ندرك أن المربين الذين لا يربون على تحقيق الحكمة التي من أجلها كان الأمر والنهي مقصرون ، ولا يمكن أن تستقيم مع تقصيرهم نفس الإنسان ، ولا حياة الناس . وفي موضوعنا الذي نحن فيه لا يمكن أن يتم صلاح للقلب البشري أصلاً بهذا التفريط ...

وفي إغفال هذه القضية تكمن أهم أغلاط بعض المتصدرين للتوجيه والتربية من الصوفية وغيرهم ، ومن ثم فلا تصلح على يدهم القلوب ، ولو ادعوا في ذلك الدعاوي العريضة ، وخدعوا بذلك أنفسهم ومريديهم والمسلمين .

أن يكون للمسلم موقف من كل شيء سلباً أو إيجاباً هذا واجب وقته ، فهو ضد الكفر وأهله ونظامه ، ومع الإسلام وأهله ونظامه ...

أن يعطي المسلم ولاءه للمسلمين ويحجبه عن الكافرين ...

أن يعمل المسلم من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا ، وذلك لا يكون إلا إذا كان الإسلام حاكماً والمسلمين حاكمين ...

هذه كلها فرائض ، فعندما تجد مربياً يربي على تعطيلها بل على محاربة أهلها فكيف يستقيم قلب الإنسان على مثل هذا التعطيل !...

إن هؤلاء لا تصلح بهم القلوب بل تفسد بهم العقول والقلوب والأرواح والأجساد والفرد

---

(١) العنكبوت : ٤٥ .

(٢) طه : ١٤ .

(٣) البقرة : ١٨٣ .

(٤) رواه البخاري .

والمجتمع والإنسانية ...

هؤلاء ليست قلوبهم ربانية ولا محمدية ...

هل كان أصحاب رسول الله ﷺ على حياد في الصراع بين الكفر والإسلام ؟ هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يسمحون لأنفسهم أن يروا الكفر البواح وهم لا يعملون على إنهائه ؟ ماذا فعل أبو بكر للردة ؟ والآن هذه الردة مستشرية في كل مكان ، وكأن الدنيا عند بعض أهل الإسلام في غاية الإسلام ...

ولو أن هؤلاء اقتصروا على موقف العاجز واعترافه لهان الخطب ، ولكنهم مع عجزهم يربون على العجز ، ويفلسفون له ، ويحاربون من يتحملون في الله عبء الصراع مع الكفر وأهله وما أقساه من صراع ...

إنهم في هذا لا يخرجون عن كونهم نماذج تنطبق عليهم هذه الآيات : ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَّعَهُمْ شَهِيداً * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[1] ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ المعوِّقِينَ مِنكُمْ وَالقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إلينا وَلاَ يَأْتُونَ البَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا .. ﴾[2] إن من لم يفهم قضية صلاح القلب في الإطار الذي ذكرناه من أنه التطبيق الكامل للفرائض ، مع التحقق بالحِكَم التي شرعها الله عز وجل ... إن من لم يفهم المسألة كذلك فإنه يكون على غلط عظيم في فهم قضية القلب السليم .

ثانياً : ومن مظاهر الغلط الرئيسية التي يقع فيها بعض من يتصدون لعملية إصلاح القلوب : إن الكثيرين منهم تغيب عنهم أن من شروط صلاح القلب أو إصلاحه التخلي عن معانٍ ، بعينها كما أن من شروط ذلك التحقق بمعان بعينها . فالذكر بأنواعه ، وأعمال الإسلام بأنواعها ، كلها قضايا ذات صلة بإصلاح القلب ، وعدم التفريط بالقيام بحق الأمر والنهي شرط لصلاح القلب وإصلاحه .

---

(١) النساء : ٧٢ - ٧٣ . (٢) الأحزاب : ١٨ ، ١٩ .

وفي هذا المقام يقع بعض الناس في غفلة عن بدهيات ولتوضيح هذا المقام فلنستعرض بعض المعاني :

أ ـ قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ، يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1] فههنا مرض يستحيل معه شفاء القلب ، فههنا إنسان عنده استعداد لسماع الأكاذيب ، وعنده استعداد للتجسس على المسلمين لحساب الكافرين ﴿ سمّاعون للكذب ﴾ وما أكثر الذين يتبعون الإشاعات الكاذبة ، ويصدقونها في المسلمين ﴿ سماعون لقوم آخرين ﴾ وما أكثر الذين يتطوعون في نقل أخبار المؤمنين للكافرين .. فهؤلاء قال الله فيهم : ﴿ أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ﴾ . من هذا المثال ندرك أن قضية صلاح القلب لها شروطها السلبية كما أن لها شروطها الإيجابية ولكن القليلين هم الذين يدركون ذلك .

ب ـ قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَي عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۞ فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾[2] لاحظ أن قسوة القلب ههنا كانت عقوبة على نقض الميثاق في معان بعينها فما هي هذه المعاني ؟ إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والإيمان بالرسل ، ونصرتهم ، وإقراض الله قرضاً حسناً . والآن لاحظ أن الله عز وجل جعل قول المسلم : سمعنا وأطعنا عهداً وميثاقاً .. قال تعالى : ﴿ واذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾[3] فلنسائل أنفسنا : أي شيء أخذ العهد به على بني إسرائيل في هذه الآية لم يؤخذ علينا ؟ من صلاة أو زكاة أو إيمان بالرسل أو نصرة لهم أو إقراض لله عز وجل ،

---

(١) المائدة : ٤١ .

(٢) المائدة : ١٢ ـ ١٣ .

(٣) المائدة : ٧ .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾[1] ، ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ... ﴾[2] ، فلو أن المشتغلين في إصلاح القلوب لم يلاحظوا مثل هذا فأهملوا شيئاً منه كنصرة رسول الله ﷺ بنصرة شريعته ، ونصرة سنته ونصرة دينه ، ونصرة حملة شريعته ، فكيف يتم صلاح القلب والحالة هكذا ..؟ ومن هذا المثال ندرك كذلك أن قضية صلاح القلب لها شروطها السلبية والإيجابية . ولعله من هذا المثال والذي قبله نعلم أن من الشروط الأولى لصلاح القلب الانتماء للصف الإسلامي ، والكينونة معه ومنه - ونريد بالصف الإسلامي كل من يحمل الإسلام ويعمل من أجله - فنكون بذلك في الصف الذي يحارب أعداء الله بدلاً من أن نكون عوناً لهم وجواسيس على المسلمين ، إن الانتماء للصف الإسلامي هو الطريق الصحيح لنصرة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ولذلك فلا صلاح للقلب إذا لم يتم الانتماء ، يقول عليه الصلاة والسلام « أن تلزم جماعة المسلمين وإمامهم »[3] رواه البخاري والجماعة أن تكون على الحق ولو كنت وحدك ، هذا ما فسرها به ابن مسعود رضي الله عنه .. فأن نجد ناساً يحاربون التجمع على الحق ونصرته فذلك خطأ ، وأنى يكون مع ذلك صلاح قلوب ؟ اعتبر بعضهم حسن البنا رحمه الله مخطئاً لأنه تدخل في السياسة ، وكأن المسلم بالخيار ، وكل الاتجاهات الكافرة تتجمع لتصل إلى الحكم لتحقق أهدافها الكافرة التي فيها القضاء على الإسلام ... كأن المسلم بالخيار - والشأن كذلك - أن لا يتجمع المسلمون على الإسلام لينصروه ويحولوا دون القضاء عليه ، كأن هؤلاء لم يفهموا من الإسلام أبده بدهياته التي تقول : إن كلمة الله يجب أن تكون العليا ، وأن على المسلم أن يسير في طريق ذلك ، وكيف تكون كلمة الله هي العليا إذا لم يعمل المسلمون لذلك بطريق ذلك ؟ كل اتجاه كافر يعمل للوصول إلى الحكم في عصر أصبح الحكم يتدخل في الصغيرة والكبير ، فإلى من نوكل بقاء الإسلام واستمراره والله عز وجل يقول : ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾[4] وقال ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾[5] أم نريد أن نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اذهب أنت وربك

---

(١) الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦ .
(٢) الفتح : ٨ ، ٩ .
(٣) رواه البخاري .
(٤) محمد : ٤ .
(٥) محمد : ٣١ .

فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾[1] إن إصلاح القلب هو إحدى مهمات الرسل الأساسية ، فإذا تصدر لها من يريد أن يتصدروا لمقام الأنبياء دون دفع ثمن ذلك فيا فداحة الكارثة ، قال تعالى ﴿ وَكَأَيِّن مِن نَّبِيٍ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾[2] وفي قراءة ورش ﴿ وَكَأَيِّن مِن نَّبِيٍ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ وإذن فكثير من الرسل قتلوا ... ولقد رأيت بعض من يدّعون أنهم يسيرون في طريق إصلاح القلوب من يعتبرون القتل علامة على عدم الكمال ، فهل هؤلاء يعقلون ؟ هذا عمر قتل ... وهذا عثمان قتل ، وهذا علي قتل ، وهذا طلحة قتل ، وهذا الزبير قتل ، فهل هؤلاء لم يكملوا والقاعدون عن الجهاد هم الكُمّل ؟ أهذه تربية للقلوب أم إفساد لها ؟ نعوذ بالله أن نضل أو نضل .

جـ ـ قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه الإمام أحمد « لولا تمرغ قلوبكم وتزيدكم في الحديث لسمعتم ما أسمع » وقال : « لا تكثروا الكلام بغير ذكرالله فتقسو قلوبكم فإن القلب القاسي بعيد من الله »[3] . وقال تعالى عن أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم والذين مر ذكرهم معنا ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُون لِلسُّحْتِ ﴾[4] أي للحرام والرشا ... هذه النصوص وأمثالها تدلنا على كثرة الشروط السلبية والإيجابية لصلاح القلب من بعد عن اللقمة الحرام ، وبعد عن الكلمة الزائدة ، وغير ذلك ، وكثيرون من الذين يشتغلون في تربية الناس لا يفطنون لكل هذا .

ثالثاً : لا يصل القلب إلى أن يكون مؤمناً خالص الإيمان فيه مثل السراج يزهر ، إلا إذا وصل إلى معرفة الله معرفة ذوقية قلبية صافية ، والإنسان بقدر معرفته بالله ، يزداد خضوعاً لأحكامه ، وتطبيقاً لها ، والتزاماً بها ، وأخذاً لها بقوة ، مهما ترتب على ذلك من خرق عادات ، أو ضغط مجتمع ، أو انحراف سلطة . فالتلقي الكامل عن الله ، والعمل بشريعته ، وأخذ كتابه بقوة ؛ ذلك مقتضى صلاح القلب ، ولذلك خوطب المرسلون والمؤمنون بما خوطبوا به . قال تعالى ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾[5] ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِن رَّبِّكُمْ ﴾[6] وقال الله عز وجل لرسوله عليه الصلاة والسلام ﴿ ثُمَّ

---

(١) المائدة : ٢٧ .
(٢) آل عمران : ١٤٦ .
(٣) رواه الإمام مالك .
(٤) المائدة : ٤٢ .
(٥) مريم : ١٢ .
(٦) الزمر : ٥٥ .

جَعلْناكَ عَلَى شَرِيعةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عنكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ [1] هذا كله يشير إلى أن الوصول إلى القلب العارف هو مقدمة التلقي الكامل عن الله عز وجل ، ومن هنا نفهم خطأ الذين يتصورون أن السير إلى معرفة الله لايتطلب العمل بالأحكام ، ثم يتصورون أنه إذا وصل الإنسان إلى المعرفة فلا عليه لو فرَّط في الأحكام . إن هذا لهو الخطأ الكبير . فهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ أكثر خلق الله معرفة بالله ، وهم مع ذلك أكثرهم جهاداً في سبيله ، وأكثرهم التزاماً بأحكام شريعته ، لابد من وضع الأمور في مواضعها في هذه الشؤون كلها ، ذكر صاحب الرسالة القشيرية : أن اثنين من كبار الصوفية كانا في قتال أهل الكفر فالتفت أحدهما إلى الآخر ليقول : أتحس الآن بمتعة كتلك التي تمتعت بها ليلة عرسك ؟ ثم قال : أما أنا فكذلك ، فانظر بالله عليك حال هذا الصنف من الصوفية الذين يجددون في القلب تذكر حال أصحاب رسول الله ﷺ إذ كان أحدهم يرى أحلى أيامه يوم جهاد كما قال خالد رضي الله عنه (ما ليلة يهدى إليَّ فيها عروس أنا لها محب في يوم شديد زمهريره أحب إلي من أن أكون على رأس كتيبة من المهاجرين أصبح قوماً أو أمسيهم) ، قارن بين هذا الحال وحال الذين ألفوا الدعة والمتعة في أشد عصر وأصعبه يمر على الإسلام والمسلمين ، وباختصار نقول : إن السير القلبي يعني الوصول إلى الإيمان الخالص ومعرفة الله الكاملة . وأن لذلك طريقه السلبي والإيجابي ، وأن ذلك كله هو مقدمة الأخذ الكامل القوي لشريعة الله عز وجل ، وإقامة أحكامه ، وجعل كلمة الله هي العليا .

وفيما بين البداية والنهاية يوجد قصور وتقصير وأغلاط وإهمال ، ونسأل الله أن يلهمنا الحق وأن يجعلنا من العاملين .

* * *

---

(١) الجاثية : ١٨ ، ١٩ .

الباب الخامس

في الأوراد الواردات وفي أجواء آيات المشكاة

قال تعالى : ﴿ اللهُ نُورُ السّمواتِ والأرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، المِصْبَاحُ فِي زُجاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاس وَاللهُ بِكُل شَيء عَلِيمٌ * فِي بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِحُ لَهُ فِيهَا بِالغُدُوِ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارةٌ ولاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله وَإِقَامِ الصَّلاةِ وإِيتَاءِ الزَّكَاة ، يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ والأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ويَزِيدَهُمْ مِن فَضْلِهِ واللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1] إن فهم هذه الآيات من أعظم العون على فهم قضية القلوب ، وقضية السير إلى الله عز وجل ، وسنحاول أن نعرضها عرضاً مبسطاً ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً :

في الآية الأولى : مَثَلٌ أحد أجزائه المشكاة والمصباح والزجاجة .

المشكاة : هي الكوة غير النافذة في الجدار ، والمصباح : هو السراج ، والزجاجة : هي القنديل الذي يحوي السراج المنير .

هذه الأجزاء الثلاثة في المثل ماذا تقابل ؟ إنها تقابل في الإنسان المؤمن ثلاثة أشياء : جسده ، وقلبه ، والنور الموجود في هذا القلب، فالجسد تقابله المشكاة ، والقلب يقابله الزجاجة ، والنور يقابله السراج الموجود في الزجاجة ، ودليلنا على ما ذهبنا إليه من أن جسد المؤمن يقابل المشكاة ، وأن قلبه يقابل الزجاجة ، وأن النور الموجود في قلبه يقابل السراج الموجود في الزجاجة ، ما قاله ابن كثير : وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أُبي بن كعب في قوله تعالى : ﴿ اللهُ نُورُ السّمواتِ والأرْضِ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ قال هو المؤمن الذي جعل الله الإيمان والقرآن في صدره فضرب الله مثله فقال ﴿ اللهُ نُورُ السّمواتِ والأرْضِ ﴾ فبدأ بنور نفسه ثم ذكر نور المؤمن فقال : مثل نور من آمن به ، قال : فكان أُبي بن كعب يقرؤها (مَثَلُ نُورِ مَن آمنَ بِهِ) فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن

---

(١) سورة النور : ٣٥ ـ ٣٨ .

في صدره ، وهكذا رواه سعيد بن جبير وقيس بن سعد عن ابن عباس أنه قرأها كذلك « مثل نور من آمن بالله » من هذا النقل ندرك أن ما اتجهنا إليه صحيح فـ ﴿ اللهُ نُورُ السَّموات والأَرْضِ ﴾ بمعنى : أنه هاديها ؛ فلا هداية في السموات والأرض إلا بنوره ، جل جلاله ، ثم ضرب مثلاً لهدايته الأشياء بنوره بهداية المؤمن ، وضرب لهذه الهداية الأمثلة العظيمة لتتبين عظمة هدايته وجلالها ، وإذن فالمشكاة جسد المؤمن الذي يحوي قلبه ، والزجاجة هي قلب المؤمن الذي يحتوي نور القلب الذي به يهتدي المؤمن ، فيرى الأشياء على حقائقها ، ويسير على هدى من ربه بسبب هذا النور ، هذه هي المرحلة الأولى في هذا المثل ، ثم تأتي المرحلة الثانية في المثل : هذه الزجاجة التي تحتوي المصباح أي هذا القلب الذي يحتوي النور شُبِّه في شدة نوره بالكوكب المضيء الذي يشبه الدر لفرط ضيائه وصفاته ، ونلاحظ هنا أنه دمج الكلام عن الزجاجة ومصباحها أي القلب ونوره ؛ بأن شبه الجميع بالكوكب الدري ، فالسراج مضيء ، والزجاجة نفسها مضيئة لصفائها ونقائها ، وهذه هي المرحلة الثانية في المثل ، ثم تأتي المرحلة الثالثة : هذا المصباح في الزجاجة من أين يوقد ؟ من أين يستمد نوره ، كيف تستمر نورانيته ؟ أو نقول : هذا النور في القلب أو هذا القلب المنور من أين يستمد نورانيته ، وما هو المدد الذي يأتيه ؟ وما هو المولِّد لهذا النور ؟ قال تعالى ﴿ يُوقَدُ ﴾ أي هذا المصباح في الزجاجة ، أي النور الموجود في قلب المؤمن ﴿ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ أي كثيرة المنافع ﴿ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال النسفي : (يعني ليست من المشرق ولا من المغرب بل الوسط منها) ... والزيتونة هنا شريعة الله عز وجل قال ابن كثير : فشبه المؤمن في صفائه في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري ، وما يشبهه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل الذي لا كدر فيه ولا انحراف ، لاحظ قول ابن كثير (والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق) فالزيتونة هنا إذن هي شريعة الله ، وهي لا شرقية ولا غربية ، بل هي ربانية خالصة ، ونحن في عصرنا ندرك معنى كون شريعة الله لا شرقية ولا غربية ، بشكل أوسع مما كان السابقون يدركونه ، بعد أن أصبح الشرق علماً على الشيوعيين ، والغرب علماً على الرأسماليين ، وهذه هي المرحلة الثالثة من المثل ، ثم تأتي المرحلة الرابعة من المثل : هذه الشجرة المباركة التي يستمد منها القلب نوره ، هذه الشريعة النافعة التي يستمد منها القلب نوره كم هو عظيم نور زيتها ؟ قال تعالى ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ قال

النسفي : (وصف الزيت بالصفاء والوميض وأنه لتلألئه يكاد يضيء من غير نار) فما أعظم نورانية هذه الشريعة التي تمد نور القلب ؟ وما أعظم نور هذا القلب الذي يستمد نورانيته من شريعة هذه شأنها ولذلك قال تعالى : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ فهذه هي المرحلة الخامسة من المثل : قال النسفي : أي هذا النور الذي يشبّه به الحق نوع متضاعف قد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت حتى لم تبق بقية مما يقوي النور ، وهذا لأن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة كان أجمع لنوره بخلاف المكان الواسع فإن الضوء ينتشر فيه والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة وكذلك الزيت وصفاؤه قال ابن كثير : وقال السدّي في قوله تعالى ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ قال : نور النار ونور الزيت حين اجتمعا أضاءا ولا يضيء واحد بغير صاحبه . كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه ، لاحظ قوله : كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا . وبهذا ينتهي المثل الذي ضربه الله عز وجل لتوضيح نوع هدايته وعظمها .. ومن خلال المثل أدركنا أن العمل بشريعة الله هو الذي يمد نور الإيمان بالمدد الدائم ، وقد رأينا كلمة السدّي الأخيرة في هذا الموضوع حيث قال : نور النار ونور الزيت حين اجتمعا أضاءا ولا يضيء واحد بغير صاحبه ، كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه ، من هنا نعلم أن العمل بالقرآن هو المدد الدائم للقلب الذي به يبقى سراج القلب مشتعلاً ، وبه يبقى الإنسان مهتدياً ، وبقدر ما يعمل الإنسان بهذا القرآن يزداد نور قلبه اجتماعاً وإضاءة ، وتعكس المشكاة أي الجسد هذا النور ؛ فتضيء الطريق لصاحب النور ولغيره ... ولنستمر في عرض الآية .

مما مر من الآية ندرك عظيم هداية الله ، وندرك إشراق نوره ، ولكن لماذا يبقى ناس على الكفر ، والجواب أن هؤلاء لا يريد الله هدايتهم ولذلك قال تعالى ﴿ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي يهدي لنور شريعته ، أو يهدي الله من يشاء لأهل الإيمان حتى يأخذوا منهم ويهتدوا بهديهم . ثمّ تأتي الآية الثانية لتبين لنا أين نجد هذا النوع من الناس الذين هذا شأن قلوبهم في النور والهداية .

قال تعالى : ﴿ فِي بُيوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ قال النسفي : (أي كمشكاة في بعض بيوت الله وهي المساجد) والمشكاة هي جسد المؤمن ، فهذا النوع إذن من

القلوب وأهلها مظنة وجوده المساجد ، ومن هنا ندرك أن نقطة الانطلاق في التربية الإيمانية العالية هي المساجد ... ثم تستمر الآيات في وصف هذا النوع من الناس ﴿ **يُسبِّح لَهُ فيها** ﴾ أي في المساجد ﴿ **بالغُدو والآصَالِ** ﴾ أي بأداء الصلاة فيها صلاة الفجر وغيرها ﴿ **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار** ﴾ ذكرت لنا الآية ماهية الأعمال التي بها يكون المدد النوراني للقلب وهي : التسبيح ، والذكر ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والخوف مما يكون في اليوم الآخر .

ثم بين ربنا عز وجل بماذا سيتكرم على هؤلاء فقال : ﴿ **ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ ...

وقبل أن نبدأ بتبيان الهدف الذي من أجله سقنا الكلام في هذه الآيات نحب أن نسجل بعض الملاحظات استطراداً :

١ ـ كتب أحد أساتذة جامعة دمشق ومعروف عنه أنه ذو فكر يساري كتاباً عن الشموع والقناديل في الأدب العالمي وصل في نهايته على أنه لم يسجل في تاريخ العالم في وصف الشموع والقناديل أبلغ مما سجلته آية ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ .

٢ ـ نلاحظ من الآيات أهمية التربية المسجدية ، وأن الانطلاقة الإيمانية الصحيحة هي التي تبدأ من المسجد ، وفي الحديث « إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان »[1] .

٣ ـ هذه الآيات ألف بعضهم الرسائل المطولة فيها ولذلك نرجو ألا يظن أحد أننا أعطيناها حقها من البحث .. كل ما في الأمر أننا ذكرنا في تفسيرها ما يساعد على فهم ما نحن بصدده من هذه الرسالة .

وبعد ...

فلماذا تحدثنا عن الآيتين اللتين صدّرنا بها هذا الباب ؟ لقد تحدثنا عن هاتين الآيتين لنعرف الصلة بين العمل بالشريعة وبين نورانية القلب ، ولنعلم أن العمل بالشريعة له

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وهو حديث صحيح .

وارادته على القلب ، وأن لكل نوعٍ من العمل الصالح وارداته النورانية ، وأن هناك أعمالاً بعينها وارادتها في المقام الأعلى ، ولذلك خصتها الآيات بالذكر وهي التعلق بالمساجد وكثرة الذكر والتسبيح وإقامة الصلوات وإيتاء الزكوات والخوف من اليوم الآخر ، فمن طمع أن يكون قلبه مستنيراً دون أن تكون له أعماله وأوراده فإنه لا يكون قد أتى البيوت من أبوابها ...

ولعله من خلال ما مر أدركنا فكرة الورد والوارد التي يتحدث عنها الصوفية كثيراً . إن ورد الإنسان : هو ما رتبه على نفسه من أنواع الطاعات والعبادات ، والوارد : هو ما يكرم الله عز وجل به قلب الإنسان من فيوضات وأنوار ومعان ، وإذا أدركنا قضية الورد والوارد أدركنا ضرورة أن يكون للمسلم أوراده اليومية ، وسننقل فيما يأتي بعض عبارات ابن عطاء الله السكندري في قضية الورد والوارد ، ونعلق عليها للتتضح بعض جوانب هذا الموضوع من خلال كلام الصوفية بعد أن رأينا شيئاً مما تشير إليه النصوص فيه .

قال ابن عطاء : (تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال) .

أقول : إن الله عز وجل فرض على المسلم فرائض متنوعة ، وطالبه بأعمال كثيرة ؛ لأن القلب البشري يحتاج إلى أنواع من الواردات المتعددة ؛ فلكل عمل آثاره في القلب إذا صحت النية ، وصلاح القلب بالقيام بالأعمال كلها ، فكل عمل يخلف نوعاً من الأحوال في القلب وكل حال يحتاج إلى نوع من العمل الصالح حتى يكون ...

وقال ابن عطاء : (من علامات اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات والتكاسل عن القيام بالواجبات) .

أقول : في ذلك إشارة إلى أن المسلم عليه ألا يفرط في فريضة على حساب نافلة ، وهي قضية يغفل عنها أكثر الخلق ، فأكثر الخلق يجهلون فرائض الوقت - وما أكثرها - ويستغرقون بأمور هي من باب المباحات ، وبعضها من باب البدع ، ويظنون أنفسهم أنهم يحسنون صنعاً .

وقال ابن عطاء : (إذا رأيت عبداً أقامه الله تعالى بوجود الأوراد وأدامه عليها مع طول الإمداد فلا تستحقرن ما منحه مولاه لأنك لم تر عليه سيما العارفين ولا بهجة المحبين فلولا

وارد لما كان ورد) .

يفهم من كلام الشيخ أنه متى وجد الورد فقد وجد الوارد ، أحسَّ به صاحبه أم لم يحس ، أحس به الآخرون أو لم يحسوا وقد بين الشيخ أهمية الورد للإنسان . وأدّب بعض جهلة الصوفية الذين يحتقرون أهل الأوراد إذا لم تظهر عليهم بعض المعاني .

وقال مؤكداً أهمية الورد (لا يحتقر الورد إلا جهول الوارد يوجد في الدار الآخرة والورد ينطوي بانطواء هذه الدار وأولى ما يعتني به ما لا يخلف وجوده ... ورود الإمداد بحسب الاستعداد وشروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار) وقال : (مطالع الأنوار القلوب والأسرار نور مستودع في القلوب مدده من النور الوارد من خزائن الغيوب ، نور يكشف لك به عن آثاره ونور يكشف لك به أوصافه) .

في هذه الفقرة إشارة إلى أنواع من الواردات الإلهية على القلب والآثار التي تتركها فيه .

وقال مبيناً أنواعاً من الأحوال لها أنواع من الواردات : (إن أردت ورود المواهب عليك صحح الفقر والفاقة (إلى الله) لديك ، تحقق بذلك يمدك بعزه ، وتحقق بعجزك يمدك بقدرته ، وتحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته) وقال : (قوم تسبق أنوارهم أذكارهم ، وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم ، وقوم تتساوى أذكارهم وأنوارهم ، وقوم لا أذكار ولا أنوار نعوذ بالله من ذلك ، ذاكر ذكر ليستنير قلبه فكان ذاكراً ، وذاكر استنار قلبه فكان ذاكراً والذي استوت أذكاره وأنواره فبذكره يهتدي وبنوره يقتدي) .

قال حاضّاً أهل الذكر ألا يتركوا أورادهم بسبب بقاء غفلة القلوب (لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره ، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة ، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور ، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور وما ذلك على الله بعزيز) .

وقال مبيناً حكمة تعدد الطاعات في الشريعة : (لما علم الحق منك وجود الملل لوّن لك الطاعات ، وعلم منك وجود الشره فحجرها عليك في بعض الأوقات) أقول : كحجره الصلاة علينا عند طلوع الشمس ، وكحجره علينا أن نصوم يومي العيد وأيام التشريق .

وقال مبيناً محل الصلاة وأهمية وارداتها : (الصلاة طهور للقلب من أدناس الذنوب ، واستفتاح لباب الغيوب ، الصلاة محل المناجاة ومعدن المصافاة تتسع فيها ميادين الأسرار وتشرق فيها شوارق الأنوار ، علم وجود الضعف منك فقلل أعدادها وعلم احتياجك إلى فضله فكثر أمدادها) .

أقول : إن هذا القلب البشري يحتاج إلى أدوية وأغذية وفي الصلاة دواء وغذاء ، وفي الصوم دواء وغذاء ، وفي الذكر دواء وغذاء ، وفي الجهاد دواء وغذاء ، وفي صلة الأرحام دواء وغذاء ، وفي العلم دواء وغذاء ، وهذا كله في حق الأنبياء غذاء وترقيات ، ولعله بهذا الباب أدركنا أهمية الأوراد في حياة المسلم ، وأهميتها في إصلاح قلبه وفي ترقيه فلننتقل إلى باب آخر .

* * *

الباب السادس

في أن البداية الصحيحة في التربية الإسلامية بعد الإيمان العقلي وبعد واجب الوقت هي التركيز على القلب وخطورة الفشل في إصلاحه

نقطة البداية في التربية الإسلامية هي الإيمان فقد ورد في أكثر من أثر عن الصحابة هذا المعنى . « كنا نؤتي الإيمان قبل القرآن » وقد تحدثنا في كتاب (جند الله ثقافة وأخلاقاً) عن السر في ذلك وهنا نقول باختصار : إن القرآن له خصائصه ، ومن خصائصه أنه لا يأخذ الإنسان منه حظاً إلا إذا كان مؤمناً ؛ فهو لا يلامس القلوب إلا إذا كانت هذه القلوب مؤمنة ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَاأُنزِلَتْ سُورة فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَماتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾[1] . لاحظ أن السورة بالنسبة للذين في قلوبهم مرض تحدث تأثيراً عكسياً ؛ فَبَدَلاً من أن تكون زيادة إيمان في حقهم تكون عامل زيادة في المرض . وعلى هذا فنحن إذا ما أردنا أن يلامس القرآنُ القلبَ البشري ملامسة صحيحة بحيث يستفيد هذا القلب من القرآن ، فإن علينا أن نطبب هذا القلب أولاً بأن نجعله مؤمناً خالص الإيمان . وعلى هذا فأهم نقطة يركّز عليها المربي منذ الابتداء هي إصلاح القلب ، والفشل في هذا الشأن يدل إما على جهل المربي ، أو على عدم صدق المريد ، أو على أن المنهج خاطىء أصلاً .

إن نقطة البداية الصحيحة هي التركيز على القلب حتى تصل به إلى الصحة لأنه بمثل هذا النوع من السير تطمئن على وضع الإنسان ، وعلى خروجه من دائرة إغراء الشيطان ووسوسته وفتنته ، سواء كان الشيطان شيطان إنس أو جن . قال تعالى : ﴿ شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُورا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾[2] لاحظ ما دلت عليه الآية الأخيرة أن الذي يصغي قلبه إلى

(١) التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٢) الأنعام : ١١٢ ـ ١١٣ .

شياطين الإنس والجن ويرضى هذه الوسوسة هو الإنسان الذي لا يؤمن بالآخرة ، فإذا ما أردنا أن نخرج إنساناً عن دائرة وساوس الشياطين فإن علينا أن نبدأ بالقلب وإصلاحه . وعندما نقول القلب فلا يعني هذا إهمال الفكر ، بل من جملة ما يصلح به القلب العلمُ والفكر ، والمعرفة مع الذكر والعمل ، وغير ذلك مما رأيناه وسنراه في هذه الرسالة ...

في حياة رسول الله ﷺ والأصحاب تجد ظاهرة واضحة وهي أنك تجد الصحابي في بداية إسلامه في غاية الاندفاع نحو العمل ؛ حتى إن رسول الله ﷺ في كثير من الأحيان كان يتدخل لإرجاع بعض الأصحاب إلى دائرة الاعتدال . وهذه الحالة تجدها عند كل من يصدقون مع الله ، فإذا توجه إنسان إلى الله بصدق بعد حياة جاهلية ، أو بعد قبول للفهم الحق لدين الله عز وجل ، فإنك تجده مقبلاً على الله ، مندفعاً في الطريق إليه ، فعلى المربي في هذه المرحلة من الاندفاعة الصادقة أن ينصبّ جهده على نقل قلب الإنسان من المرض إلى الصحة ، لأننا إذا فشلنا في ذلك فإننا نعرض هذا الإنسان للانقطاع عن السير إلى الله ، أو لترك دعوة الله ، أو للانحراف عن أمر الله ، وباختصار فإننا نعرضه لقبول إلقاءات الشيطان . وما أخطرها ولتوضيح هذا المقام لابد من فهم هذه الآيات .

قال تعالى : ﴿ **وَما أَرْسَلْنا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيّ إلاَّ إِذَا تَمنَّى أَلقَى الشَّيْطَانُ في أُمْنِيَّتِه فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ واللهُ عَليمٌ حَكيمٌ * لِيجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ في قُلُوبِهِم مَّرضٌ والقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعيدٍ * وَلِيعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾[1] . لاحظ في الآيات قوله تعالى : ﴿ **لِيجْعَلَ مَا يُلْقِي الشيطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرضٌ وَالقَاسِيةِ قُلُوبُهُمْ** ﴾ . فمن كان في قلبه مرض أو كان قلبه قاسياً ، فهذا الذي يفتتن بإلقاء الشيطان . فإذا ما أردنا أن نجنب الإنسان فتنة الشيطان فعلينا أن ننقل قلبه من مرضه إلى صحته ، ومن قسوته إلى خشوعه ، ثم لاحظ في الآيات قوله تعالى : ﴿ **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ** ﴾ . إنك تجد في هذا النص أن العلم هو الطريق لصلاح القلب وإصلاحه ، فأهل العلم هم الذين يخرجون من إلقاءات الشيطان بخشوع أكثر ، ويقين أعلى ، وإيمان أرق ،

---

(١) الحج : ٥٢ ـ ٥٤ .

وهذا يؤكد ما ذكرناه من قبل من أن أحد ركني السير إلى الله العلمَ ، وأن الذي لا يقرّ بهذا خاطىء وواهم .

أسرعنا في ذكر هاتين الملاحظتين حول الآيات استعجالاً للمقصود الذي من أجله سقنا الآيات ، إلا أن الآيات تحتاج إلى وقفة أوسع ، فلنحاول عرضها ؛ لأن هذه الآيات من الآيات التي يكثر الأخذ والرد حول معناها ونحن في هذه السطور القليلة سنقدم خلاصة - بفضل الله - في شأنها لا يعثر عليها الإنسان إلا بمشقة : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى** ﴾ . ماذا يتمنى الرسول أو النبي ؟ إن أمنية الرسول أو النبي إنما هي في قومه وأتباعه ، وأن يرتفع بهم إلى مقام العبودية الكاملة أي إلى مقام الصديقية الكبرى . إن مثل هذا هو أمنية الرسول والنبي عليهم الصلاة والسلام جميعاً ، فماذا يفعل الشيطان في مثل هذه الحالة يحاول أن يقطع الطريق على أمنية الرسول والنبي بإلقاءاته الخبيثة في قلوب محلّ أمنية الرسول قال تعالى : ﴿ **إلاّ إذَا تَمنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ في أُمْنِيَّتِهِ** ﴾ . أي في قلوب محل أمنيته وهم قومه وأتباعه ، وهذا الذي يدل عليه السياق ، فإذا ألقى الشيطان إلقاءاته فإن من سنة الله عز وجل ﴿ **فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ إن من سنة الله عز وجل إبطال إلقاءات الشيطان ، وإحكام الآيات في القلوب على مقتضى العلم والحكمة ، وقد بين الله عز وجل سنته هذه بالآيتين التاليتين فقال : ﴿ **لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً للَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَّرضٌ** ﴾ . أي المنافقين ﴿ **وَالقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ** ﴾ أي المشركين أو المرضى بقسوة القلب ، ولو لم يكن شركاً فهؤلاء وهؤلاء هم الذين يقبلون إلقاءات الشيطان فيفتتنون بها ، ثم قال تعالى : ﴿ **وَإنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ** ﴾ ، دلت الآية على أن مرضى القلوب وقساتها ظالمون ، وأنهم في خلاف بعيد عن الحق . إن هؤلاء هم الذين يقبلون إلقاءات الشيطان ثم قال تعالى : ﴿ **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ أَنَّهُ الحقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ** ﴾ ، أي إن إلقاءات الشيطان في قلوب أهل العلم لا يترتب عليها إلا زيادة إيمان بالقرآن وزيادة خشوع للقرآن واطمئنان بين ثم قال تعالى : ﴿ **وإنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إلى صِراطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ ، أي في الفهم والسلوك .

من الآيات التي مرت معنا نعرف أن القلب البشري إذا قبل الحق اندفع فيه ، ثم تأتيه هجمة معاكسة من الشيطان ، هذه الهجمة إما أن يسقط فيها إنسان أو يرتفع بسببها

إنسان . يسقط مرضى القلوب وقساتها وينجح أصحاب العلم وأصحاب القلوب السليمة ، والمربي الذي لا يدرك هذه الأمور فيتوقعها ويلاحظها ويعرف كيف يتصرف أمامها ، مرب فاشل .

إذا أدركنا معنى الآيات التي مرت معنا أصبح بإمكاننا أن ندرك مضمون الحديث الذي رواه الإمام مسلم : « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين ، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض والآخر أسود مرباد كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه » ، فالفتن تعرض على القلوب بشكل مستمر ، فأي قلب هو الذي ينكر هذه الفتن فلا يقبلها ؟ إن الآيات دلتنا على هذا النوع من القلوب ، إنه القلب السليم من المرض ، والقلب غير القاسي ؛ لأن القلب المريض والقلب القاسي كلاهما قابل لإلقاء الشيطان ، ومن ثم ندرك بوضوح أن نقطة البداية الصحيحة في التربية الإسلامية هي التركيز على القلب للوصول به إلى حالة الصحة ، وأن كل فشل في ذلك إنما هو فشل في إيجاد المسلم الحق المستقيم على أمر الله المستمر على دينه .

إن الفشل في إصلاح قلب الإنسان يخرج لنا نماذج مرضية من البشر بل قد يخرج لنا نوعاً من الغلاة لا يطاقون كالخوارج ففي الحديث الصحيح « يخرج في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من قول خير البرية ، ويقرؤون القرآن ، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم ؛ فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة »[1] ، لاحظ أن هذا النوع من الناس « إيمانهم لا يجاوز حناجرهم » أي لم يصل إلى قلوبهم إن الفشل في إصلاح القلوب يخرج لنا أصنافاً من الفساق والمنافقين والكاذبين والمرتدين ، إنه حيث لا قلب سليماً فثم الهلاك الدنيوي والأخروي ، فلا تذكّر بقرآن لأن القرآن يحتاج إلى قلب سليم ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[2] ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[3] . حيث لا قلب سليماً فلا نجاة عند الله ، ولا وعظ ينفع قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ

(١) رواه الشيخان .
(٢) محمد : ٢٤ .
(٣) ق : ٣٧ .

آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾[1] ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[2] ، إنه لابد من جهد متواصل في أنفسنا للوصول إلى القلب السليم ولابد من جهد متواصل مع كل مسلم ، بل مع كل إنسان للوصول إلى القلب السليم . وعلينا أن نركز منذ الابتداء على كل من توجه إلى الله لكي نصل به إلى القلب السليم تلك بداية صحيحة .

إن الإنسان بين أمرين إما أن يوجه قلبه سلوكه كله ، أو يكون قلبه موجهاً بأشياء كثيرة . فالقلب عندما يكون قليل النور ، ضعيف الإيمان ، أو اليقين ، وعندما يكون مريضاً أو قاسياً ، فإنه في هذه الأحوال كلها يكون موجهاً تتغلب النفس عليه فنجده مستسلماً أمام شهوات النفس مستسلماً أمام أمراضها ، الكبر يوجه قلبه ثم ذاته ، والحسد يوجه قلبه ثم ذاته ، وقل مثل ذلك في أمراضه الأخرى كل منها يوجه تصرفاته ثم إنّ الشهوة الجنسية تسيطر على قلبه فيستسلم لها ، وشهوة البطن تسيطر عليه فيستسلم لها ، ومغريات الحياة الدنيا تسيطر عليه فيستسلم لها ، وإيحاءات الشياطين شياطين الإنس والجن تسيطر عليه فتوجهه ويخضع لها ويفتتن بها . وقراراته الفعلية تكون مريضة ومتأثرة بهذه المعاني كلها . إن هذا كله بعض ما يترتب على عدم صلاح القلب ، أما إذا صلح القلب فإنه يكون هو الموجِّه ، إنه من ناحية يتخلص من إيحاءات الشياطين ثم هو يرفض الاستسلام لشهوات النفس ، وبنفس الوقت يكون هو الموجه لسلوك الإنسان على ضوء شريعة الله عز وجل ، فالفارق كبير جداً بين الحالتين : حالة أن يكون القلب هو الموجِّه ، وحالة أن يكون القلب هو الموجَّه « إستفت قلبك ولو أفتاك الناس وأفتوك »[3] . ولذلك قلنا : إن أول ما يحرص عليه المربي هو أن ينقل القلب البشري إلى آفاقه العليا في الإيمان والنور ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِن رَّبِهِ ﴾[4] ، ومن هنا ندرك أهمية الأوراد الكثيرة المتعددة للإنسان في ابتداء سيره ، وأهمية استغراق الإنسان في الأذكار ، وأهمية الاعتكافات والخلوات المليئة بالتعبد والتحنث والذكر والعلم وغير ذلك ، ولأمر ما كان رسول الله ﷺ يتعبد الليالي ذوات العدد في غار حراء ثم جاءه الوحي وهو هناك ، ولأمر ما واعد الله موسى عليه السلام أربعين ليلة على الجبل ، فإذا كان الرسل عليهم الصلاة

---

(١) محمد : ١٦ .
(٢) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .
(٣) رواه البخاري في التاريخ .
(٤) الزمر : ٢٢ .

والسلام - وهم أصفى خلق الله فطرة وأرقاهم قلوباً - سُيِّروا في مثل هذا الطريق فما بال بقية الخلق ؟ وإذا كان رسول الله ﷺ وأصحابه كلفوا حوالي سنة بقيام الليل إلا قليلاً فما ذلك إلا لما تقتضيه عملية بناء أنفس ذلك الجيل العظيم ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلا ﴾[1]، لاحظ الصلة بين قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ ، وبين الأمر بقيام الليل ، إن نقطة البداية الصحيحة في التربية الإسلامية التركيز على القلب ، ولكون الصوفية أول ما يبدأون يبدأون بما له صلة في ذلك فإنك تجدهم أنجح الناس في تربية الإنسان المستقيم على أمر الله ، وسواء فعلها الصوفية أو لم يفعلوها فإن السنة النبوية والوحي الإلهي قد دلاّنا على نقطة البداية هذه .

إنك عندما تبدأ مع مَريد الله بقولك : يا أخي إن رسول الله ﷺ يقول : « من لازم الاستغفار جعل الله له من كل همّ فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب »[2] . ثم تطالب هذا الأخ بملازمة الاستغفار أياماً تطول أو تقصر على حسب حاجة قلبه . ولا يظنن ظان أن المسألة تحتاج إلى مئات بل إلى الآلاف وعشرات الآلاف حتى يستقر معنى الاستغفار وحقيقته في القلب . وحتى يصبح الاستغفار خلقاً للإنسان ليؤدي دوره الدائم في جلاء القلب . قال ابن كثير : وقد روى ابن جرير والترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق ... عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب منها صقل قلبه وإن زاد زادت فذلك قول الله تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[3] ولفظ النسائي : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه فإن عاد زيد فيها تعلو قلبه فهو الران الذي قال تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ، فإذا اشتغل الإنسان في الاستغفار حتى ظهرت عليه ثمراته لفت نظر الأخ إلى الإقبال على الصلاة على رسول الله ﷺ ؛ لأنها طريقة فضلى للوصول إلى القلب المنور ، فالحديث الشريف يقول : « من صلى عليّ صلاةً صلى الله عليه بها عشراً »[4] ، وإذا صلى الله علينا أخرجنا من

---

(١) المزمل : ١ - ٥ .
(٢) رواه أبو داود .
(٣) المطففين : ١٤ . وقال عنه الترمذي : حسن صحيح
(٤) رواه أحمد ومسلم وأبو داود .

الظلمات إلى النور قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ ﴾[١] ، فيطلب منه أن يلازم الصلاة على رسول الله ﷺ أياماً طوالاً ، وأن يكررها عشرات الآلاف حتى تؤتي ثمارها في إصلاح القلب وتنوره ، والمسألة لا حد لها إلا ظهور الآثار ، فإذا ما ظهرت ثمار ذلك في تنور السالك لفت نظره إلى الحديث الشريف الذي رواه أحمد والنسائي والحاكم : « جددوا إيمانكم قيل يا رسول الله كيف نجدد إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول لا إله إلا الله » فيبدأ الأخ بذكر لا إله إلا الله أياماً طوالاً ، وبعشرات الآلاف ، حتى يصبح قلبه موحداً خالصاً مستنيراً استنارة كاملة وهكذا . ثم يلفت نظر الأخ إلى الاستغراق بقراءة القرآن والتأمل في معانيه فقد قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٢] ، لاحظ قوله تعالى : ﴿ وشفاء لما في الصدور ﴾ ، فيختم الختمات الكثيرة مع التأمل والتدبر ، وخلال ذلك كله يعوّد نفسه على ورد دائم كورد الدعاء الذي ذكره الأستاذ البنا في نهاية المأثورات (١٠٠) مرة استغفار (١٠٠) مرة صلاة على رسول الله ﷺ (١٠٠) مرة لا إله إلا الله . قل هو الله أحد ثلاث مرات ، مع ملازمة قراءة ما تيسر من القرآن ، وجزء في اليوم يعتبر ورداً معتدلاً ، هذا مع شيء من قيام الليل ، وملازمة صلوات الجماعة ، وإقامة السنن الرواتب ، وسنّة الضحى ، فإذا اجتمع للأخ مع هذا كله العلم فإننا نرجو أن يصل الأخ إلى القلب السليم بإذن الله ، وعندئذٍ فعليه أن يرتب أوراده بحيث يأخذ قلبه دواءه وغذاءه اللازمين ليبقى قلبه على استمرارية إيمانية عالية .

ولعله من المناسب هنا أن نقول : إن أقوى السائرين حالاً وأكثرهم صلاحاً ينبغي أن يتولوا أمر تربية المبتدىء لأن البداية المحرقة هي التي توصل إلى النهاية المشرقة وفي حكم ابن عطاء (من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة) .

ولم نقيد ما ذكرناه من الأذكار في المرحلة الأولى للسير بعدد معين ، لأن حالة الناس القلبية مختلفة ، واحتياجات كل واحد منهم تختلف عن احتياجات الآخر ، فالقلب الذي ظلمته كثيرة لا يكفيه القليل ، بينما قلب آخر قد ينقله الذكر القليل من حال إلى حال ، ثم إن التقيد بعدد فيما لا نص فيه قضية فيها أخذ ورد كثيران عند العلماء ، والأستاذ البنا

---

(١) الأحزاب : ٤٣ .   (٢) يونس : ٥٧ .

اكتفى بتسجيل الخلاف في هذا الموضوع ولم يرجّح شيئاً ، ولذلك فنحن نؤثر أن يترك هذا لفراسة الأخ المربي ورؤيته احتياجات المسلم ، كما يترك هذا لإحساسات السائر نفسه ، وبعضهم يرى السبعين ألفاً لكل نوع من أنواع الذكر المطلق كافية في مرحلة الابتداء لنقل المسلم من حالة إلى حالة خاصة في الأذكار الثلاثة التي ذكرناها : الاستغفار ، والصلاة على النبي ﷺ ، ولا إله إلا الله . وبعض المشتغلين بالتصوف وبعض الكاتبين فيه يعتبرون أن القفزة العالية نحو معرفة الله لابد فيها من ذكر الإسم المفرد أي لفظ الجلالة (الله) فهم يعتبرون أن تعرف القلب على الله وصفاته وأسمائه بشكل لا يغيب فيه القلب عن الله لابد له من ذكر الإسم المفرد ، ويذكرون في ذلك حججاً ، ويعتبرون أن ذكر هذا الإسم هو بمثابة الدواء الكامل للقلب ، فعلى رأي هؤلاء أن ذكر لفظ الجلالة (الله) بشكل مستمر هو طريق تعرف القلب الذوقي على الله ، ثم بعد ذلك تبدأ أيها المريد تستشعر معنى صلاتك وأورادك ، وهذا موضوع سنتعرض له فيما بعد ، وهنا نذكره لمجرد أن نجعل هذا الموضوع يطرق سمعنا من ناحية ، ومن أجل أن نذكر هنا أن معرفة الله ليست متوقفة على مثل هذا ؛ فالإيمان العالي ، والقلب المنور ، يمكن أن يصل إليه الإنسان عن مثل هذا الذكر ، وعن طريق غيره ، وإن كان لهذا الذكر آثاره السريعة العملية المجربة ...

فيما مر ركزنا على أن نقطة البداية الصحيحة هي التركيز على القلب ؛ وحتى لا يفهمنا أحد فهماً خاطئاً نقول : إن الواجب الأول في حق الإنسان ـ كما ذكره علماء التوحيد على خلاف بينهم في بعض الدقائق ـ هو المعرفة العقلية لله ، ثم يأتي بعد ذلك في سُلّم الواجبات واجب الوقت ، وهذا لا يتناقض مع ما ذكرناه ، فالمعرفة العقلية ثم واجبات الوقت هي التي عنها تصل الأنوار إلى القلوب ، وتبدأ بها عملية إصلاح القلب ، وبدون هذا يستحيل سير قلبي أصلاً ، وعلينا أن ندرك معنى واجب الوقت ، فهو معنى دقيق يغيب عن كثير من الناس ، وهذه إشارة إليه :

إذا دخل إنسان في الإسلام فأول شيء يجب عليه هو البحث عن واجب الوقت وإقامته ، فقد يدخل الإنسان في الإسلام في وقت ضحى مثلاً ويكون في هذه اللحظة واجب الوقت في حقه هو الجهاد فعليه أن يجاهد ، وقد يكون مديناً والجهاد في حقه فرض عين فيصبح واجب الوقت في حقه قضية الدين ، وأمر الجهاد ، وقد يسلم في وقت ظهر

مثلاً فواجب الوقت في حقه تعلم الطهارة ، وكيفية أداء الصلاة ، وخاصة صلاة الظهر ، وقد يكون الوقت رمضان فواجب الوقت في حقه زيادة على ذلك الإمساك عن المفطرات بقية يومه ، وقد يكون على أهبة الإقدام على معصية فواجب الوقت يكون زائداً على ذلك هو ترك المعصية ، وقد يأتيه والده في ذلك الوقت ويطلب منه مطالب مباحة فيكون من واجبات وقته تنفيذها ، وقد يكون في نفس الوقت يمارس عملاً من أعمال الكسب فواجب وقته أن يعرف حكم هذا العمل شرعاً ، ويلتزم بما ألزمه الله عز وجل . وهكذا نجد أن قضية واجب الوقت من الأمور المهمة جداً ، ونادراً من يفطن لها ، إنك تلاحظ في أحاديث رسول الله ﷺ تفضيلاً للجهاد على غيره ، أو تفضيلاً للذكر على غيره ، أو تفضيلاً للصلاة على غيرها ، أو تفضيلاً للحج على الجهاد ؛ وسر ذلك كما يقول العلماء يعود إلى مجموعة حالات : حالة يكون فيها شيء هو واجب الوقت في حق إنسان ، فهذا الشيء يكون هو الأفضل في حقه ، أو حالة يكون فيها شيء في حق إنسان هو الواجب الأرق ، أو حالة يكون فيها شيء شرط قبول ، أو شرطاً لتحقيق حالة الإخلاص في شيء آخر وهي قضايا دقيقة لا يفطن لها إلا فقيه حكيم . إن هناك حالات أخر فيها رسول الله ﷺ الصلاة عن وقتها بسبب الجهاد كما حدث يوم الخندق ، وقال لأصحابه مرة : « لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة » ، فأنت تلاحظ من الحديث الأخير كيف أن واجب السرعة في الحركة الجهادية كان واجب الوقت الذي تؤجل الصلاة بسببه ، وهو موضوع قد نبحثه في محل آخر . وإنما أشرنا إليه ههنا حتى لا يفهم فاهم ـ ونحن نتحدث عن كون البداية الصحيحة في التربية الإسلامية هي التركيز على القلب ـ أننا غافلون عن الواجبات الأولى .

ولعله من خلال ما مرّ أدركنا مجموعة أغلاط يقع فيها الناس في مواضيع هذا الباب منها إهمال المعرفة العقلية لله ، ومنها الغلط في معرفة واجب الوقت ، وخاصة في بعض مواضيع تعتبر في عصرنا من أخطر المواضيع ، كواجب العمل لإقامة الحكم الإسلامي ، وإعادة الوحدة الإسلامية ، والخلافة الإسلامية ، فهذه من واجبات العصر ، ومع ذلك تجد من علماء المسلمين ـ والعياذ بالله ـ من يعمل في الطريق المعاكس لها ؛ من محاربة العاملين لذلك ، ومن موالاة الذين يعملون ليل نهار في إفساد الأموال والأعراض والقضاء على الإسلام . ومما يقع فيه الغلط إهمال التربية القلبية ، وقد رأينا ذلك كله في هذا الباب .

* * *

الباب السابع

في ضرورة الورد اليومي والدورات الروحية

لعلـه اتضح من الأبواب الأخيرة ضرورة بعض الأمور ، وحتى لا يبتعـد العلم عن العمل في هذا البحث وهو في الأصل بحث عملي فإننا نحب أن نخرج بشيء عملي بعدمـا عرفنـا كثيراً من الأسس النظرية التي تساعدنا على فهم هذه الجوانب العملية . إننا باختصـار نـدعو المسلم إلى العلم ، وإلى أن تكون له في حياتـه دورات روحيـة ، وأن تكون لـه أوراد يوميـة ، ولا يعجزنا أن ندرك ضرورة ذلك من خلال ما مر معنـا ، ولزيـادة التـأكيـد والتوضيح نـذكر بعض المعاني :

أ ـ العلم :

في حديث رواه البزار والطبراني في الكبير بإسناد رجاله رجـال الصحيح عن أبي مـالـك الأشجعي عن أبيـه قـال : « كان النبي ﷺ إذا أسلم الرجل أول مـا يعلمـه الصلاة أو قـال : علمه الصلاة » وفي هذا الموضوع أكثر من حديث صحيح ، من مثل هذا النص نعرف ضرورة الفقه فيما يلزم الإنسان ، وقد رأينا من قبل ضرورة العلم وتحدثنا عن البـدايـات والنهـايـات وما بين ذلك ، إن البدء في السير العلمي الشامل إنْ في المدارسة ، أو في المطالعة الشخصية ، أو في التلقي ، أو في حضور الحلقات العلمية الإسلامية العامـة أو الخـاصـة شيء لابـد منـه ، ولبعض القضايا محاذيرها التي لابد للمسلم أن يلاحظها ، وفي كتبنا تبينان للمحاذير التي لهـا صلة بالسير العلمي وهنا نقول في شأن العلم :

١ ـ إجعل نصب عينيك أن تصل إلى ثقافة إسلامية هادفة ، ومبرمجة ، ومتكاملـة بحيث لا تستغرق في مهم عن أهم ، ولا تضيّع مهماً .

٢ ـ ستجد الكثيرين الذين يريدون أن يحجزوك على صيغة معينـة من فكرهم ، وسترى أن التحقيـق ليس معهم ، فتـأنَّ كثيراً ، وتثبت كثيراً ، ولا تجعـل التعصب يـأسرك فتترك بعض الحق ، ولا تجعل حب الرجال مانعاً لك عن الوصول إلى الحق الخالص ومعرفته في كل قضية .

٣ - مهما درست فلا تبق بعيداً عن الكتاب والسنة ، ومحاولة الفهم الصحيح لنصوصها ، واجعل للحفظ من الكتاب والسنة نصيباً من وقتك وجهدك .

٤ - ستصادف جهلة كثيرين يثنونك عن العلم أو عن أنواع منه ، أو يصرفونك إلى أنواع غير مفيدة منه على حساب أنواع أخرى ، أو يحقرون لك أبواباً من العلم لابد منها ، هؤلاء لا تصغ لهم مهما رأيت من صلاحهم ؛ فالصلاح شيء وأن يستحق إنسان مقام الإرشاد في نفسك شيء آخر ، ولذلك وجد ما يسمى في التاريخ بالمرشد الكامل الذي من مواصفاته : أن يكون عالماً بالمذاهب الأربعة ، قادراً على الفتوى بها ، والذي يمتلك من المواصفات ما يؤهله لأن يعطيه الإنسان مقام الإرشاد في نفسه وهو موضوع سنعرج عليه في هذه الرسالة ، إذا تنبهت لهذه النقاط الأربع وسرت في طريق العلم فإنك ستصل بإذن الله إلى خير .

ب - الدورات الروحية :

إننا ندعو المسلم إلى أن تكون له دورات روحية في حياته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً بالقدر الذي يتيسر له ، فإن استطاع أن تكون دورته أربعين يوماً فليفعل ، وإن استطاع ثلاثة أيام أو سبعة أيام أو ثمانية أيام أو أكثر أو أقل أو شهوراً فليفعل ، فإن استطاع أن يتفرغ لهذه الدورة بما لا يضيع عملاً ولا واجباً كان بها ، وإلا فليفعل ما استطاع بما لا يضيع عياله ولا عمله الذي يكسب منه قوته ولا واجباته اليومية ، وإن استطاع أن يربط بين الدورة وبين بعض الشهور كرمضان أو الأشهر الحُرم أو العشر الأول من ذي الحجة أو غير ذلك مما ورد فيه نصوص تدل على خصوصيته كان ذلك ، وإلا فمتى تيسر ، ولينظم برنامج الدورة بحيث يكون مردودها الروحي عالياً ، فإذا استطاع أن يجمع بين صيام وقيام وصلوات جماعة وقراءة قرآن وأنواع من الأذكار كان بها ، وإلا فما أمكنه من ذلك ، وإذا اقتصر على نوع من الذكر كالصلاة على رسول الله ﷺ ، أو لا إله إلا الله ، أو الاستغفار ، أو التسبيح والتهليل والتكبير والتحميد ، فذلك طيب ، وإذا جمع بين هذا كله يكون طيباً ، إن مثل هذه الدورات ترتقي بالإنسان ارتقاءات كبيرة ، وتنقل قلبه من حال إلى حال . وإن في سنة رسول الله ﷺ الكثير مما يجعلنا نستأنس لمثل هذا ، كاعتكافه عليه الصلاة والسلام ، فقد ثبت أنه اعتكف عليه الصلاة والسلام في رمضان وغيره ،

واعتكف في بعض السنين عشرين يوماً ، وكخلوته عليه الصلاة والسلام في غار حراء وهي مع كونها قبل النبوة إلا أنها كانت من توفيق الله لرسوله ﷺ ، وكالأمر في ابتداء الإسلام بوجوب قيام الليل على كل مسلم ، ثم نسخ الوجوب وبقي الندب ، وهناك نصوص تشير إلى أرقام مثل الحديث الذي رواه ابن ماجه والترمذي « من صلى في مسجد جماعة أربعين ليلة لا تفوته الركعة الأولى من صلاة العشاء كتب الله بها عتقاً من النار » . ترى لو أن مسلماً قرر فيما بينه وبين نفسه أن يقيم دورة روحية لنفسه مدتها أربعون يوماً أو أقل أو أكثر فماذا يترتب على ذلك : لا شك أن إيمانه سينمو ، ومعاني التوحيد في قلبه ستترسخ ، وسيعطيه ذلك صفاء فكر وحسن تأمل ، هذا عدا عن معان كثيرة أخرى كلها ضروري في عصر غلبت عليه المادة وطغت الشهوات ، فإذا ما كرر ذلك كل فترة في حياته رُجي له أن يبقى نور الإيمان في قلبه عظيماً ، وأن يبقى الإيمان في قلبه جديداً ، وإذا أردنا أن نقترح جدول دورة من هذه الدورات فبالإمكان مثلاً أن يكون في هذا الجدول :

١ ـ صلوات الفرائض جماعة .

٢ ـ إقامة السنن الرواتب كلها .

٣ ـ المحافظة على سنة الضحى ، وسنة قيام الليل ، والوتر .

٤ ـ بالإمكان أن يكون من البرنامج صلاة التسابيح يومياً .

٥ ـ أن يخصص لنفسه برنامج ختمات من القرآن خلال الدورة .

٦ ـ أن يضع في حسابه الاشتغال بأوراد الذكر من استغفار ، إلى صلاة على رسول الله ﷺ ، إلى توحيد إلى غير ذلك من الأذكار المطلقة ، وليحاول أن يذكر كلاً منها سبعين ألفاً . فعدد السبعين تتحقق فيه الكثرة .

٧ ـ أن يضع في حسابه تطبيق الأوراد المرتبطة بشيء كأوراد الصلاة ، وأوراد الصباح والمساء وغير ذلك . وإذا رأى من نفسه مللاً من نوع اشتغل بنوع آخر .

٨ ـ صيام ما تيسر من الأيام مع الإقلال من الطعام والكلام والخلطة .

إن بعض الناس قد يقولون : هذه عطالة وبعضهم ، يقولون : هذه بطالة ليصرفوا

المسلم عن مثل هذا . إذ هؤلاء جميعاً موزاينهم خربة ، وتفكيرهم الإيماني سقيم ، إن ذرة من الإيمان لا يعادلها شيء ، فإذا كانت ذرة من الإيمان يخرج بها الإنسان من النار ، وتقيه الخلود فيها فما بالك إذا كانت هذه الدورات تجعل إيمان الإنسان كالجبال ؛ فتعطيه طمأنينة قلب ، وترفعه عن هواجس النفس ، وتجنبه وساوس الشيطان وفتنته ؟

إن على كل مسلم أن يفكر في مثل هذا ، وإن على المربين في الأمة الإسلامية أن يعطوا لذلك أهمية خاصة ، ويكفي كل مسلم ليدرك صحة ما ذكرناه أن يتذكر هذين الحديثين : « إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم »[1] ، « جددوا إيمانكم ، قيل يا رسول الله كيف نجدد إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول لا إله إلا الله »[2] . إذا كان الإيمان وهو موجود يحتاج إلى تجديد فكيف بالقلوب الغافلة ، فكيف بالقلوب المصفحة ، فكيف بالقلوب التي فيها ظلمة ، فكيف بالقلوب التي فيها وساوس ، فكيف بالقلوب الحائرة ، فكيف بالقلوب القلقة ، فكيف بالقلوب الشاكة ، فكيف بالقلوب التي غزتها الأمراض والشهوات ، إن هذه كلها تحتاج إلى دورات روحية مكثفة ، ذات برنامج روحي إذا أردت أن تتجاوز بها هذه الأحوال ، والبرنامج الذي اقترحناه هنا نموذج فقط ، وإلا فلو أن مسلماً خصص لنفسه أياماً يشتغل فيها مثلاً بالصلاة على الرسول ﷺ فقط ، مع قيامه بالفرائض فإن لذلك آثاره الطيبة على قلبه ، وقل مثل ذلك في القرآن الكريم ، المهم ألا ينسى مسلم نفسه من دورة روحية أو دورات في حياته .

جـ - الأوراد اليومية :

إنه لابد للمسلم من غذاء روحي يومي ، هذا الغذاء يتمثل بالقيام بالفرائض والواجبات اليومية والمداومة على ما يمكن من المندوبات بالقدر المستطاع الذي يعطي القلب احتياجاته من الغذاء والدواء ، والذي يكون به المسلم في تِرَقٍّ دائم ... هذا الورد اليومي الذي يرتبه المسلم على نفسه ينبغي أن يجعل له حداً أدنى لابد أن يؤدّيه ، ثم بعد ذلك إن وجد فراغاً أو إقبالاً من النفس زاد ، وإذا رأى من نفسه كسلاً أو مللاً تصرف معها بما يحسن من سياسة حكيمة للنفس ، وإذا غلبته نفسه فكسلت لسبب من الأسباب فإنه إن استطاع أن يعوّض

---

(١) رواه الطبراني والحاكم وهو صحيح .

(٢) ورواه الطبراني وأحمد . وقال المنذري : إسناد أحمد حسن ، وقال الهيثمي : رجال أحمد ثقات .

ذلك عوّض ، وإلا استأنف من جديد في أول لحظة تفيء نفسه فيعود إلى ما رتبه لها من أوراد يومية والنصوص في قضية الأوراد اليومية كثيرة منها :

١ ـ قال شقيق : « مرض عبد الله فعدناه فجعل يبكي فعوتب فقال : لا أبكي لأجل المرض لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول : المرض كفارة وأنا أبكي أنه أصابني على حال فترة ولم يصبني في حال اجتهاد لأنه يكتب للعبد من الأجر إذا مرض ما كان يكتب له قبل أن يمرض فمنعه منه المرض » . من مثل هذا النص ندرك أن المسلم العامل تكون له أوراده اليومية الخاصة ، ولذلك نجد عبد الله بن مسعود يبكي على أن مرضه جاء وهو في غير الحالة العليا من العمل اليومي .

٢ ـ من حديث صحيح لعائشة رضي الله عنها أنها روت عن رسول الله ﷺ قوله : « خذوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل »[١] ، وفي رواية عنها « وكان آل محمد إذا عملوا عملاً أثبتوه » ، وهذا يدل على أن هناك أعمالاً معينة كان فيها نوع من الالتزام اليومي في حياة آل رسول الله ﷺ ، كما أن قوله عليه الصلاة والسلام « خذوا من الأعمال ما تطيقون » ما يشير إلى أن المسلم ينبغي أن يرتب لنفسه عملاً يومياً في حدود طاقته .

٣ ـ قال عليه الصلاة والسلام : « إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر في اليوم مائة مرة »[٢] .

٤ ـ وملازمته عليه الصلاة والسلام لقيام الليل ولأعمال معينة كل ذلك يدل على أنه عليه الصلاة والسلام كانت له أوراده اليومية ، وهو أسوة كل مسلم ؛ فالأوراد اليومية في حياة المسلم هي زاده اليومي الذي لا ينبغي أن يهمله ، فعلى كل مسلم أن يرتب لنفسه ورداً يومياً ؛ ويدخل في ذلك تنظيم أوقاته لترتيب أمر الصلاة فرضها ونفلها ، ونخصّ بالذكر قيام الليل ، وسنة الضحى ؛ لغفلة الناس عنها ، ويدخل في ذلك أوراد الصلوات ، ويدخل في ذلك قراءة القرآن . والحد المعتدل في ذلك جزء ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام في

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه مسلم .

الحديث الصحيح لابن عمرو بن العاص عن القرآن « إقرأ القرآن في كل شهر »[١] ، ويدخل في ذلك الاستغفار اليومي ، والصلاة على رسول الله ﷺ يومياً ، والتهليل والتسبيح يومياً ، ويدخل في ذلك ملاحظة الأيام التي ندبنا إلى عمل خاص بها أن نخصها بعمل ما كالصلاة على رسول الله ﷺ يوم الجمعة وليلته ، وكقراءة سورة الكهف فيها . ويدخل في ذلك أن تلاحظ الأوراد والأذكار التي ربطت بمناسبة ، ويدخل في ذلك ملاحظة الأيام التي ندبنا إلى صومها ، وأخيراً يدخل في ذلك العلم ، وكل عمل يقتضيه حق العلم ... وهناك الأوراد التي ندبنا إلى الإكثار منها بدون حدود ، فهذه يستطيع الواحد منا أن يرتب على نفسه منها بالقدر الذي لا يشق عليه على حسب احتياجات قلبه ، وبما لا يتعارض مع القيام بواجبات أخرى ... وإذا أردنا أن نقدم نموذجاً لأوراد المسلم اليومية فبإمكاننا أن نقول :

١ ـ صلوات الجماعة ، ورواتب الصلوات وأذكارها ، وقيام الليل ، وسنة الضحى .

٢ ـ إستغفار يومي بما لا يقل عن مائة مرة .

٣ ـ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير بما لا يقل عن مائة مرة .

٤ ـ صلاة على الرسول ﷺ بما لا يقل عن مائة مرة .

٥ ـ قراءة قل هو الله أحد ثلاث مرات .

٦ ـ قراءة جزء من القرآن .

٧ ـ أذكار الأوقات والأحوال كأذكار الطعام والنوم والدخول والخروج .

٨ ـ الإكثار بعد ذلك من الأذكار التي ندبنا إليها بشكل مطلق كالاستغفار ، أو الصلاة على رسول الله ﷺ ، أو التهليل ، أو الحوقلة ، أو التسبيح ، أو التحميد ، أو غير ذلك مما فيه ندب خاص .

وهذه بعض نصوص تحض على بعض ما ذكرناه : عن أغر مزينة رفعه إلى رسول الله

---

(١) راجع حادثة ابن عمرو بن العاص في البخاري ومسلم وأبي داود والنسائي .

ﷺ « إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر في اليوم مائة مرة » ، وفي رواية « توبوا إلى ربكم فوالله إني لأتوب إلى ربي مائة مرة في اليوم »[١] ، وعن أبي هريرة رفعه إلى النبي ﷺ : « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في اليوم مائة مرة ، كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي . ولم يات بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه ، ومن قال : سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر »[٢] . وأخرج النسائي عن أبي طلحة رضي الله عنه « أن النبي ﷺ جاء ذات يوم والبشرى في وجهه فقلنا : إنا لنرى البشرى في وجهك ، قال : إنه أتاني الملك فقال : يا محمد إن ربك يقول : أما يرضيك أنه لا يصلي عليك أحد إلا صليت عليه عشراً ولا يسلم عليك أحد إلا سلمت عليه عشراً »[٣] ، وروى الطبراني في الأوسط والصغير عن أنس رفعه إلى رسول الله ﷺ « من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً ، ومن صلى علي عشراً صلى الله عليه بها مائة مرة ومن صلى علي مائة كتب الله بين عينيه براءة من النفاق وبراءة من النار وأسكنه الله يوم القيامة مع الشهداء »[٤] وأخرج أبو داود عن ابن عباس رفعه إلى النبي ﷺ « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل هم فرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب »[٥] ، أخرج الطبراني في الكبير عن محمد بن يحيي بن حيان عن أبيه عن جده « أن رجلاً قال يا رسول الله أجعل ثلث صلاتي عليك ؟ قال نعم إن شئت ، قال الثلثين ؟ قال نعم قال : فصلاتي كلها ؟ قال : إذن يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك »[٦] .

وأخيراً نقول : إن على المسلم أن يرتب لنفسه برنامجاً يومياً ، وآخر أسبوعياً ، يكمل البرنامج اليومي ، وآخر شهرياً يكمل اليومي والأسبوعي ، وآخر سنوياً يكمل الثلاثة

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه الشيخان ومالك في الموطأ والترمذي .

(٣) ورواه أحمد والحاكم وصحّحه ووافقه الذهبي .

(٤) وفيه إبراهيم بن سالم بن سلم قال الهيثمي : لم أعرفه وبقية رجاله ثقات .

(٥) ورواه أحمد وابن ماجه وفيه الحكم بن مصعب المخزومي الدمشقي ترجم له البخاري ولم يذكر فيه جرحاً وباقي رجاله ثقات .

(٦) إسناده حسن .

الأول ، وآخر عمرياً يكمل ما قبله بحيث لا ينسى واجباً . ويملأ حياته بالخير ، ويكون في حال ترقٍ دائم ، ومن خلال الدورات الروحية ، ومن خلال البرنامج اليومي ، ومن خلال إقامة ما ندبنا إليه ، أو افترض علينا أسبوعياً كحقوق يوم الجمعة ، أو من خلال ما شرع لنا سنوياً كصيام رمضان ، أو شهرياً أو أسبوعياً كالصيام المندوب ، أو ما افترض علينا عمرياً كالحج ، ومن خلال إقامة واجب الوقت ، وواجب الحال ، وواجب المناسبة كصلاة الجنازة ، أو عيادة المريض ، أو إطعام الجائع ، أو الإحسان إلى الجار ، أو بر الوالدين ، أو صلة الرحم ، أو الجهاد المفروض ، أو المندوب من خلال هذا كله يَكْمُل المسلم ، ويلقى الله وهو عنه راض ، وإن العلم والدورات الروحية والأوراد اليومية هي الزاد الذي لابد منه لإقامة هذا كله .

وفي هذا الباب اتضح لنا كثير من جوانب السير إلى الله ، وقد آن الأوان لأن ننتقل إلى جوانب أخرى في هذا الموضوع لها صلة بعالم النفس وتزكيتها ، وهو الجانب المكمل للكلام عن القلب ، ومن ثم فسيأخذ هذا الموضوع معنا مجموعة من الأبواب اللاحقة في هذه الرسالة .

* * *

الباب الثامن

في النفس ومطالبها وأمراضها وصلة ذلك بعالم القلب والسلوك

نجد في النصوص أحياناً تطابقاً في الحديث عن القلب والنفس بحيث يشعر الإنسان من خلال بعض النصوص أنها شيء واحد ، ويلاحظ أحياناً من خلال مطالعة بعض النصوص ، ومن خلال كلام الصوفية أنها شيئان منفصلان ، وقد تحدثنا في بداية هذه الرسالة عن العقل والقلب والروح والنفس وههنا نضيف ما يعمق الفهم .

في الحديث الشريف « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر »[١] .

من هذا الحديث نعرف أن القلب نفسه يمرض بمرض الكبر ونجد النص القرآني يقول : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دسَّاهَا** ﴾[٢] ، ولا شك أن من التزكية للنفس أن يطهرها الإنسان من الكبر . بل من أول معاني التزكية أن يطهر الإنسان نفسه من الشرك الذي هو المظهر الأرذل للكبر . قال تعالى : ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُون في الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** ﴾[٣] ، وإنما الصرف في هذا القلب ، قال تعالى : ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا في الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يسمَعُونَ بِهَا فَإِنَّها لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي في الصُّدُورِ** ﴾[٤] ، إنك تجد ههنا تطابقاً بين النفس والقلب .

تأمل قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** ﴾[٥] ﴿ **وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ﴾[٦] وتأمل ما يسميه الصوفية الهاجس النفسي الذي له صلة بأوامر النفس للقلب فإنك تجد أن النفس ههنا غير القلب ، على غير ما تجده في قوله تعالى : ﴿ **أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ** ﴾[٧] ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المطْمَئِنَّةُ** ﴾[٨] فههنا قلب يطمئن في الذكر ، ونفس وصلت

---

(١) رواه مسلم .
(٢) الشمس : ٩ ، ١٠ .
(٣) الأعراف : ١٤٦ .
(٤) الحج : ٤٦ .
(٥) يوسف : ٥٣ .
(٦) القيامة : ٢ .
(٧) الرعد : ٢٨ .
(٨) الفجر : ٢٧ .

إلى الاطمئنان ، فههنا القلب هو عين النفس قال تعالى : ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجاهِلِيَّةِ ﴾[1] الظن محله القلب لأن له صلة بالاعتقاد قال تعالى : ﴿ وَإِنَّها لَكبيرةٌ إلاَّ عَلَى الخاشِعِينَ * الَّذينَ يَظُنُّونَ أَنَّهم مُّلاقُوا رَبِهِمْ وَأَنَّهمْ إلَيْهِ رَاجِعُون ﴾[2] من هذه المعاني التي تقدمت ندرك أن الكلام عن النفس يعني الكلام عن القلب أحياناً ، وأحياناً لا يعني ذلك وهذا هو الذي نقلناه عن الغزالي في أول هذه الرسالة : أن النفس والقلب والعقل والروح تأتي أحياناً بمعنى واحد ، وأحياناً يكون لكل مدلوله ، ولتوضيح هذا المقام فلنضرب بعض الأمثلة :

إذا جرح الإنسان في معركة ، أو حدث معه نزيف كثير يحس بعطش شديد ، ويحس من نفسه إلحاحاً في طلب الماء ، ومهما أراد أن يقاوم ذاته فيمنعها عن الطلب يجد نفسه مغلوباً ، فههنا دافع جسدي غلب القلب فههنا نفس تطلب وقلب يغلب فالنفس هنا غير القلب .

وبدون شعور من الطفل يبدأ بأكل التراب عندما يكون جسمه بحاجة إلى الكلس ، وإذا احتاج الجسم لنوع من الغذاء طلبت نفسه أنواعاً من الطعام تحتوي ذلك فيجد الإنسان نفسه مدفوعاً بدوافع شديدة نحو نوع من الطعام بعينه . فههنا نفس تطلب .

ومن المعروف في عالم الحيوان والإنسان أن الإفرازات الجنسية المطروحة في الدم توجد عند الإنسان والحيوان هواجس واندفاعات وتخيلات ومتطلبات تكون قاسية أحياناً ، وكثيراً ما يستسلم ناس لها ، ولا حرج في استسلام قلب لدافع شهوة مباحة إذا حققها بالحلال ، ولكن الكارثة عندما يستسلم الإنسان لها في الحرام فههنا نفس تطلب وقلب يتجاوب أو لا يتجاوب .

وهناك نوع من العقاقير إذا استعملها الإنسان زادت في حدة طبعه ، ونوع آخر يساعده على الهدوء ، ونوع آخر يمكن أن يوجد عنده رغبة في العزلة ومن ثم ندرك تأثير طبيعة الغذاء على تصرفات الإنسان . وبذلك ندرك حكمة تحريم أثمن الحيوانات أو الأطعمة في الإسلام . إن ما يلقى في الدم من أغذية أو إفرازات يؤثر على الجملة العصبية فيتلقى القلب البشري مطالب ، هذه المطالب التي يمكن أن تكون جزءاً مما يسميه الصوفية هواجس

(١) آل عمران : ١٥٤ .
(٢) البقرة : ٤٦ .

النفس ، هذه الهواجس أقسام : منها الطلب الحرام ، ومنها الطلب المباح ، ومنها الطلب الذي لابد منه ، والذي يكون تأمينه من باب الفروض .

ففي الشريعة الإسلامية إذا تاقت نفس الإنسان للجماع أصبح الزواج في حقه واجباً شرعياً ، فإذا كثر التوق لدرجة خاف الغلبة على نفسه فقد أصبح الزواج في حقه مفروضاً ، وعليه أن يضبط نفسه ريثما يتزوج . والطعام والشراب اللذان لابد منهما لاستمرار الحياة البشرية ولجعل الإنسان في حالة يقوم بها بواجباته فريضة من الفرائض على الإنسان . مثل هذه المطالب تأمينها للنفس عن طريق المباح فريضة ، فإذا طالبت النفس بالوصول إلى ذلك أو إلى غيره عن طريق الحرام كان ذلك من باب الأمر بالسوء ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾[١] .

إذا أدركنا هذه القضية عرفنا لم اصطلح بعضهم على التفريق بين النفس والقلب ؛ فهؤلاء يريدون بالنفس هنا طلبات الجسد وحاجاته ورغباته التي يمليها على القلب ، فالقلب ههنا شيء والنفس شيء آخر ، فإذا عبر آخرون عن القلب بالنفس فذلك من باب أن القلب هو ذات الإنسان ، ونفس الإنسان هي ذاته فهؤلاء لا يفرقون في هذا المقام بين نفس وقلب . وعلى هذا الاصطلاح يكون المراد بمرض القلب ومرض النفس واحداً ، ويكون المراد بتزكية القلب وتزكية النفس شيئاً واحداً ، فالقلب هنا هو عين النفس والنفس ههنا هي عين القلب وعلى مثل هذا تحمل هذه النصوص ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ويُزَكِّيكُمْ ﴾[٢] ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [٣] « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب »[٤] والمسلم مكلف بمعالجة مطالب نفسه سلباً أو إيجاباً ، ومكلف بتطبيب قلبه ، بتزكية هذا القلب من خلال الخلاص من أمراضه كالحسد والكبر والعجب وحب الدنيا ، ومن خلال تحقيق هذا القلب بأخلاقه العليا من إخلاص وتوكل وخشية وغير ذلك (وفي هاتين القضيتين تفريط خطير وغلط كبير) .

بعض الناس يهمل قضية المطالب النفسية وعلاجها ، ويهمل قضية الأمراض والأخلاق

---

(١) يوسف : ٥٣ .
(٢) البقرة : ١٥١ .
(٣) الشمس : ٩ ، ١٠ .
(٤) رواه البخاري .

القلبية العليا ، وبعض الناس لا يفرق بين المطالب الضرورية للنفس التي ينبغي تأمينها بالحلال وبين المطالب التي يجب حربها فعلاً ، وبعض الناس لا يعرف أصلاً ما هي موازين الصحة وجوانب المرض فلا يعرف بماذا يتحقق ولا مما يتخلص ، وهنا تأتي أهمية المرشد الكامل ، أو الوارث النبوي الكامل ، أو العالم العامل ، أو الولي المرشد .

والإسلام جاء فيه تفصيل لكل شيء ، ومن جملة ذلك آفاق القلب والنفس ومعالجة أمراض النفس والقلب وطرق العلاج وموازين الصحة والمرض وذلك شيء لا يمكن أن يكون في هذا العالم جواب صحيح عليه إلا في الإسلام ، ولا تفسير كامل له إلا في الإسلام ، وإن الذين كتبوا في هذه الشؤون من أمثال حجة الإسلام الغزالي كتبوا في الحقيقة في أرقى الأمور وأعلاها على الإطلاق ، وإنه لخسارة للبشرية كلها ألا تقرأ ما كتب أمثال هؤلاء ...

وعوداً على بدء في موضوع هذا الباب ولزيادة الإيضاح بضرب الأمثلة نقول :

تبدأ الشهوة الجنسية تنفتح عند الإنسان شيئاً فشيئاً وذلك أمر عادي ، ويحاول بعض الناس أن يعتبر ذلك ظاهرة مرضية ، بل يفكرون في القضاء عليها ، وذلك خطأ في فهم الأشياء أصلاً ، ففي الإسلام أنت مطالب أن تتزوج لتحقق الحكمة في وجود هذه الشهوة أصلاً ، وعليك بعد الزواج أن تضبط هذه الشهوة ضمن الحدود المباحة ، وقبل الزواج عليك أن تعالج هذه الشهوة بالضبط وأنواع العلاج ريثما تتزوج ، ويد يكون العلاج بالصوم وباختيار نوعية الطعام ، وقد يكون في استغراق الإنسان في العمل والذكر ، وأنواع الرياضات الجسمية ، وقد يكون في هذا كله ، وههنا تكمن مهمة الإنسان في هذه المرحلة . فلو طالبته نفسه بزنا أو لواط أو غير ذلك مما هو محرم فعليه أن يقطع الطريق عليها . فلو أن القلب طاوع النفس ههنا ـ أي طاوع مطالب الجسد ـ فإنه يكون مريضاً إذ غلبت عليه الشهوة المحرمة . ومن هنا ندرك موقف المسلم من مطالب النفس ، والمراد بالنفس هنا مطالب الجسد ، وندرك ماذا يعني مرض النفس ، والنفس ههنا القلب ، وندرك لم يعبر بعض العلماء بالنفس عن القلب ، ولم يعبرون أحياناً بالنفس على أنها غير القلب ...

بعض الناس يسيرون في طريق محاربة كل مطلب للنفس كائناً ما كان وهذا خطأ ففي الحديث « إن لنفسك عليك حقاً »[١] ، وبعض للناس يعطون أنفسهم كل ما تشتهيه وهذا

---

(١) رواه البخاري .

خطأ قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[2] ، وقال رسول الله ﷺ « والمجاهد من جاهد نفسه »[3] والمسلم الحق على ضوء العلم يعمل فيضبط النفس عن شهواتها المحرمة ويمنعها أن تتوسع في المباح خشية مطالبته بالحرام . هذا في أمر مطالب الجسد ، ثم هو يزكى نفسه ـ أي قلبه ـ ههنا من كل مرض فيمنع أمراض القلب أن تؤثر على سلوكه ، ويحاول تطهير القلب من أصل المرض كما يحاول أن يحقق القلب بأخلاق الصحة ، وأن يعطي هذه الأخلاق مداها في سلوكه ، وفي هذه الأمور يخلط بعضهم في الحديث فيعتبرون مطالب النفس كلها أمراضاً كأمراض القلب والأمر ليس كذلك .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾[4] ، عندما تأخذ كلمة (لا إله إلا الله) ، مداها في القلب فإنها تحرق كل الأمراض وتوجد في القلب أخلاقاً لها ثمراتها في السلوك كالمحبة لله ، والإخلاص له ، والخوف منه ، والتوكل عليه ، ويستقيم جسد الإنسان وعقله على منهج الإسلام ، أي على منهج لا إله إلا الله . أما إذا كان القلب فيه كفر أو نفاق أو فسوق فإن ظلمة القلب تستتبع آثاراً في سلوك الإنسان لابد أن تظهر ، فمع الكفر أو النفاق أو الفسوق مثلاً يكون الحسد . ففي الحديث الصحيح « ولا يجتمعان في قلب عبد مؤمن الإيمان والحسد » والحسد له ثمراته الخبيثة في الحياة البشرية ، وهكذا يترتب على إهمال صحة القلب ومرضه أي على إهمال تزكية النفس ومجاهدتها ما يترتب ، حتى إنه لتضيع بين مطالب النفس وأمراض القلب أحياناً محاكات الدماغ فيكون التناقض أحياناً بين الذات والفكر والسلوك . والإسلام عالج هذا كله علاجاً حكيماً فوجد بذلك كله الإنسان الحق ، وبدون ذلك فلا إنسان ولا إنسانية ومن ثم نقول : حيثما يوجد الإسلام يكون الإنسان وإلا فلا ، والدعاة إلى الله الذين لا يدركون هذه المعاني يفرطون في أهم الأمور على الإطلاق ...

---

(١) النازعات : ٤٠ ـ ٤١ . (٢) العنكبوت : ٦٩ .

(٣) وقال حديث حسن صحيح ورواه أحمد بإسناد حسن وزاد « في الله عز وجل » .

(٤) إبراهيم : ٢٤ ـ ٢٦ .

أحياناً تكون مطالب الجسد عاتية تصعب السيطرة عليها ، وأحياناً تكون لينة تسهل السيطرة عليها ، والمسلم مكلف في كل حال أن يبذل جهداً للاستقامة على أمر الله ، وإذا غَلب فواقع المعصية فعليه أن يتوب إلى الله مباشرة ، وأمراض النفس أحياناً تكون معقدة ، وأحياناً تكون بسيطة ، والقلوب بعضها يستعصي على العلاج ، وبعضها كثير الاستجابة له ، سريع الامتصاص لمظاهر الصحة . وطبيعة القلوب في الأصل مختلفة : فقلب لين وقلب شديد وهذه مواضيع متعددة سنراها ، ولأمر ما تعددت العبادات وتعددت الأعمال وأنواع القربات ، وفي ذلك كله حكمة ، والحياة البشرية لا تصلح إلا بذلك ، ولكل حالة مرضية دواؤها ، ولكل حالة صحية طريقها الموصل إليها وأسبابها الدالة عليها ...

إذا عرفنا قضية القلب والنفس ومتى تعتبر النفس هي القلب والقلب هو النفس ، ومتى يكون القلب غير النفس في الاصطلاح ، وإذا عرفنا كيف نصنف مطالب النفس ومحل ذلك في صحة القلب ومرضه ، وإذا عرفنا ماهية المرض القلبي والنفسي ، وإذا أدركنا مبدئياً قضية العلاج وقضية الصحة ، وأن لذلك كله طريقه ، وإذا أدركنا مبدئياً تأثيرات ذلك كله على السلوك ، إذا أدركنا ذلك أصبح بالإمكان أن نبني على هذا الأساس فننتقل إلى باب آخر .

* * *

الباب التاسع

في سلم الأمراض وسلم الصحة والحاجة إلى مجاهدة النفس

يولد الإنسان على الفطرة كما ورد في الحديث الذي رواه الشيخان « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ـ فطرة الله التي فطر الناس عليها ـ فأبواه يهودانه أو ينصّرانه أو يمجسانه » . وكما ورد في الحديث الذي رواه أحمد « كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فإذا عبر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً » . هذه الفطرة يكون فيها القلب على حاله الأكمل ، والروح على حالتها المثلى ، فالقلب خال من الأمراض مشتعل بنور التوحيد ، والروح عارفة بالله مقرة له بالعبودية ، ثم يحدث ما يحدث بعد ذلك من غفلة أو انحراف . تبدأ هذه الغفلة برؤية عالم الأسباب ، والتعلق بها من لحظة أن يلتقم الطفل ثدي أمه ، ثم بعد ذلك يبدأ الطفل يرضع من البيئة أخلاقها وآدابها وعقائدها ، وغير ذلك مما يترتب عليه ما يترتب من انحراف أو غفلة أو نسيان ...

وجاء الإسلام لإرجاع الإنسان إلى هذه الفطرة قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[1] ومن هذه الآيات نعلم : أن الفطرة هي إقامة الإنسان وجهه لدين الله دون التفات عن ذلك إلى غيره ، وأنها الإنابة إلى الله والتقوى ، وإقام الصلاة ، ونفي الشرك ، وبقدر اجتماع هذه المعاني في إنسان يكون على الفطرة ، وبقدر ما يفرط في واحدة منها يكون مفرطاً في قضية الفطرة ، وإقامة الوجه لدين الله ، ونفي الشرك يدخل تحتها معان كثيرة ، والتقوى يدخل تحتها معانٍ كثيرة ، وإقامة الصلاة حق القيام مرتبطة بأمور كثيرة لها صلة بقضايا القلب وخشوعه ، وغير ذلك من أعمال جسد وتوجّه قلب . ومن أدرك هذه المعاني كلها أدرك حقيقة الفطرة ، بصرف النظر عن الفلسفات والتعقيدات والتفصيلات ، فنحن ههنا نكتب لمسلمين مؤمنين فقط ، فإذا اتضح هذا فلنر المسألة في جانبها الأكثر تبسيطاً .

---

(١) الروم : ٣٠ ـ ٣٢ .

إذا استنار القلب بنور التوحيد الخالص فرأى الأشياء كلها فعلَ الله استقبل كل المصائب بالصبر والتسليم والرضى ، وإذا استنار القلب بنور التوحيد نما عنده التوكل على الله ، والإخلاص لله ، والخشوع والإخبات . وإذا استنار القلب بنور التوحيد رأى النعم كلها صادرة عن الله ، فنمت عنده محبة الله ، والرغبة بشكره . وكل ذلك أثر عن التوحيد الخالص الذي هو أثر عن معرفة الله وصفاته وأسمائه وأفعاله والشعور بذلك . وإذا استنار القلب بنور معرفة الله وتوحيده توجه القلب كله لدين الله ، ولم يلتفت عنه يميناً وشمالاً ، وعندئذ ينتفي الشرك كله كبيره وصغيره . ومن مثل هذا القلب تؤدى الصلاة كاملة لله كمظهر أرقى للعبودية لله ، وتقديم واجب الشكر له ، وبشكل تلقائي تكون خشية الله في هذا القلب كبيرة ؛ فيكون التلقي عن الله كاملاً ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾[1] ومن مثل هذا القلب ينبثق سلوك منسجم مع دين الله وهذه هي التقوى . ومجموع هذه الأمور هي الفطرة الكاملة ...

وبقدر الخلل في التوحيد اعتقاداً أو شعوراً يوجد الشرك الأكبر ، أو الأصغر ، فإذا وجد الشرك الأكبر انطفأ نور الفطرة كله ، وإذا وجد الشرك الأصغر كأن يعمل الإنسان عملاً لغير الله رغبة في جاه أو دنيا أو غير ذلك ، فتخيّم ظلمة نفسية على القلب ، وإذا انعدم الصبر وجد الكفر ، وإذا قل الشكر وجد نوع من الظلمة يقابل ذلك ... وبقدر خفوت نور التوحيد تظهر أمراض العُجب والرياء والحسد والكبر والغرور وغير ذلك من الأمراض . إذ لو كان الإنسان يرى أن الله عز وجل هو المعطي ما وجد الحسد ، ولو عرف الإنسان أن الله عز وجل هو خالق كل شيء ما وجد عجب ورياء ، ولو عرف الإنسان مقام العبودية ما وجد عجب وغرور ، ولو كان الإنسان عبداً لله حقاً ما وجد الجبروت ، ولو كان في القلب خشية من الله ما وجد ظلم لعباده ، ولا انحراف عن أمره . ومن ههنا ندرك أصل المرض وبدء الصحة ، فأصل المرض الشرك ، وبدء الصحة التوحيد ، وإذا أدركنا ذلك عرفنا معنى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ** ﴾[2] . فالشرك هو النجاسة التي تجعل أصحابها عين النجس ؛ لكونها تصبغ أجسادهم وسلوكهم وأنفسهم وعقولهم وأرواحهم بها فتصبح ذواتهم نجسة نجاسة غير محسوسة ولكنها نجاسة ...

---

(١) الزمر : ٢٣ .　　(٢) التوبة : ٢٨ .

مما مر ندرك أن الدرجة الأولى في سلّم الارتقاء هي التوحيد ، وأن الدرجة الأولى في سلم الخرابات هي الشرك الأكبر أو الأصغر ، ثم عن التوحيد تبدأ الصحة ، وعن الشرك تتفرع الأمراض القلبية والسلوكية ؛ من كبر وعجب وفخر وخيلاء وبخل وغش وبغض وحرص وأمل وحقد وحسد وضجر وجزع وهلع وطمع وجمع ومنع وجبن وجهل وكسل وبذاء وجفاء واتباع هوى وازدراء واستهزاء وتمنٍ وترفع وحدة وسفه وطيش وغلواء وتحكم وظلم وعداوة ومنازعة ومعاندة ومغالبة ومزاحمة وغيبة وبهتان وكذب ونميمة وتهويس وسوء ظن ومهاجرة ولؤم ووقاحة وغدر وخيانة وفجور وشماتة إلى غير ذلك ... هذه الأمراض كلها تنبثق عن الشرك في الأصل ، ولكنها قد تصيب قلب الموحّد فيترتب على ذلك أن تحجب نور الإيمان والتوحيد من التسلل إلى القلب ﴿ **قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾[1] فالإيمان لم يدخل ولكنه على وشك الدخول ، فالعمل له أنواره التي تدخل إلى القلب ، ذلك مقتضى استعمال كلمة « لما » في الآية .

غيرأن هناك حالة يوجد فيها عمل ولكن توجد موانع تمنع من وصول الأنوار إلى القلوب ، ومن مظاهر ذلك حالة الذين حدثنا عنهم رسول الله ﷺ في أحاديث صحيحة أن إيمانهم لا يجاوز تراقيهم ، هذا مع أننا نحقر صلاتنا مع صلاتهم ، وصيامنا مع صيامهم . فهذا يدل على أن هناك حالات إذا وجدت فإن أنوار الإيمان لا تصل إلى القلب ، وقد ذكر ابن عطاء الله السكندري بعض عبارات في حكمه توضح هذا المقام فقال : (كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته ، أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته ، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله ولم يتطهر من جنابة غفلاته ، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته) وقال : (أنوار أذن لها في الوصول ، وأنوار أذن لها في الدخول ، ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشواً بصور الآثار فارتحلت من حيث نزلت . فرّغ قلبك من الأغيار يملأه بالمعارف والأسرار) ...

ضع ماقدمناه في ذهنك وسر معنا مشواراً آخر :

إن هناك مطلباً للنفس ، وهناك مرض للنفس ، وهناك استجابة للنفس ومطالبها ،

---

(١) الحجرات : ١٥ .

واندفاعات سلوكية هي أثر عن أمراضها . والمسلم في هـذه الـدوائر كلها مكلف ، فهو مكلف بأن يعطي النفس مطالبها العادلة ، وأن يجاهد مطالبها الظالمة الآثمة ، وهو مكلف في إزالة المرض بالسير في طريق الشفـاء ، ومكلف بنفس الوقت ألا يستجيب لأوامر المرض ، وذلـك صعب دقيق والمستعـان هو الله جل جـلالـه . وإذا أردنـا أن نـدرك بعض هـذه الأمـور عن طريق قريب يكفي أن نتأمل بعض الاستعاذات التي علمنا إياها الله جل جلالـه أو رسولـه عليه الصلاة والسلام . وهذه نماذج :

أ ـ ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ** ﴾ [1] ألا ترى في الاستعاذة بالله من شر حـاسـد إذا حسد أن للحسد في القلب آثاره الشريرة في السلوك وعلى المحسود ؟..

ب ـ أخرج الترمذي وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أبا بكر قال : يـا رسول الله مرني بكلمات أقولهن إذا أمسيت وإذا أصبحت قال : « قل اللهم فـاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بـك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه » . قال : « قلها إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخـذت مضجعك » . ألا ترى في قوله عليه الصلاة والسلام : « أعوذ بـك من شر نفسي » أن النفس لهـا مطـالبهـا الشريرة وحاشاه ﷺ أن يكون لنفسه مطلب إلا في الله ولكنه التعليم .

حـ ـ أخرج الشيخان عن أنس عن رسول الله ﷺ أنـه قـال : « اللهم إني أعوذ بـك من العجز والكسـل ، والجبن والهرم والبخل ، وأعوذ بك من عـذاب القبر ، وأعوذ بـك من فتنـة المحيـا والممات » ألا ترى في استعـاذتـه عليـه الصلاة والسلام بـالله من العجز والكسـل والجبن والبخل إشارة إلى أمراض منها الجسدي النفسي ، ومنها النفسي الخالص الذي له آثاره السيئة في الحياة .

د ـ أخرج أبو داود عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنـه قـال : « اللهم إني أعـوذ بـك من الشقـاق والنفـاق وسوء الأخلاق » . ألا ترى في هـذا الحـديث إشـارة إلى مجمـوع أمراض قلبية ونفسية .

---

(١) سورة الفلق .

هـ ـ أخرج أصحاب السنن عن شَكَل بن حُميد قلت : يا رسول الله علمني تعوذاً أتعوذ به . فأخذ بكفي وقال : « قل : اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي ، ومن شر بصري ، ومن شر لساني ، ومن شر قلبي ، ومن شر منيِّ » [1] .

هذا طريق قريب أخذنا منه قضية الأمراض النفسية والقلبية . فإذا كان الأمر كذلك فإنه لابد من عملية بحث عن طرق الشفاء من أمراض القلب والنفس لتتم لنا عملية السير إلى الله . إن كل مرض للقلب ينبثق منه ـ إذا أطاعه الإنسان ـ سلوك ، فالحسد تنبثق عنه محاولات الإساءة إلى المحسود ، والحقد تنبثق عنه عمليات الانتقام ، والبخل ينبثق عنه المنع ، وهكذا قل في كل مرض قلبي أو نفسي ... وما آفات اللسان وأنواع كلامه الآثم من سخرية واستهزاء وغيبة ونميمة وغير ذلك إلا أثراً عن الأمراض القلبية والنفسية ، وما مواقف الإنسان المحرمة واستجابته لدواعي الشهوات إلا أثراً عن أمراض القلب والنفس وهكذا ...

ضع هذا كذلك في ذهنك وسر معنا مشواراً آخر :

مما مر ندرك أنه لابد من شيئين : معرفة بالأمراض ، ومجاهدة للنفس حتى لا تستجيب لها ، ومجاهدة للتخلص من هذه الأمراض . فالأذكار والأوراد والأعمال ـ وخاصة في حالات تعقيد القلب والنفس بأنواع من الأمراض ـ ليست كافية وحدها لإزالة هذه الأمراض ، بل لابد من علم ، ولابد مع العلم من مجاهدة ، والذكر هو زاد السير ولازمه ، وبسبب هذا نجد عند الصوفية اصطلاحات المجاهدة والتخلية والتحلية والتزكية . وفي هذا المقام يظهر احتياج الكثيرين للمرشد المربي ذي الفراسة الصادقة البصير بأمراض النفوس وطرق معالجتها ...

إن العلم بأمراض النفوس يساعد على طب النفوس ، والعلم بمظاهر الصحة يساعد على السير في طريقها ، وكنا من قبل ذكرنا أن العلم جزء من السير إلى الله ، فليلاحظ أن جزءاً من هذا العلم له علاقة بهذا الموضوع ، وقد فصل الغزالي في إحيائه بما لم يلحق فيه ، وذكرنا من قبل أهمية الذكر والعبادة والأوراد في السير إلى الله ، فليكن ذلك على ذكر منا ، وههنا وضح لدينا أمر هو : ضرورة مجاهدة النفس لمنعها من هواها ، ولتخليصها من أمراضها ، ولتحليتها بجوانب صحتها ، وذلك شيء مكمل لقضية الأوراد في السير إلى الله ، وهذا هو الجانب العملي الثاني في رحلتنا إلى الله . وفي سيرنا كذلك في هذه الرسالة .

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن .

وسيكون الباب القادم حديثاً عن المجاهدة وأركانها كنقطة انطلاق نحو صحة النفس والقلب على طريق الخلاص من أمراض القلب من أجل عودة بالذات نحو الفطرة ، ولن يتم ذلك لأحد إلا بتوفيق من الله . قال تعالى : ﴿ **وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنِ اللهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ** ﴾[1] . ولذلك فالمستعان على هذا هو الله وحده ، ولقد كان من دعاء رسول الله ﷺ : « اللهم آت نفسي تقواها وزكّها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها »[2] . وإذا كان الشأن كذلك فالمستعان هو الله ، ولكن الله عز وجل ربط الأمور بمسبباتها ، ولقد جعل الله عز وجل من مهمات رسوله ﷺ تزكية الأنفس ، قال تعالى : ﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُون** ﴾[3] . فنحن مكلفون بالأخذ بالأسباب للوصول إلى نفس مزكاة مع الاستعانة بالله جل جلاله ...

والخلاصة : نقطة البداية في الصحة إذن كلمة التوحيد ، وتنور القلب بها ، ونقطة البداية في المرض أو الموت كلمة الشرك ، أو عدم تنور القلب تنوراً كاملاً بكلمة التوحيد . عن الأول تنبثق كل مظاهر الصحة الظاهرة أو الباطنة ، وعن الثاني تنبثق كل الأمراض الظاهرة أو الباطنة ، ومن ثم فإن المرشدين الكُمّل لا يكون لهم هم مثل أن ينقلوا قلب المريد إلى التوحيد . فمتى استنار القلب بنور التوحيد وانسجم سلوك الإنسان مع ذلك من خلال علم شامل ،وذكر دائم ، والتزام صحيح ، فإن كمالاً لا مثيل له يوجد في النفس فيحدث تغييراً هائلاً فيها ، ويترتب عليه في أنفس الإنسانية أو في أنفس شعب من شعوبها - إذا تفاعلت هذه الأنفس مع كلمة التوحيد - مالا يخطر بالبال من كمالات ، ويظهر من ثمرات ما يحير العقول ويدهشها . هؤلاء العرب قبل الإسلام لم تكن لهم ثقافة عريقة ، ولم تكن لديهم عادات حضارية متأصلة ، ولم تكن لهم تجربة في الحكم والإدارة ، ولم تكن لهم قدرة على ضبط الانفعالات ، وما شئت أن تتحدث عن قصورهم في كثير من الأمور فإنك تستطيع أن تتحدث هذا ، عدا عن جهل بالله عز وجل ، وعدم وجود نظرة كلية عندهم في شؤون الحياة ، عندما قبلوا كلمة التوحيد حق القبول ، وتحققوا بها حق التحقق كما شهد الله

(١) النور : ٢١ . (٢) رواه مسلم .

(٣) البقرة : ١٥١ - ١٥٢ .

بذلك لأصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا معه يوم الحديبية ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ أي كلمة التوحيد ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾[1] . فكانوا أهل كلمة التوحيد ، وانسجم سلوكهم مع كتاب التوحيد (القرآن) بما يتفق مع هذه الكلمة ، فماذا كان ؟ كل شيء اختصر لهم اختصاراً ، وإذا بهذا الشعب الجاهل أصبح شعباً معلماً ، وأصبح قدوة في الخير ، وملك من الإمكانيات ما استطاع به أن ينهي دولاً عظمى ، وأن يوجد نظاماً جديداً في العالم ، وأخذت شعوب العالم نفسها دين هذا الشعب ديناً لها .

والآن والمسلمون متخلفون مدنياً ـ كما نرى ـ في الوقت الذي نجد فيه شعوباً في العالم وصلت إلى ذروة في القوة والمدنية ، وأضحت عندها عادات وتقاليد في شأن الحكم والسياسة والإدارة . ووجد عندها وعي سياسي عظيم ، وقدرات إدارية هائلة ، ودراسات واسعة في كل شيء مما لا يستطيع المسلمون أن يلحقوا به في أوضاع من السير العادي ، فضلاً عن أن يكون لهم دور السبق ، فضلاً عن أن يكون لهم دور العطاء ، فضلاً عن أن يكون لهم دور المعلم ، إن شيئاً واحداً هو الذي يختصر لهم الطريق :

كلمة التوحيد ، وانسجام سلوكي معها على ضوء الكتاب والسنة من خلال علم وعمل ، وتفاعل والتزام . إن هذا وحده هو الذي يختصر الطريق ؛ فيوجد بذلك الإنسان السليم الكامل قلباً وعقلاً وجسداً ، وعياً وأخلاقاً وسلوكاً ، خبرة في النفس ، وقدرة على تعليمها وتهذيبها ، وإدراكاً لكل لوازمها ، وبهذا ستقفز شعوب بسرعة من حال إلى حال ، من حال القهر السياسي والعبودية السياسية ، من حال التخلف المدني والتخلف السلوكي إلى غير ذلك . فالعمل يقوى ، والإنتاج يتوسع ، ودوائر التعامل العادل تنمو ، وقل غير ذلك في كل شيء . ومن هنا ندرك فظاعة جريمة الذين يريدون أن يحولوا بين الحركة الإسلامية وبين أن تؤدي دورها كاملاً في صياغة شعوب الأمة الإسلامية على ضوء كلمة التوحيد وكتاب التوحيد ؛ لتوجد أمة نموذجية معلمة قائدة ، كبديل عن هذه الأمة التي أفسدتها ثقافات فاسدة ، وحكومات فاسدة مفسدة ، واستعمار طويل مديد ، حاول خلال فترة استعماره الفعلي أو المتشكل بأشكال جديدة أن لا يبقي قيمة إلا دمرها . إن كلمة التوحيد متى استقرت في القلب ونوّرته تفرع عنها التوكل والإخلاص ، والصبر والشكر ، والإحسان

---

(١) الفتح : ٢٦ .

والتقوى ، والعمل بالإسلام ، من صلاة وزكاة وشورى ، وانتصار من الظلم ، وصلة الرحم ، وحسن الخلق ، وحسن جوار ، وكلمة طيبة في محلها ، وقدرة على الجهاد ، وأخلاقية رفيعة ، وغير ذلك من مئات الأخلاق ، بينما كلمة الشرك يتفرع عنها الرضا عن النفس ، وما يستتبع ذلك من غفلة وشهوة وخطيئة ، وما يتفرع عن ذلك من أمراض كالكبر والعجب والحسد وغير ذلك مما مرت معنا صوره . وإن كثيراً من أمراض الشرك قد يغطيها موقف مفتعل من إنسان ، أو ثقافة تجريبية في أمة ، ولكن ذلك بمثابة تغطية للمرض لا قضاء عليه ، وفي الختام فلنتذكر قضيتين ، الأولى : أن هناك أمراضاً في القلب متى وجدت تحول دون وصول الأنوار إلى القلب ، وهذا يقتضي عملية استكشاف لهذه الأمراض ، وسير في طريق التخلص منها ، وحمل للنفس على مكاره كثيرة .

الثانية : أن علل هذه الأمراض الرئيسية منها ما هو فكري ، ومنها ما هو نفسي ، والفكر علاجه العلم والتأمل . ولكن النفس علاجها المجاهدة ، وهذا يقتضي منا كلاماً عن المجاهدة . وهو في الحقيقة الأثر المباشر الذي ينبغي أن ينبثق عن العلم الصحيح ، وعن الذكر الدائم . فإذا كنا من قبل قد قلنا : إن ركني السير إلى الله العلم والذكر . فإن العلم الصحيح لابد أن ينبثق عنه مجاهدة للنفس مباشرة ، والزاد المعين على هذه المجاهدة هو الذكر ، وإذا لم يتولد عن العلم مجاهدة فإنه لا يكون علماً صحيحاً . يقول ابن عطاء : (ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه . وأي علم لعالم يرضى عن نفسه) . وهو معنى صحيح ، فالرضى عن النفس يتولد عنه ما رأيناه من قبل : من كبر وعجب وغرور وغير ذلك ، فحيث ما وجد رضىً عن النفس لا يكون علم ، وحيثما وجد علم صحيح وجد عدم رضىً عن النفس ؛ فوجدت مجاهدة ، فالمجاهدة هي الانبثاق الأول عن ركني السير إلى الله : الذكر والعلم ، وبدونها لا يكون سير كامل إلى الله . فليكن الباب العاشر فيها .

* * *

الباب العاشر
في المجاهدة وأركانها

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[١] من هذه الآية ندرك أن الهداية إلى الطرق الموصلة إلى الله ورضوانه هي أثر المجاهدة . فالمجاهدة كسب الإنسان ، والهداية هبة الله للإنسان ، والمجاهدة والهداية كلاهما لا يتم إلا بتوفيق الله وبمعونته ، لذلك علمنا ربنا أن نقول في صلاتنا ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

المجاهدة هي وسيلة الهداية القلبية إلى الله ورضوانه ، والهداية هي مقدمة التقوى . قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾[٢] فالتسلسل إذن على الشكل التالي : مجاهدة توصل إلى هداية ، وهداية توصل إلى تقوى ، وكل ذلك لا يتم إلا بتوفيق الله ومعونته وعطائه .. ومن هنا ندرك أن نقطة البداية الصحيحة في السير إلى الله هي المجاهدة ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « والمجاهد من جاهد نفسه في الله »[٣] وإنما كان هذا هو المجاهد لأن الهداية إلى السبل ـ والتي منها القتال في سبيل الله ـ لا تكون بلا مجاهدة ، ومن ثم فالقتال نفسه لا يكون قتالاً مقبولاً إلا بعد هداية ، ولا هداية إلا بعد مجاهدة ، إلا إذا شاء ربك أن يعطي عبده بلا سبب .

وفي هذه الدوائر توجد أغلاط كثيرة ؛ فهناك ناس تصورهم عن المجاهدة خاطىء ، وهناك ناس يقفون عند المجاهدة ولا يصلون إلى السبل قال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[٤] . فهم يشتغلون فيما يتصورونه مجاهدة ولا يصلون إلى السبل بأن يفهموها ويسيروا في مسالكها ، وهناك ناس ينتقلون من مجاهدة إلى سير في السبل ، ولكنهم لا يصلون إلى حقيقة التقوى . إنْ في الفهم أو في الملكة أو في

---

(١) العنكبوت : ٦٩ .
(٢) محمد : ١٧ .
(٣) وقال حديث حسن صحيح ورواه أحمد بإسناد حسن وزاد « في الله عز وجل » .
(٤) المائدة : ١٦ .

السلوك ، وكل ذلك منشؤه الجهل ، وعلى هذا فلابد من فهم لقضية المجاهدة ، ولابد من فهم لقضية التقوى ، ولابد من فهم لقضية السبل . والموضوع متداخل البدايات والنهايات ، كثير الوشائج . فمعرفة التقوى جزء من المجاهدة ، والتقوى نفسها بعضها أثر المجاهدة ، وبعضها من المجاهدة . وفي كتاب (جند الله ثقافة وأخلاقاً) بيان واسع لهذه الشؤون فليراجع.

ونحن هنا بسبيل أن نرسم صورة لقضية مجاهدة النفس في أسسها العامة التي نصل بها إلى أن تتخلص النفس من أمراضها ، وتتحقق بمعاني صحتها ، مفترضين أن السائر في هذا الطريق مستوعب لما يلزمه من العلم ابتداءً وانتهاءً فليلاحظ ذلك .

تبدأ المجاهدة من نقطة الإيمان بالله ووحدانيته ، وأن محمداً رسول الله ﷺ ، قد لا يحس المسلم الناشيء في بيئة إسلامية أن هذا يدخل في باب المجاهدة وهذا خطأ كبير ، فأعظم ما يحتاج إلى مجاهدة أن يقفز الإنسان من كفر إلى إيمان ، أو أن يعلن إيمانه في بيئة تستنكر الإيمان ، أو تسخر من أهله . قال تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾[1] . ثم تأتي المرحلة الثانية في المجاهدة وهي القيام بفروض الوقت من صلاة إذا جاء وقتها ، أو صيام رمضان إن جاء ، أو أداء زكاة إذا حال الحول ، أو أداء حج إذا حضر وقته وكان الإنسان مستطيعاً ، أو نكاح إذا كانت الدوافع الجنسية إليه كبيرة ، وتيسر ذلك للإنسان ، أو ضبط معاملة من بيع أو إجارة على مقتضى الشرع إن كان يمارسها ، أو صلة رحم ، وبر والدَيْن إن كان هناك رحم ووالدان ، وغير ذلك من فروض الوقت ، ولكل إنسان فروض وقته التي قد تتفق مع فروض الآخرين ، وقد تختلف على حسب حاله ووضعه وغير ذلك . فهناك مريض لا يستطيع الصوم ، فليس الصوم في هذه الحالة فرض وقته ، وهناك إنسان لا يملك مالاً ، فهذا ليس عليه زكاة ، وهناك إنسان ماتا والداه ، فهذا ليس عليه في هذا الشأن واجب بر والديه ، بل هناك في حقه مندوبات تلاحظ .

وبعد ملاحظة فرض الوقت لابد من ملاحظة أدب الوقت . فما هو أدب وقت الصباح ، ووقت السحر ، ووقت الغروب ؟ وما هو أدب الإنسان إن كان في سفر ، أو في عرس ، أو في مأدبة ، أو في سجن ، أو مع مجموعة ، أو في مدرسة ، أو دكان ، أو في نزهة ، أو في فرح ، أو في ترح ؟ وهي قضايا مكملة لفروض الوقت . وكما أن هناك ملاحظة

---

(١) التغابن . ١٢ .

وتطبيقاً لموضوع فروض الوقت وآدابه فهناك ضبط النفس عن المحرمات والمكروهات التي تشتهيها النفس أو يصادفها السائر خلال سيره . فهذا جانب ثان في المجاهدة .

ثم جزء ثالث في المجاهدة وهي قضية ما يرتبه الإنسان على نفسه من نوافل العبادات من صلاة وزكاة وصيام واعتكاف وحج وأدعية وأذكار وقراءة قرآن ويدخل في ذلك ما مر معنا من قضايا الدورات الروحية والأوراد اليومية فهذا الجانب الثالث .

ثم تأتي القضية الرابعة ، وهي التي نطلق عليها أركان المجاهدة :

إن الذين تكلموا عن أركان المجاهدة ذكروا أركاناً أربعة هي : العزلة ، والصمت ، والسهر ، والجوع . وسنتكلم عنها بإجمال ليعود الأخ إذا أراد تفصيلاً إلى الكتب الموسعة كالإحياء وغيره . ثم تأتي القضية الخامسة وهي عملية تأمل النفس والقلب ، واكتشاف الأمراض ومعالجتها ، وهي القضية الأخيرة في المجاهدة ، وإحدى ثمارها الرئيسية . والقضيتان الأخيرتان هما محل التفصيل فيما يأتي ، وهما اللتان تدور حولها عبارات الكثيرين إذا تكلموا في موضوع المجاهدة ، وفي هذا الباب سنكتفي بذكر أركان المجاهدة . وفي الباب التالي سنعرض لقضية معالجة الأمراض فلنبدأ الكلام عن الأركان الأربعة للمجاهدة ولنبدأ بالعزلة :

١ ـ العزلة :

ليست العزلة عن المسلمين هي الأصل في حياة المسلم ، بل الخلطة الصالحة ، والاجتماع الطيب ، والألفة للخير وأهله ، هي الأصل في حياة المسلم وفي الأحاديث التالية مصداق ما قلناه :

« المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم »[١] « المؤمن يألف ويؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف »[٢] « يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ في النار » « وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية »[٣] . والجانب المكمل لهذا الأصل في حياة المسلم أن يعتزل الكفر والنفاق والفسوق وأهل ذلك ويعتزل المجالس التي فيها استهزاء بآيات الله وغير ذلك مما تنبغي العزلة عنه قال تعالى على لسان إبراهيم عليه

(١) رواه أحمد وغيره . (٢) رواه أحمد . (٣) رواه الترمذي .

السلام : ﴿ وأَعْتَزِلكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً ﴾[١] . ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ والذِّينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ والبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيرِهِ ، وَإِمَا يُنسِيَنَّك الشَّيْطَانُ فلاَ تَقْعُدْ بَعدَ الذِّكْرَى مَعَ القَوْمِ الظَّالِمينَ ﴾[٣] . وقال رسول الله ﷺ : « مثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبك منه شيء أصابك من ريحه ، ومثل جليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه »[٤] . وقال عليه الصلاة والسلام : « مثل المنافق كالشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة »[٥] ، وقد كره الفقهاء مخالطة الفساق ورفع الكلفة معهم . من هذا كله ندرك ما هو الأصل في حق المسلم في قضيتي الخلطة والعزلة ، ولعل أوضح شيء في هذا الباب قوله عليه الصلاة والسلام لحذيفة عندما سأله : فما تأمرني إن أدركني ذاك ؟ قال : « تلزم جماعة المسلمين وإمامهم » . قال فإن لم يكن للمسلمين جماعة ولا إمام ؟ قال : « اعتزل تلك الفرق كلّها (أي فرق الضلال) ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك »[٦] . فلا عزلة عن أهل الحق ، والعزلة كل العزلة عن الضلال وأهله . هذا هو الأصل العام في حياة المسلم في قضية الخلطة والعزلة . فإذا اتضح هذا الأصل ندرك متى تجب العزلة المطلقة في حياة المسلم ، وإذا وجبت فعليه أن يجاهد نفسه ليحملها عليها ؛ لأن من طبيعة النفس أنها تألف الأنس بالناس . ولكن إذا تأملنا الحديث الشريف : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ... » إذا تأملنا هذا الحديث ندرك أن الحالات التي تجب العزلة المطلقة على الإنسان حالات عارضة أو طارئة أو مؤقتة ، ولذلك فنحن نبحث في معرض السير إلى الله موضوع العزلة كركن من أركان المجاهدة ؛ كدواء لقلب الإنسان ونفسه وضرورة ذلك أحياناً في حياة المسلم ... هذا هو ما نعنيه ، وهذا أقصى ما نراه للمسلم في هذا الباب ، إلا إذا كان هناك ظرف خاص أو وضع عارض أو طارىء ، فالفتوى تقدر زماناً ومكاناً وشخصاً ، ومن

---

(١) مريم : ١٩ .
(٢) الممتحنة : ٤ .
(٣) الأنعام : ٦٨ .
(٤) رواه أبو داود .
(٥) رواه مسلم والنسائي .
(٦) رواه البخاري .

ثم فحل بحثنا ههنا إذن هو العزلة كدواء للقلب ، ومحلها في المجاهدة . فلنر بعض عبارات الصوفية في هذا الشأن .

يقول ابن عطاء : (إدفن وجودك في أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه . ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته ، أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته ، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله ولم يتطهر من جنابة غفلاته ، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته) . في هذه الكلمة لخص ابن عطاء مجموع المعاني التي يحتاج الإنسان فيها إلى عزلة كدواء . فإذا اشتهر الإنسان كثرت علائقه ، وإذا كثرت علائقه ضاع كثير من وقته بسبب هذه العلائق ، وإذا ضاع كثير من وقته تعذر عليه تكميل نفسه علماً وعملاً وحالاً ، فهذه حالة من أجلها تطلب العزلة ، وإذا خلا الإنسان بنفسه ، وجال بفكره في ملكوت السموات والأرض ، انعكس ذلك على قلبه صلاحاً . فهذه حالة ثانية من أجلها تطلب العزلة . وما دام الإنسان يخالط فصفاء قلبه ضعيف ، وانطباع الأشياء في هذا القلب قوي ، وعزلة معها فكر وذكر تساعده على جلاء مرآة قلبه . وما دام الإنسان في خلطة فكثير من مثيرات الشهوات يمكن أن تجر قلبه ، والعزلة تقطعه عن مثل هذا . وذلك يساعد قلبه على التحرر من رق الشهوات ، فهذا جانب آخر تساعد عليه العزلة . وما دام الإنسان على خلطة فالغفلة تغلبه ، فإذا أتيحت له عزلة مع ذكر وفكر فإن هذا يساعده على يقظة قلبه ، وما دام القلب كثير الخلطة فهو كثير الهفوات . وهذا يحول بينه وبين فهم دقائق الأسرار . والعزلة تساعده على الخلاص من هفوات القلب ، وتؤهله لفهم دقائق الأسرار . هذه مجموعة من المعاني التي اعتمدت من أجلها العزلة الشاملة ، أو العزلة الجزئية كجزء من مجاهدة النفس ، بل كركن فيها ، مع ملاحظة أن ذلك كله ينبغي أن يكون مرحلياً في حياة الإنسان ، وألا يكون على حساب واجبات الوقت وآدابه ، وتضييع حقوقه ، ولعل في خلوة رسول الله ﷺ في غار حراء قبل الوحي ما يمكن أن يستأنس فيه للعزلة الشاملة . وفي سنة الاعتكاف ما يمكن أن يستأنس فيه للعزلة الجزئية .

وعلى كل الأحوال فالعزلة إذا لم يكن فيها تضييع حق أو واجب فهي من باب المباحات حتى ولو لم يترتب عليها أي مصلحة ، أما إذا ترتب عليها مصالح من إصلاح قلب أو تحصيل علم أو زيادة إيمان فإنها تنتقل من كونها مباحة إلى ما هو أرقى من ذلك .

فإذا تعينت طريقاً لتحقيق فرض ، أو للتخلص من حرام فقد تأخذ طابع الفرضية . ولم يزل كل المفكرين في العالم يجدون في العزلة فرصة للتأمل ، وتمحيص الأفكار . ولذلك كان الإنكار خطأ على من يعتزل عزلة مؤقتة ، شاملة أو جزئية للتخلص من داء ، أو لتحقيق مصلحة علمية أو إيمانية ، ما دام ليس على حساب حق ، أو أدب وقت . إن إبصار من ينكر ذلك ضعيف ، وآفاقه الفكرية ضيقة . ونكتفي بهذا القدر في الإشارة إلى الركن الأول من أركان المجاهدة في اصطلاح السائرين إلى الله .

ولننتقل إلى الركن الثاني من أركان المجاهدة في اصطلاح السائرين إلى الله ، وهو الصمت .

٢ ـ الصمت :

إن تهذيب اللسان في الإسلام من أهم الأمور على الإطلاق ولذلك نجد أن رسول الله ﷺ قال : « من يضمن لي ما بين لحييه ـ أي لسانه ـ وما بين فخذيه أضمن له الجنة »[١] وقال عليه السلام « أَوَلاَ أدلك على ملاك الخير كله ؟ » . قال : « كف عليك هذا وأشار إلى لسانه » . قال : وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به . قال « ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم ؟ » أو كما قال عليه الصلاة والسلام . فضبط اللسان على مقتضى شرع الله من أهم الأمور ، ومن أصعبها على الإنسان ، والأصل في اللسان ألا يستعمله الإنسان إلا في الخير ، وأن يضبطه عن كل شر بل عن اللغو .

قال عليه الصلاة والسلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »[٢] . وقال تعالى : ﴿ لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِن نَّجْوَاهُمْ إلا مَنْ أمرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَل ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرضاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾[٣] . وقال تعالى : ﴿ وَتَنَاجَوْا بِالبِرِّ والتَّقْوَى ﴾[٤] وآفات اللسان التي ينبغي أن يجنب المسلم لسانه إياها كثيرة جداً ذكرها الغزالي في إحيائه وعددها فلتراجع هناك . وعلى هذا فالأصل في موضوع اللسان أن يحفظه الإنسان من دائرتي الإثم واللغو ، وأن يستعمله في دائرة الخير ، والتمييز بين ما هو خير وشر ، وما هو لغو وحق يحتاج إلى علم واسع وضبط كثير للنفس .

(١) رواه أبو داود .
(٢) رواه البخاري .
(٣) النساء : ١١٤ .
(٤) المجادلة : ٩ .

فاللسان هو أداة التعبير الأولى عن النفس ، والنفس ميالة لأشياء كثيرة ، واللسان أقرب الطرق للتعبير عن هذه الأشياء . وما أكثر الأشياء التي تميل إليها النفس ، ولا يصح أن تظهر على اللسان . النفس ميالة للفخر ، وميالة للسباب والخصام إذا غضبت ، وميالة للمسامرة حتى في اللغو ، وميالة لانتقاص الآخرين ، وميالة لأن تشعر الآخرين بفضلها ، كل ذلك وأمثاله كثير مما لا ينبغي أن يعطي المسلم نفسه مداها فيه . وعليه أن يعود نفسه على ضبط لسانه في ذلك وأمثاله ، ومقدمة ذلك كله التحكم في اللسان . ومقدمة التحكم في اللسان تعويد الإنسان نفسه على الصمت ، ثم يتدرج مع نفسه حتى تعتاد على الكلام المنضبط . ومن لم يعود نفسه على الصمت صعب عليه أن يعتاد وزن كلماته قبل أن يتكلم . فهذه واحدة من جملة معان اعتمد بسببها تعويد الإنسان نفسه على الصمت كجزء من المجاهدة ، وكضرورة من ضرورات السير إلى الله عز وجل . وقد يستطيع الإنسان أن يقول الكلمة الخيِّرة ، ولكن قد لا يحسن أن يقول الكلمة الحكيمة . فمثلاً أن تحذّر الناس من سخط الله ، وأن تذكرهم بناره هذا خير ، ولكن إذا فعلت ذلك على مائدة الطعام لا تكون حكيماً ، ولذلك كره الفقهاء للإنسان أن يذكّر بمثل هذه الشؤون في مثل هذه الحال ؛ لأن ذلك يتنافى مع أدب المقام ، فهذا مثال يوضح كيف أن الكلمة قد تكون خيِّرة ولا تكون حكيمة ، وهذا موضوع واسع جداً لا يستطيعه أحد إلا بتوفيق من الله ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾[1] . وتعويد الإنسان نفسه على الصمت مقدمة لاعتياد الإنسان على أن يحاكم كلمته قبل أن يقولها . وهذه حكمة ثانية من حكم اعتماد الصمت كركن في المجاهدة ، ولا شك أن اللسان هو أحد منافذ الخطأ الرئيسية والكبرى . فإذا ما أفلح الإنسان في ضبطه يكون قد قطع شوطاً كبيراً في تهذيب نفسه واستقامتها .

والصمت مقدمة في الضبط ، فمن نجح في الصمت كان حريّاً أن ينجح في الكلام المنضبط بتوفيق الله . وأخيراً فإننا لو تذكرنا الحديث الشريف « لولا تمرغ قلوبكم وتزيدكم في الحديث لسمعتم ما اسمع »[2] لو تذكرنا هذا الحديث لوجدنا أن التزيد في الحديث عامل من عوامل حجب القلب عن الغيب ، ولذلك كان الصمت طريقاً لصلاح القلب . كل هذه المعاني جعلت الصمت ركناً من أركان المجاهدة ولكن أي صمت ؟

---

(١) البقرة : ٢٦٩ .

(٢) رواه أحمد .

الصمت الذي هو دواء ، والذي هو مقدمة في ضبط اللسان ، فهو صمت مرحلي ، والصمت حيث لا يكون الكلام واجباً أو مفروضاً . أما إذا كان الكلام واجباً أو مفروضاً كأمر بمعروف أو نهي عن منكر ، أو تعليم واجب فالصمت عندئذ حرام . ضمن هذه الشروط يحسن الصمت كجزء من مرحلة في حياة الإنسان ، فالصمت وسيلة لا غاية ، ولمرحلة في الحياة ريثما تستقيم النفس لا لكل الحياة ... على ضوء ذلك كله نفهم قضية الصمت كركن من أركان المجاهدة للنفس . فلننتقل إلى الركن الثالث من المجاهدة وهو الجوع :

٣ ـ الجوع :

قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي أخرجه الطبراني بإسناد حسن : « عليكم بالحزن فإنه مفتاح القلب . قالوا يا رسول الله وكيف الحزن ؟ قال : أخنعوا أنفسكم بالجوع وأظمؤوها » . من هذا الحديث نرى كيف أن الجوع يمكن أن يكون دواءً للنفس في بعض أحوالها وأمراضها .

وقال عليه الصلا والسلام : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »[1] . ومن هذا الحديث تعرف كذلك كيف أن الجوع يمكن أن يكون دواء للنفس في بعض حالاتها .

إذا اتضح من هذين الحديثين أن الجوع يمكن أن يكون علاجاً لبعض حالات النفس نكون قد وضعنا الأساس الذي نفهم على ضوئه فكرة اعتياد الجوع كركن من أركان المجاهدة في مرحلة من مراحل الحياة ، ومراحل السير إلى الله .

فلنر بشكل أوسع ما يعمق إدراكنا لهذه القضية .. القاعدة العامة في الإسلام في موضوع الطعام هي : أن الأكل والشرب بالقدر الذي يقيم أود الإنسان حتى يستطيع القيام بالفروض والواجبات . الأكل بهذا القدر فرض ، والتوسع في الطعام لدرجة الشبع مباح ، والإسراف فيه حرام قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾[2] . والإسراف قضية نسبية تختلف باختلاف الناس وأحوالهم ، واختلاف العصور والأوضاع الاقتصادية . وإذا كان الأكل حتى الشبع مباحاً فذلك مقيّد بألا يعطي الإنسان نفسه كل

---

(١) رواه البخاري .

(٢) الأعراف : ٣١ .

شهواتها ؛ فذلك يتنافى مع الذوقية الإسلامية ، والروحانية العامة للمسلمين ، ثم إن النصوص تشير إلى السمنة كمرض في المجتمع الإسلامي . ففي الحديث في ذم خَلْفٍ طالح يأتي بعد سلف صالح « يشهدون ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يأتمنون ويظهر فيهم السمن »[١] ، فالتوسع في الطعام ، وإهمال قضايا الجسم حتى يصل الإنسان إلى السمنة موضوع مرضي في المجتمع الإسلامي ، والنصوص واضحة في ذلك ، من كل ذلك ندرك أنه وإن كان الأكل حتى الشبع مباحاً فإن الشبع الدائم في حياة المسلم ليس هو الأصل ، ولذلك نجد الحديث الصحيح يقول : « بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن لم يكن فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه »[٢] . هذا هو الأصل الأغلبي في حياة المسلم ، فإذا أهمل المسلم هذا الأصل فبطرت نفسه ، أو استعصى عليه ضبطها ، فإن عليه أن يداوي ذلك كله بالجوع ، بالصوم أو بدون صوم ، وكذلك الحال لو أنه أصابته سمنة مرضية نتيجة لإهمال نفسه فعليه أن يداوي ذلك نفسه بالجوع غير المضر ، أو بنوع من السياسة يتخلص فيها من هذا الحال ، ولئن كان الجوع علاجاً والشبع مباحاً ـ فلابد من ملاحظة الضرر في الحالين ؛ فكل ما أدى إلى ضرر جسمي أكيد فهو محرم ، وكل ما أدى إلى ضرر محتمل فهو مكروه .

وعلى ضوء ذلك كله نفهم قضية الجوع كركن من أركان المجاهدة ، ولا تنس أن الصوم كجزء من هذه المجاهدة هو الأرقى ...

وبقي الركن الرابع من أركان المجاهدة وهو السهر ...

٤ ـ السهر :

إن عدم تحكم المسلم في نومه قد يترتب عليه تفريط خطير في كثير من الأمور فصلاة الفجر جماعة قد تتعرض للخطر ، والاستغفار بالأسحار قد يتعرض للخطر ، وقيام الليل والتهجد قد يضيعان ، وصلاة العشاء في جماعة ، وأوراد ما بعد الفجر ، وأشياء كثيرة يمكن أن يصيبها خلل نتيجة لعدم تنظيم الإنسان نومه ، وتعويد نفسه على التحكم في شأن النوم ، وخاصة في عصرنا الذي غلبت فيه طرائق الحياة الغربية على بلادنا . إن الغربي ينتهي من عمله فينام ، ثم تأتي فرصة لهوه ومتعته فيستمر بها إلى وقت متأخر من الليل ، ثم ينام إلى

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه الترمذي .

ساعة متأخرة ليذهب إلى العمل . هذا هو الوضع الغالب هناك ، وهو وضع أصبح هو الغالب على الكثير منا بحكم ارتباط حياة الإنسان المعاصر بأجهزة التلفزيون ، ونشرات الأخبار في الراديو ، وغير ذلك . هذا الوضع تضيع معه كثير من الفروض والنوافل والسنن الإسلامية ، وأمر النوم في كل عصر يحتاج إلى علاج وتحكم ، في عصرنا يزداد الطلب له .

وإن لِلّيل في الإسلام لشأناً خاصاً . قال تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾[1] . فأن ينشىء الإنسان عبادة في الليل فذلك ثقيل عليه ، وله بذلك أجر ، وإن لعبادة الليل من الصفاء ما ليس لغيرها ومن التأثير في النفس ما ليس لغيرها ، ومن الفهم للمعاني ما ليس لغيرها ، وقد جاءت هذه الآية في سياق قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾[2] إن لِلّيل في الإسلام لشأناً وتكفي هذه الآيات السابقة لإدراك ذلك . ومن مظاهر هذا الشأن ما نجده في الأحاديث التالية : أخرج الترمذي بإسناد حسن « قيل يا رسول الله : أي الدعاء أسمع ؟ قال : جوف الليل الآخر ، ودبر الصلوات المكتوبات » وأخرج الستة إلا النسائي عن رسول الله ﷺ « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : « من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفر فأغفر له » . وإن لقيام الليل في الإسلام لشأناً ، وكذلك للدعاء والإستغفار في الثلث الآخر من الليل ، وكذلك لصلاة العشاء وصلاة الفجر في جماعة وكذلك لأوراد ما بعد الفجر « من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ، ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما صلى الليل كله »[3] « إن هاتين الصلاتين ـ الصبح والعشاء ـ أثقل الصلاة على المنافقين ولو تعلمون ما فيهما لأتيتموهما ولو حبواً على الركب »[4] . « من صلى الفجر في جماعة ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس ، ثم صلى ركعتين كان له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة »[5] من كل ذلك ندرك ماهية المراد بمجاهدة النفس في شأن السهر ، ولِمَ كان السهر ركناً من أركان المجاهدة ، مع ملاحظة أن السهر نفسه ليس هدفاً

---

(١) المزمل : ٦ .
(٢) المزمل : ١ ـ ٨ .
(٣) رواه مسلم ومالك .
(٤) رواه أبو داود .
(٥) أخرجه الترمذي وهو حسن بشواهده .

بـل قـد يكـون مكروهـاً ففي الحـديث : « كان رسـول الله ﷺ يكره النـوم قبـل العشـاء والحديث بعـده »[١] . السهر الـذي يرافقـه لغو مكروه فكيف إذا رافقـه حرام ؟. أمـا السهر الهادف المليء بالعلم والعمل والذكر والقيام وقراءة القرآن بما لا تضيع معـه صلاة جماعـة ... مثـل هـذا السهر هـو المراد : « كان رسـول الله ﷺ يسمر مـع أبي بكر في الأمر من أمـور المسلمين »[٢] . وكان من سنة داود عليه السلام : « كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه ثم ينام سدسه »[٣] . إذا أدركنا قضية السهر فلنتـذكر أن النوم حـاجـة عـاديـة للإنسـان ، وعنـدمـا نطالبه بالسهر فإنما نطالبه بتعويد نفسـه على حيـاة إسلاميـة كاملـة ، ومن ثم فعلى المسلم أن يعوض احتياجـات جسمـه إلى النوم في أوقـات أخرى إذا فـاتـه حظـه من ذلـك في الليل ، ولـذلـك كان من السّنـة القيلولـة ، وهي : نومـة مـا قبل الظهر ، ومن فـاتتـه يستطيع أن يعـوضهـا فيا بعـد الظهر ، والأمر واسـع ، وبهـذا كلـه أدركنـا حكمـة هـذا الركن من أركان المجاهدة .

ومن الملاحظ أن لهذه الأركان الأربعـة صلـة ببعضهـا ؛ فن شبع كثيراً احتـاج إلى النوم الكثير ، ومن لم يجاهد نفسه بالصمت قد يضيع عليـه سهرة ، والعزلـة تسـاعـد على التحكم في قضايا السهر والصمت والطعام . ولعله من خلال عرضنا لقضيـة أركان المجـاهـدة ، عرفنـا لِمَ اعتبرت هذه القضايا الأربعة أركاناً فيها . إنه إذا استطاع المسلم أن يتحكم في كلامه وطعامـه ونومه وخلطتـه فقـد أصبح على أبواب الخير كلـه ، وقـد أصبح بـإمكانـه أن يتحكم فيا سوى ذلك ، وأن يمر الإنسان على دورات في حياته ينظم فيها هذه الشؤون لينطلق بعد ذلـك في حياة تنضبط فيها هـذه الأمور ضمن حـدين أدنى وأعلى فـذلـك هو الوضع العـادي في حيـاة المسلم .

ولنعد إلى فكرة الدورات الروحية لنضيف إليها عنصر المجاهدة .

افرض أنني قررت أن أقيم لنفسي دورة روحية نفسية مقـدارهـا أربعون يومـاً ـ (وليس الأربعون شرطاً كا رأينا من قبل . ولكن هناك نصوص كثيرة يمكن أن نستأنس بها لموضوع

(١) متفق عليه .

(٢) رواه أحمد والترمذي وقال حديث حسن .

(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي .

الأربعين يوماً . منها قوله تعالى : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾[١] ومنها قوله عليه لصلاة والسلام « من صلى أربعين يوماً في جماعة لم تفته التكبيرة الأولى كتب الله له براءتين ، براءة من النار وبراءة من النفاق »[٢] . ومنها هذه الرواية : « قال عمرلرجل : كم رابطت ؟ قال : رابطت ثلاثين . قال : ألا رابطت أربعين » فالأربعون إذن لها ما يستأنس فيه) فإذا قررت أن أقضي هذه الأربعين بأقل قدر من الخلطة مع عدم التفريط بالواجبات ، ورتبت أمر طعامي بحيث أكتفي باللقيمات فيها ، ورتبت أمر سهري ونومي في اليوم بما يحقق أهداف السهر والنوم ، ورتبت أمر كلامي بحيث لا أقول إلا ما يلزم ، هذا مع ترتيب أمور العلم والصلاة والصوم والأوراد وقراءة القرآن ، مما مر معنا من قبل فإنني بذلك أكون قد جمعت في هذه الدورة أنواعاً من المجاهدة والمعالجة بآن واحد ، فإذا رتبت هذا كله مع قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو مع قضية الدعوة إلى الله ، أو مع قضية عمل جهادي ، أو تدريب جهادي ، أو مع برنامج علمي مكثف ، فإن الدورة يكون مردودها كبيراً ، على أنه يمكن أن يكون لكل قضية دورة تلاحظ بها هذه القضية بشكل أخص مع بقية الواجبات .

على أنه إذ فاتنا أن نرتب هذه الأمور من خلال دورات طويلة فلنرتب ذلك بشكل آخر . وإذا فاتتنا قضية الدورات مع التفرغ فبالإمكان أن نرتبها مع العمل الحياتي ، وما لا يدرك كله لا يترك جله ، وطريق الجنة صعب ، ويحتاج إلى ثمن . « ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة »[٣] .

* * *

(١) الأعراف : ١٤٢ .

(٢) رواه الترمذي بإسناد حسن .

(٣) رواه الترمذي .

الباب الحادي عشر

في السير إلى الله من بدايته إلى نهايته

وفيه : قضية معالجة أمراض النفس البشرية كجزء من المجاهدة وأنواع السائرين

يبدأ السير إلى الله عادة بانبعاث الهمة أي توجه الإرادة إلى الله . ولنتصور أن انبعاث الهمة أو توجه الإرداة رافقه تعرف على مرشد كامل ، فماذا يفعل المرشد الكامل - أي الوارث النبوي الكامل - بهؤلاء الراغبين في التوجّه إلى الله ؟ الجواب البسيط أن المرشد يوجّه كل إنسان بحسب ما يليق بحاله ؛ فمن كان عنده استعداد عالٍ سار به في طريق الوراثة النبوية الكاملة ، ومن كان استعداده أدنى سار به في طريق أقل مشقة ، ومن كان حاله أدنى سار به على قدر احتماله ، وهكذا نجد بشكل تلقائي دوائر أولاها دائرة السائرين في طريق الوراثة ، وأخرها طبقة المبتدئين والحواشي ، والمتبركين والدائرين في فلك حلقة الشيخ ، وكل ذلك منضبط بضوابط ، وفراسة الشيخ مهمة ، هذه صورة . ولكن قد لا يوجد الشيخ المرشد الكامل فماذا يعمل الراغب في التوجه إلى الله ؟ كل ذلك نحب أن نمسه مسّاً رفيقاً في هذا الباب ، وستأتي في أبواب لاحقه قضية الشيخ والمرشد الكامل ، ونرى هناك خطورة شأنها ، وكثرة الأغلاطِ فيها ، وكثرة المدعين لذلك المقام ، حتى لو قلنا : إن الأغلاط في هذا الموضوع هي العلة في كل أغلاط الصوفية لم نبعد كثيراً ، فلنؤجل الكلام عن هذا الموضوع إلى هناك ، ولنتكلم ههنا مفترضين حالتين فقط : الأولى وجود المرشد الكامل - أي الوارث النبوي الكامل ، أي الولي المرشد في اصطلاح القرآن - والثانية عدم وجوده .

إذا جاء إنسان إلى مرشد كامل فالمفروض أن يكون عنده استعداد للطاعة في المعروف ، وأؤكد على كلمة (الطاعة في المعروف) لأن ما سواها لا يجوز ، وبالتالي فالولي المرشد يدله على ما ينبغي فعله بما يناسب حاله . وبشكل عادي يأمره بالعلم والذكر : في العلم بما يناسب حاله ، والذكر بما يناسب حاله وهمته ووقته . ومن خلال العلم والذكر ، وفي أجواء الوعظ وحلقات الذكر ، ومن خلال المذاكرة تظهر أمارات الصدق عليه ، وعلامات القبول لديه ، ويرى مدى استعداده لسير أرقى وأعلى . وفي هذه المرحلة لابد من تنبيهه على شروط التوبة ، ولابد من الاستغفار الكثير ، ولابد من التخلص من حقوق العباد بطريق ذلك .

وفي هذه المرحلة لابد من أن يفهم قضية الصف الإسلامي ، ووجوب تحرير ولائه له ، لأنه بدون ذلك لا يشم رائحة الإيمان الذوقي . ومما يلاحظه الشيوخ أنه من جاءهم كائناً من كان قبلوه ؛ على أمل أنه إذا عاش في أجواء الإيمان أن ينتقل من طور إلى طور . هذه هي المرحلة الأولى في السير ، وهي بمثابة حرث الأرض وبذرها بالنسبة للسالك ، وعبر عن هذه المرحلة بعضهم بقوله :

« فإن أتى القوم أخو فتون ... وقال يا قوم أتقبلون ؟ »
تقبلوه صادقاً أو كاذباً ... إذ كان محتوماً عليهم واجباً
وحذروه من ركوب الإثم ... وأمروه باقتباس العلم
وأمروه بلزوم الطاعة ... والماء والقبلة والجماعة
وقرروا فيه شروط التوبة ... وأمروه بلزوم الصحبة
ثم أمدوه بعلم ظاهر ... حتى استقامت عنده السرائر

وهكذا تنتهي هذه المرحلة بظهور علامات الصلاح عند المريد لتبدأ المرحلة الثانية ، فيطالب بها المريد بالمجاهدة المنظمة لنفسه ؛ من تعويد لها على صمت حكيم ، وجوع معتدل هادف ، وعزلة مربية ، وسهر مليء بالخير مما مر معنا من قبل ، وذلك بمثابة تطييب للأرض المبذورة ، وههنا تبدأ تظهر للمريد ـ نتيجة للمجاهدة وللأوراد وللعلم ـ صفات نفسه وأمراضها ، وعندئذ يبدأ الشيخ تنبيهه على ذلك . وهذه المرحلة بمثابة قلع الحشائش الضارة من الأرض ، وإبقاء النبات الطيب فيها ، أو بمثابة تقليم الشجر وتخليصه من شوكه وأعواده غير المهذبة . فهي بالنسبة للإنسان تهذيب وتشذيب ، وهي المرحلة الثالثة .

وما أقل العارفين في هذا العلم الذين يعرفون الصحة من المرض ، ويعرفون ما ينبغي تشذيبه وما ينبغي إبقاوه في هذه المرحلة ، بل ما أكثر الذين يميتون الطيب ويبقون الخبيث . ولنا عودة على هذا الموضوع وفي تبيان هاتين المرحلتين من السير قال بعضهم :

إذ للمريد عندهم حدود ... لأجلها قيل له مريد
فعندها رد إلى الأوراد ... كالصمت والصوم مع السهاد
وعاملوه بالمعاملات ... إذ علموا مختلف العلات
لكن أحالوه على الأعمال ... لأجل ما فيها من النوال

إذ الطريـــقُ العلمُ ثم العمـــل ثم هبـات بعــدهــا تـؤّمـل
حتى إذا أحكم علم الظـــاهر وأبصروا القبـول فيــه ظــاهر
ألقــوا إليــه من صفــات النفس مــا كان فيهــا قبـل ذا من لبس
وهي إذا أنكرتهــــا فلتعرف إحــــدى وتسعين وقيــل نيف

وفي هـذه المراحـل كلهـا ـ بـل وفي كل المراحـل ـ يبقى السير العلمي مـوجـوداً ، وتبقى المجاهدة قائمـة على تفـاوت في الشـدة ، وتبقى الأذكار والأوراد والأعمـال مطلوبـة وهكـذا ، يقول ابن عطاء*: (لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السـائرين ، لا مسـافـة بينـك وبينـه حتى تطويها رحلتك ، ولا قطيعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك) .

ثم تأتي المرحلة الرابعـة وهي ظهور ثمرات البـذور ، بـذرة الفطرة وبـذرة التعليم ، بـذرة التوحيد ، وبذلة معرفة الله عز وجل ، وبقـدر مـا تكون المعرفـة بـالله كاملـة ، تكون الثمار مرجـوة ، ومن ثم فـإن التركيز في هـذه المرحلـة يكـون على شيئين : على تعميـق المعـاني الـذوقيـة ، وعلى أن تظهر ثمرات التوحيـد في سلوك الإنسـان . (فـالتصوف خلق ، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التصوف) . ففي مجـال معرفـة الله يؤكـدون على الوصول إلى الفناء بالأفعال والصفـات والـذات . وفي مجـال ثمرات ذلـك يؤكـدون على التخلق بـأسماء الله ، مع العبودية الكاملـة لله ، وفي هـذه المقـامـات تقع أغلاط ، وتقع انحرافـات ، وتكون شطحـات . ويستمر السير ليكمل الإنسـان في مقـام التعـامل الأرقى مع الحق ومع الخلـق بـآن واحد على مقتضى الشريعة ، فإذا ما اجتمع له مع هذا كله علم بالكتاب والسنة ، وعلم بتزكية النفس وتربيتها ، وعلم بكل مـا يلزم المسلم من علوم لنفسـه ولغيره ، وأشيـاء أخرى كثيرة ، فإن هذا الإنسان استحق أن يجاز بمرتبة الإرشاد .

والسائرون بعد ذلك درجات : فمنهم من يستأهل أن يصل إلى درجة نقيب يكون بمثابة الواسطة بين الشيخ وبقية المريـدين ، ومنهم من تكون مهمتـه التلقي والتنفيـذ ، ومنهم من يبقى فلك الجميع سائراً . إلتزامه قليل ، ومحبته كثيرة ، ولكل محله في السير .

ولنفرض فرضاً أن المرشد الكامل لم يوجد وهو الغالب في عصرنا :

ففي هذه الحالة يكون أدب السائر إلى الله الإلحاح على العلم ، والإكثـار من الصلاة على

رسول الله ﷺ ، والمذاكرة مع كل من يمكن أن يأخذ عنه شيئاً ، وحسن التأدب مع جميع المتصدرين للإرشاد ، مع تمحيص كل ما يسمعه على ضوء العلم والفقه ، وعدم الالتزام بشخص بعينه بأن يعطيه بيعة إلا بعد معرفته بحدود البيعة المتعارف عليها عند الصوفية . وإنه في النهاية واصل بإذن الله إلى كل خير ، ولا يسمع لدعاوي جهلة الصوفية الذين يدعي كل واحد منهم أنه إذا لم يسلك الخلق على يد شيخهم فإنهم لا يعرفون الله ، ولا يصلون إليه . فهذه جهالة مركبة فكبار العارفين بالله كالشيخ الرفاعي رحمه الله يقولون : نهاية العلماء والصوفية واحدة ؛ فما يصل إليه الصوفيون بكثير العبادة ، مع قليل العلم ، يصل إليه العالم بكثير العلم ، مع قليل العمل . يقول ابن عطاء : (وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به) ...

وفي هذه الأمور كلها توجد أخطاء وأغلاط ، ومغالطات ومسالك خاطئة . ومن خلال عرض الخطأ والصواب سندرك بإذن الله موضوع السير إلى الله بشكله الصحيح :

١ - إن اسم المريد عند الصوفية أخذ من قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ [1] . فالإرادة إذن لله ، والمريد مريد الله ، وعلامة مريد الله أنه يعبد الله صباح مساء ، أي في كل الأوقات ، ورسول الله ﷺ نفسه مأمور بأن يلزم هؤلاء ، وأن يصبر نفسه معهم ، ولا يسمح لعينه أن تتطلع إلى سواهم ؛ رغبة في زينة الحياة الدنيا . ومأمور ألا يطيع الغافل عن وحي الله ، وألا يطيع المتبعين أهواءهم ، والسائرين وراءها . وقد رأينا شيوخاً يعتبرون المريدين عبيداً لهم ، ويعمقون معنى الإرادة للشيخ دون أن ينبهوا تلاميذهم على جوهر الإرادة ، ولمن هي . كما رأينا بعضهم - بقدر ما يتعالى على تلاميذه - يتواضع لأصحاب الدنيا ، وبعضهم يطيع الكافرين في المؤمنين المسلمين ، ويتقرب إلى الكافرين بحرب أهل الإسلام ، وذلك كله من الطامات في التربية الإسلامية .

٢ - إنه لا سير إلى الله إلا بسحب الولاء من أهل الكفر والنفاق والفسوق ، وإعطائه لأهل الإيمان والصف الإسلامي . قال عليه الصلاة والسلام : « أن تلزم جماعة المسلمين

---

(١) الكهف : ٢٨ .

وإمامهم »[١] وقال تعالى : ﴿ والمُؤمِنُونَ وَالمؤمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾[٢] ولقد رأينا شيوخاً لا يهمهم أن يكون مريدهم موالياً للكفر وأهله ما دام ملتزماً به ، بل رأينا شيوخاً إذا أعطى المريد ولاءه للعاملين للإسلام هجروه بل طردوه ، وإذا أعطى ولاءه لغير الاتجاهات الإسلامية سكتوا عنه بل حبذوا له ذلك .

٣ ـ إنه لا سير إلى الله بلا علم وذكر ، ولقد رأينا شيوخاً لا يعطون المريد علماً أو ذكراً طوال حياته ، بل يعلقونه بأشخاصهم ، وكأن ذلك وحده هو الإسلام .

٤ ـ وفي موضوع المجاهدة إما أنك تجد تفريطاً أو إفراطاً ، فإما مجاهدة غالية على غير سنة ، وإما إعطاء للنفس هواها ، حتى رأينا من مدعي السلوك إلى الله من الفسوق ما تضج منه الأرض . نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .

٥ ـ وفي موضوع الشيوخ والإرشاد ما أكثر الدعاوي ، وأكثر الأخطاء ، وأكثر العصبية المظلمة ، وهذا موضوع سنراه تفصيلاً ، وكم من شيخ يطالب مريده بالتسليم المطلق ، وهو لا يصلح أن يسلم عقلاً ، أو قلباً في زمن مضى . فكيف في عصر لا يصلح للتصدر فيه للإرشاد إلا من اجتمع له من العلم والتربية والوعي ما يسع العصر وأهله ، وأنى ذلك إلا ...

٦ ـ وفي موضوع معالجة الأمراض من أندر ما يذاكر في هذا ، بل ما أندر من يفطن لأمهات الأمراض ، بل ما أكثر من يعتبر الصحة مرضاً والمرض صحة ، وما أندر من يركز على أمراض العصر وأمراض المسلمين . وأحياناً يصبح التطلع للجهاد عند بعضهم مرضاً . والعمل لتكون كلمة الله هي العليا رجساً يحتاج إلى غُسل كالجنابة . ألا قاتل الله الجهل ، وعند الكثيرين من هؤلاء لا قواعد ولا ضوابط ولا سير نحو حياة إسلامية كاملة ... ثم وثم ...

٧ ـ وفي موضوع السير إلى الله أصلاً ما أكثر الجهل ، وما أكثر الغلط ؛ فالسير إلى الله خلاصته ما يلي :

إنتقال بالنفس من حالة دنيا إلى حالة أرقى ، وعلم صحيح بالله ، يقول ابن عطاء :

---

(١) من حديث رواه البخاري . (٢) التوبة : ٧١ .

(لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين . وصولك إلى الله ، وصولك إلى العلم به ، وإلا فجلّ ربنا أن يتصل به شيء أو يتصل هو بشيء . قربك منه أن تكون مشاهداً لقربه) .

وكثيرون من الناس يظنون الكفر وصولاً إلى الله ، وتغلب عليهم أوهام ما أكثرها .

٨ - ويرافق السير إلى الله عند الكثيرين غرور يحتقرون به الناس جميعاً من زهاد لعباد لعلماء ، كما يرافقه تحذلق وتشدق ورغبة في فلسفة الأمور مما يذكرنا بقول معاذ رضي الله عنه : « إن وراءكم فتناً يكثر فيها المال ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق والرجل والمرأة والعبد والحر والصغير والكبير فيوشك قائل أن يقول : ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن ؟ وما هم بمتبعيّ حتى أبتدع لهم غيره فإياكم وما ابتدع فإنما ابتدع ضلالة »[1] .

٩ - ومعرفة الله ينبثق عنها أخلاقية معينة ، والتزام معين ، وكل ذلك مفصل في السنة ، وما أكثر ما تفقد هذه الأخلاقية وهذا الالتزام ... هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ قضوا حياتهم في الجهاد حتى دفنوا في كل أرض ، وتحت كل سماء ، وعند الكثيرين من هؤلاء يصبح التفكير في الجهاد جريمة ، وأخلاقية الصحابة معروفة ، وعند الكثير من هؤلاء لا تجد الكثير من اهتمامات الصحابة ، بل تكاد أن تكون هذه الاهتمامات معدومة .

١٠ - وما أكثر ما يتصدر لمقامات إرشاد الخلق أكثر الناس جهلاً ، وهذا مقام لا يصح أن يتصدر فيه من لم يرث عن رسول الله ﷺ العلم والعمل والحال .

١١ - ويرافق السير إلى الله اجتماع وإنشاد ، وتصحبه أمور ، ويتطلب آداباً ، وفي كل واحدة من هذه نجد طامّات عند الكثير ممن لهم صلة بهذه الشؤون . فليكن الباب اللاحق في مساعدات السير ، ومنشطاته ، والأغلاط فيها .

* * *

(١) أخرجه أبو داود وإسناده صحيح .

الباب الثاني عشر

مساعدات السير ومنشّطاته

يلاحظ أن إقبال الناس على الله يزداد في حالات ، كما أن السالك إلى الله عز وجل تمر عليه فترات من الكسل . وهناك منشطات تزيد من إقبال الإنسان على الله تعالى ، أو تجدد همته إن فترت ، منها : الاجتماع على علم ، أو على قراءة قرآن ، أو على ذكر ، أو على مذاكرة ، ومنها الإنشاء ، ومنها المطالعة في كتب السير إلى الله ، وقصص الصالحين . وبعض هذه المنشطات قد يحقق فرضاً ، ويكون في الوقت نفسه منشطاً على السير ، أو مجدداً للهمة ، كالاجتماع على علم مفروض مثلاً . وفي قضايا الاجتماع ، أو قضايا الإنشاد ، أو قضايا المطالعة في كتب السير إلى الله ، وقصص الصالحين توجد أمور لابد من ملاحظتها ، وهناك أخطاء يجب التنبّه لها ، وقبل أن نبدأ عرض منشطات السير نحب أن نشير إلى قضيتين :

الأولى : قال عليه الصلاة والسلام : « لكل عامل شرة ، ولكل شرة فترة ، فإن سدد وقارب فارجوه ، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدّوه »[١] .

فالسائر إلى الله عليه أن يلاحظ نفسه بشكل دائم ، وعليه أن يحسن سياستها ، فإذا وجد من نفسه فترة حاول أن يحتفظ بحد أدنى من العمل ، ومن جملة ما يسوس به المكلف نفسه في حالة الفترة ، الاستفادة من منشطات السير التي سنذكرها ، وإذن فمنشطات السير هي جزء من سياسة النفس في أمر السير إلى الله ، وليست كل هذه السياسة .

الثانية : لكل قلب طاقة معينة على تحمل ثقل الأعمال ، فإذا حُمّل القلب فوق طاقته فربما حدثت له انتكاسة . وكذلك النفس إذا حملت فوق طاقتها ، أو لم تعط حاجاتها الضرورية ، أو بعض مطالبها المباحة ، فإنها تغلب للإنسان عندئذ . ولذلك فعلينا دائماً أن ننتبه ـ إن كنا آخذين أو معطين ـ إلى هذا الموضوع ، وفي الحديث « خذوا من العمل ما تطيقون فو الله لا يسأم الله حتى تسأموا »[٢] .

---

(١) الشرة : النشاط . والفترة : الكسل ، أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح .

(٢) أخرجه مالك والشيخان واللفظ لمسلم .

وفي الحديث الآخر : « سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن يُدخل أحدكم عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يارسول الله . قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة »[1] . وعلينا أن نلاحظ في موضوع منشطات السير ألا ينقلب بعضها إلى خلاف المقصود عندما يثقل كثيراً على النفس ، أو يتجاوز ببعضها أكثر مما وضع له . ولابد أن نعرف الحكمة في كل منها أصلاً ، ولكون قضية الاجتماع - بالذات - تترتب عليها مصالح كثيرة ، فسنتحدث بشيء من التفصيل المعتدل عنها مبتدئين بها :

١ - الاجتماع :

للاجتماع في الإسلام أهمية كبيرة ، لما يترتب عليه من آثار حميدة ، بل هو لابد منه في حالات كثيرة لإقامة فرائض أو واجبات أو سنن ، أو لتحصيل أنواع من الخير ، فهناك اجتماعات الصلوات - وخاصة صلاة الجمعة وصلاة العيدين - وهناك الاجتماع لأمر جامع يهم المسلمين ، وهناك الاجتماع على علم أو ذكر أو مذاكرة . ويدخل في الاجتماع على العلم الاجتماع على القرآن أو السنة ، أو علوم الكتاب والسنة ، أو الاجتماع على اللغة العربية ، أو الاجتماع على الفقه والتوحيد ، أو تزكية النفس ، أو علم أصول الفقه ، أو علم السيرة والتاريخ الإسلامي . أو الدراسات الإسلامية الحديثة ، أو الدراسات في التآمر على الإسلام ، أو دراسات فقه الدعوة . كما يدخل في الاجتماع على العلم الاجتماع على دراسة أمر يحتاجه الإسلام والمسلمون . كل ذلك يدخل في الاجتماع على العلم ، سواء أخذ ذلك طابع اجتماع في حلقة عامة أو خاصة منتظمة أو طارئة والأصل في ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه الإمام مسلم « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » .

لاحظ ماذا يترتب على الاجتماع على كتاب الله من تنزل سكينة ، وغشيان رحمة ، وحف ملائكة ، وذكر الله عز وجل لأهل ذلك ، وماذا يترتب على ذلك من خيرات ، فمثلاً غشيان الرحمة يترتب عليه تأليف القلوب واجتماعها . قال تعالى : ﴿ ولا يَزَالونَ مُخْتلِفينَ إلا

---

(١) أخرجه الستة .

من رَحِمَ رَبُّك ﴾[١] فالمرحومون هم الـذين لا يختلفون ، ومن التعرض لرحمة الله ، الاجتماع على كتاب الله ، وتنزل السكينة يترتب عليه زيادة الإيمان . قال تعالى : ﴿ هو الذي أنزلَ السكينةَ في قلوبِ المؤمنين ليزْدادُوا إيماناً مع إيمانِهِم ﴾[٢] والاجتماع علىٰ ما ذكرناه لـه صلة مباشرة في القرآن ، أو له صلة بخدمة القرآن ، أو لـه صلة بتحقيق أهداف القرآن ، أو لـه صلة بتحقيق ما يعصم عن البعد عن القرآن ، وكله يدخل في الاجتماع على العلم وفي الحديث : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر »[٣] .

حمل بعضهم هذا الحديث على العلم ، وبعضهم على الذكر ، وفي الحديث الثاني ما يشير إلى أن الانخراط في حلقة العلم إيواء لله عز وجل « بينما رسول الله ﷺ جالس في المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ فوقفا عليه ، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها ، وأما الآخر فجلس خلفهم ، وأما الثالث فأدبر ذاهباً ، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال : ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله ، وأما الآخر فاستحيا ، فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه »[٤] . والاجتماع على العلم تترتب عليه مصالح كثيرة ، من انبعاث همة ، أو تعرف على حكم جديد ، أو تـذكّر لقضية ينبغي تذكرها ، وكل ذلك إذا كان العلم علماً صحيحاً ، والنية خالصة ، والقائم به أهلاً لذلك . إذ تجتمع في ذلك الصحبة والتلقي وامتصاص الحال القلبي الصالح ، وكل ذلك يساعد على السير إلى الله وقد قالوا :

قد يرتجى الشفاء للسقيم   مهما يكن ملازم الحكيم

والشيخ الحكيم يعرف كيف يرتب أمر الاجتماع على العلم بحيث يوجه كل فرد إلى ما يناسبه من سير علمي من خلال حلقات عامة وخاصة ، وعليه أن يلاحظ استعداد السائرين ، وأن يرتب جلسات الوعظ ، وليلاحظ في ذلك السنة وسيرة الصحابة .

---

(١) سورة هود : ١١٨،١١٩ .

(٢) سورة الفتح : ٤ .

(٣) أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن غريب .

(٤) أخرجه الشيخان ومالك والترمذي .

أخرج الشيخان والترمذي عن شقيق قال : « كان عبد الله يـذكر النـاس في كل خميس ، فقال له رجل : ياأبا عبـد الرحمن لوددت أنـك تـذكرنـا كل يوم قـال : أمـا أنـه يمنعني من ذلك ، إني أكره أن أملكم ، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان رسول الله ﷺ يتخولنا بهـا مخـافـة السآمة علينا » .

وأخرج البخاري عن عكرمة أن ابن عباس قال : « حـدث النـاس مرة في الجمعـة ، فـإن أبيت فمرتين ، فإن أكثرت فثلاثاً ولا تُمِل الناس هذا القرآن . ولا ألفينّك تـأتي القوم وهم في حـديث من حـديثهم فتقص عليهم فتقطـع عليهم حـديثهم فتُملّهُمْ . ولكن انصت . فـإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه ، وانظر السجع من الدعاء فـاجتنبـه ، فـإني عهـدت رسـول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون ذلك » .

وهناك الاجتماع عن الذكر ، والأصل فيه ما أخرجه الشيخان على أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن لله ملائكـةً يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الـذكر . فـإن وجـدوا قوماً يـذكرون الله تعـالى تنـادوا هلموا إلى حـاجتكم فيحفونهم بـأجنحتهم إلى السماء الـدنيـا ، فيسألهم ربهم ـ وهو أعلم بهم : ما يقول عبـادي ؟ قـالوا : يقولون : يسبّحونـك ويكبّرونـك ويحمّدونك ويمجّدونك . فيقول : هل رأوني ؟ فيقولون : لا والله مـا رأوك . فيقول : كيف لو رأوني ؟ فيقولـون : لـو رأوك كانـوا أشـد لـك عبـادة ، وأشـد لـك تحميـداً ، وأكثر لـك تسبيحـاً . فيقول : فـما يسـألون ؟ فيقولون : يسـألـونـك الجنـة . فيقـول : وهـل رأوهـا ؟ فيقولون : لا والله يارب مـا رأوهـا ، فيقول : كيف لو رأوهـا ؟ فيقولون : لو رأوهـا كانوا أشد عليها حرصاً ، وأشد لها طلبـاً ، وأعظم فيهـا رغبـة . قـال : فمم يتعوذون ؟ فيقولون : يتعوذون من النار . فيقول : هل رأوها ؟ فيقولون : لا والله ما رأوهـا . فيقول : فكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فراراً ، وأشـد لهـا مخـافـة . فيقول : أشهـدكم أني غفرت لهم قال : يقول ملك من الملائكة ، فلان فيهم ليس منهم إنما جـاء لحـاجـة قـال : هم الجلساء لا يشقى جليسهم » .

من هذا الحـديث نـدرك أن رسول الله ﷺ حض على الاجتماع على الـذكر ، ورسم لنـا الأصل الجـامع الـذي تقـوم عليـه حلقـة الـذكر ، من تسبيـح ، وتهليـل ، وتكبير ، وتحميـد ودعـاء ، فلـو أن مجـوعـة اجتمعت على (سبحـان الله والحـمـد لله ولا إلـه إلا الله والله أكبر)

وختمت جلستها بدعاء واستعاذة فإنها تكون قد حققت سنة الاجتماع على الذكر ، كما وردت في الحديث ، والذي يناقش في سنية ذلك ، أي في ثبوته في السنة ، يخالف الفهم البدهي لهذا الحديث ، وإذا كانت سنة الاجتماع على الذكر واردة في مثل هذا الحديث الصحيح ، فهناك نصوص أخرى تشير إلى مثل هذا ، من ذلك ما أخرجه مسلم والترمذي والنسائي عن أبي سعيد عن معاوية رضي الله عنه قال : « خرج رسول الله ﷺ على حلقة من أصحابه فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومَنَّ به علينا » .

ومن ذلك ما أخرجه الطبراني في الكبير بإسناد حسن عن رسول الله ﷺ قال : « ليبعثن الله أقواماً يوم القيامة في وجوههم النور على منابر اللؤلؤ يغبطهم الناس ، ليسوا بأنبياء ولا شهداء . قال : فجثا أعرابي على ركبتيه ، فقال : يارسول الله : صفهم لنا نعرفهم . قال : هم المتحابون في الله من قبائل شتى ، وبلاد شتى ، يجتمعون على ذكر الله يذكرونه » . من مثل هذه النصوص ، انطلق الصوفية في الإلحاح على حلقات الذكر ، فقاسوا على هذه الأصول ، ثم توسعوا في ذلك توسعات ، فاعتمدوا أنواعاً من الأذكار على طرائق شتى ، نظموا من أجلها أنواعاً من حلقات الذكر ، حتى أصبح لكل شيخ طريقة ، طريقته الخاصة به في الذكر الذي يجتمع فيه إخوانه ، ودمج بعضهم مع الذكر الإنشاد ، وتفننوا في أنماط الذكر الإنشادي ؛ فمن جلوس ، إلىٰ قيام ، إلىٰ حركات وتحركات ، وحدث نتيجة ذلك إنكار كثير ، وخلافات كثيرة ، ومناقشات طويلة ، وسببها عدم التقيد بالحدود الواضحة الدليل . وقد جعل الأستاذ البنا ـ رحمه الله ـ الاجتماع اليومي على الذكر جزءاً من أدب المسلم . وجمع لذلك ورد الوظيفة الكبرى ، واختصره بالوظيفة الصغرى ، ومع إنه وِرْد مسنون إلا أن بعضهم أنكر عليه الجمع والاجتماع ، وهو إنكار جاهل . فلنفرض أن صحابياً كان يلازم رسول الله ﷺ ، وكان يسمع منه ما ينـدب إليه عليه الصلاة والسلام من أوراد الصباح والمساء . ثم إن هذا الصحابي التزم بها جميعاً ، جامعاً إياها بعضها إلى بعض ، فهل يكون بذلك آثماً ؟ ثم لو أن مجموعة من الصحابة دعا لهم أحدهم بمثل هذا كله ، أو طلبوا منه الدعاء بذلك ، فهل يكونون آثمين بعد أن حض رسول الله ﷺ على أصل الذكر وعلى أصل الاجتماع ؟ وعلى كل حال فأن يرتب الشيخ جلسة ذكر في الأسبوع مرة ، أو أكثر من ذلك ، أو جلسة يومية على حسب الاستعداد واحتياج السائرين ، فإن في ذلك خيراً

كثيراً . ولذلك دليله الأصيل من قول رسول الله ﷺ ، خاصة ونحن في عصر طغت المادة فيه على الروح ، وأصبح ظمأ القلب كبيراً ...

وبالمناسبة نقول : إن موقفنا من حلقات الذكر التي اعتادها بعض الصوفية بكل ما فيها موقف الفقهاء . ويبدو أن الفقهاء لم يرتاحوا للكثير مما حدث في هذه الدوائر ، واختلفت عباراتهم في الشدة واللين . ولن نسمح لأنفسنا أن ندخل معركة مع أحد لفعله وجه فقهي ، إلا أنا في الوقت نفسه نحب أن يكون منطلقنا في شأننا كله : السنة ، وعلى هذا :

فنحن نعمل لتأسيس حلقات الذكر التي لا يعترض عليها فقيه ، وندعو الناس إليها ، ولا ندخل في معركة مع أحد لتصرفه وجه فقهي ، ولكنّا نشرح له وجهة نظرنا دون الدخول معه في نقاش نصل به معه إلى المراء المذموم . ولقد ارتاح الكثيرون من علماء بلادنا لنوع من حلقات الذكر سموها (مجالس الصلاة على رسول الله ﷺ) يجتمع الناس فيها وهم جالسون ، يصلي كل منهم على رسول الله ﷺ بشكل منفرد ، ثم بعد ذلك يقرؤون شيئاً من القرآن ، ثم يذكرون الله عز وجل بصيغة لا إله إلا الله ، ثم يختمون بدعاء ، وبعضهم يفعل ذلك صبيحة يوم الجمعة ، وبعضهم يفعله في غير ذلك ، وبعضهم زاد على ذلك ، وبعضهم أدخل معاني جعلته محل الإنكار . وعلى كل الأحوال فنحن بحاجة إلى حلقات ذكر مقبولة فقهاً وعلماً لها أدلتها الواضحة ، وتسير على أصول واضحة ...

وهناك الاجتماع على مذاكرة بين اثنين أو أكثر ، يتذاكرون فيها فيما يقربهم إلى الله ، والأصل في ذلك حديث ابن رواحة أنه كان إذا لقي الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال : « تعال نؤمن بربنا ساعة » وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام « يرحم الله ابن رواحة إنه يحب المجالس التي تباهى بها الملائكة »[1] ، والمذاكرة تكون بين أخوين في الله ، وتكون بين الشيخ وسالك إلى الله ، ومواضيعها لا يمكن إحصاؤها ، والاجتماع الإسلامي كله ـ سواء كان اجتماع صلاة ، أو اجتماع خطبة وعظة ، أو اجتماعاً على العلم ، أو الذكر أو المذاكرة ـ ينشط الإنسان نحو السير إلى الله إذا كان الأمر فيه مستقيماً .

ولذلك كره الصحابة أن يعتزل الإنسان الناس إلى صحراء وما يشبهها إلا في حالات

---

(١) رواه أحمد .

خاصة جداً ، لما يترتب على ذلك من بعد عن خير أو غلظة في طبع . وفي حديث : « من بدا جفا ... »[١] . وعلى الشيخ أن يلاحظ في ترتيبه أمر الاجتماعات ، وضع الناس ، وأحوال السائرين ، وتأثير ذلك على واجباتهم الدينية وأعمالهم الدنيوية ، وأن يلاحظ الرفق في الشأن كله ؛ فذلك أدب المسلم « إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله »[٢]« إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق مالا يعطي على العنف وما لا يعطى على سواه »[٣] . « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شأنه »[٤] . « ما خُير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً »[٥] . وقبل أن ننتقل عن هذا فلنذكر شيئين :

الأول : إن من علامة صلاح جلسة العلم أو الذكر أو المذاكرة أن يخرج الإنسان منها وهو أحسن حالاً ، وأرق إيماناً ، ولكن هذا لا يحس به إلا ذو قلب سليم ، أما القلب المريض فلا عبرة لمشاعره ما دام مريضاً .

الثاني : ذكرنا الاجتماع في هذا الباب كمنشّط للسير ، وهو أمر محسوس ، فليجرب الواحد منا ـ مثلاً ـ نفسه وهي على فترة وغفلة ، أي إذا كانت أوراده القرآنية وغيرها غير منتظمة ، أو أن نفسه عازفة عنها ليجرب مثل هذا الإنسان أن يحضر جلسة ذكر أو علم أو مذاكرة مع رجل صالح ، ثم ليلاحظ بعد ذلك إقبال نفسه على الله ، إنه من المجرب أن إقباله يكون أكثر ، بل أن كثيرين يكاد يكون الاجتماع في حقهم نقطة انطلاق جديدة ، ولعل هذا أحد أسرار فرضية صلاة الجمعة وخطبتها ، ولذلك فإنه من الأهمية بمكان للمسلم في الأوضاع العادية أن يكون له صلة بحلقات علم وذكر ، وصلة بجلسات مذاكرة مع صالحين ، وعلى شيوخ المسلمين أن يرتبوا ذلك ، ولننتقل إلى المنشط الثاني في السير إلى الله تعالى .

٢ ـ الإنشاد :

عرف الحداء في حياة رسول الله ﷺ ؛ فقد حدا بعض الصحابة أثناء العمل ، وحدا بعضهم أثناء السفر . وشارك رسول الله ﷺ أحياناً في الحداء . وقال الصحابة الشعر ، وكان قسم من هذا الشعر ينشد ، تنشده الجواري ، أو ينشده الرجال أثناء سير أو عمل . ومن المألوف

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وحسنه النسائي .
(٢) متفق عليه .
(٣) ، (٤) رواهما مسلم .
(٥) متفق عليه .

عند العرب أن يتغنوا بالشعر ومن شعرهم : « تغن بالشعر إما أنت قائله » والسماع الغالب للصحابة كان سماعهم للقرآن الكريم ، وسماع الشعر إلقاء أو إنشاداً كان موجوداً ، ولكن إما في مناسبة ، أو في وقت راحة ، أو في وقت فرح ، أو عرس . وفي الحديث الذي ذكره ابن كثير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ألفين أحدكم يضع إحدى رجليه على الأخرى يتغنى ويدع سورة البقرة يقرؤها فإن الشيطان ينفر من البيت تقرأ فيه سورة البقرة . وإن أصفر البيوت الجوف الصفر من كتاب الله »[1] . إن هذا يؤكد أن الأصل في السماع في حياة الصحابة هو القرآن .

والشعر له محله ، ولكن هو كالملح في الطعام في حياتهم ، أما الإنشاد فله محله كذلك عندهم ، ولكنه كان قليلاً في حياتهم الحافلة بجلائل الأمور .

وهذه أول نقطة تؤخذ على بعض الصوفية ، هي أن الإنشاد والتمتع بالصوت الجميل أخذ حظاً كبيراً من حياتهم أكثر بما لا يقاس عما كان في حياة الأصحاب رضوان الله عليهم .

وفي حياة الصحابة نجد الشعر يعبر عن حياتهم اليومية ، سواء في ذلك صراعهم مع الكفر ، أو في تعبيرهم عن أشواقهم ، فهو يغطي الحياة الإسلامية كلها ، ويحرك مجموعة المشاعر الإسلامية ، فهو تارة يحرك مشاعر جهاد ، وتارة يعبر عن مشاعر حنين لوطن ، وتارة عن عزة مسلم ، وتارة يكون رثاءً حاراً ، وتارة يكون توجهاً إلى الله ، وكثير من الصوفية حصروا دوائر الإنشاد بنوع من المعاني التي تحرك بعض العواطف الصالحة ، ولكن لا تحرك كل العواطف التي ينبغي أن تتحرك عند المسلم . والحركة الإسلامية عوضت هذا النقص ، ولكنها أهملت تحريك عواطف الحب الإلهي ، والوجد الروحي ، وغير ذلك ، مع أن هذا كله كان للأستاذ البنا فيه دور ، وكان يفعله الأستاذ أحياناً كما حدثنا بذلك من سمعه من الأستاذ رحمه الله .

وللرمز والمجاز والكناية في شعر العرب وغيرهم محل ، فقد يعبرون عن المعنى المعنوي بأسلوب حسي ، وقد يستشهدون ببيت وضع في الأصل لخطاب جهة ، فيخاطبون به جهة أخرى . وعند العرب أساليب كثيرة في الخطاب والتخييل ؛ فقد يخاطبون الميت وكأنهم

---

(١) أخرجه ابن مردويه والنسائي في عمل اليوم والليلة .

يتصورونه حياً ، ويخاطبون الجماد وكأنه يعقل ، وكل ذلك موجود في شعرهم . ومن شعر العصر النبوي قول زيد الخير متشوقاً إلى رسول الله ﷺ وهو على فراش الموت :

فليت اللواتي عدنني لم يعدنني وليت اللواتي غبن عني عُوَّدي

وقال كعب بن زهير لأخيه بجير :

سقاك بها المأمون كأساً روية فأنهلك المأمون منها وعلّكا

فهنا شبه الهداية التي أخذها بجير بخمرة تشرب ، وشبه رسول الله ﷺ بالساقي ، وهذا كله جزء من طريقة العرب في الخطاب . والصوفية انطلاقاً من هذه المعاني انطلقوا بالتعبير عن المعنويات مشبهين إياها بالمحسوسات ؛ فاستعملوا لفظ الخمرة للتعبير عن معان ، واستعملوا لفظ السكر للتعبير عن معان ، ثم توسعوا وتوسعوا حتى كثر الإنكار عليهم من جاهل وعليم ، واتهموا نتيجة للتوسعات بالشرك وبالكفر . وحدثت نتيجة لذلك مناقشات طويلة في شؤون كثيرة . ولا شك أن سعة اللغة العربية وطرق الأداة فيها تساعد الكثيرين على أن يتملصوا من أي ممسك يأخذه الحرفيون ، ولا شك أن الحرفية في قضايا الأدب والعاطفة ليست هي الطريقة المثلى في الفهم . وهناك الحد الذي يقبله العليم ولا ينكره الحرفي ، ولا يؤدي بالعامي إلى أن يفهم مفاهيم خاطئة . هذا الحد الذي ينبغي البحث عنه وتبنيه ونشره واعتماده ...

ولقد لحظ الصوفية ملحظاً وهم يعتمدون النشيد ، وهو أن النفس إذا عرض عليها الحق من حيث تستروح فإن قبولها للحق يكون أجود ، ومن ثم اعتبروا الإنشاد في حق المبتدىء بمثابة الدواء ، إذ من خلال إلفه نفسه للصوت الحسن يمكن أن يتشرب بعض المعاني من الحق . كما لحظوا أن النشيد بمثابة الميزان الذي يزن به الإنسان مقدار ما عنده من معان ؛ كالحب لله ورسوله ، وغير ذلك من معان عليا ، وقد حاولوا أن يصوغوا السير إلى الله كله شعراً ، ومن خلال السماع لهذا الشعر يعرف الإنسان مقامه ، وتتحرك همته لما هو أعلى . ولاشك أن للغناء وللشعر آثاراً في تشكيل عواطف الإنسان . وقد نجح الصوفية في تقوية كثير من العواطف من خلال النشيد ، وفاتهم بعض ... وكان لهم دور كبير في أن استطاعوا أن يوجدوا نوعاً من البديل لأمور فاسقة ، ولذلك فإن مما استقر عليه أمر الناس في العصور المتأخرة أن أهل الفسوق يجتمعون في أفراحهم وأنسهم ومتعهم على غناء وموسيقى ،

وأن الإنشاد والسماع عند أهل الخير هو البديل من ذلك كله ، وقد شجع رسول الله ﷺ الإنشاد في الأعراس ؛ مراعاة لنفسية الأنصار مما يصلح أن يكون أصلاً في هذا الموضوع .

وعبر مسيرة التاريخ الإسلامي علق بالإنشاد أمور كثير ، واعتمد الكثيرون فيه معاني ، وصار لأهل كل طريق ، ولأهل كل بلد أسلوب نشيد ، أو عادات مرتبطة بالنشيد ، بل أصبح لكل طريق نوع من النشيد هو عَلَم عليهم ، وحدث خلال ذلك كله صراع طويل بين الفقهاء وأهل هذه الدوائر حول معان تقال أو عادات توجد . وورث أهل عصرنا هذا كله ، وككثير من الخير الذي ورثناه فإن الدخن يخالطه ، وارتبط بموضوع الإنشاد قضية الاحتفال بمولد رسول الله ﷺ ، ووقف الناس في هذا الموضوع موقفين : موقفاً متشدداً منكراً على الناس اجتماعهم على مثل هذا ، وموقفاً محبذاً ، وقامت معركة طويلة ، ولازالت تقوم حتى الآن بسبب من ذلك .

ولو أنك حللت قضية المولد فإنك تجدها ترجع إما إلى سرد فقرات من السيرة ، أو إنشاد بيت من الشعر في شأن رسول الله ﷺ ، وهذا - إن سلم مما ينكر عليه لأسباب علمية - فلا حرج فيه ، وحتى ابن تيمية رحمه الله فطن إلى ما يترتب على الاجتماع على المولد من معان طيبة يستحق الناس بسببها أجراً ، وحتى ابن الحاج في المدخل - وهو من أشد الناس على البدع - اعتبر أن للمسلمين عيداً ثالثاً لحت له النصوص هو عيد المولد أخذاً من قوله عليه الصلاة والسلام « ذلك يوم فيه ولدت »[1] . والواقع العملي يشهد أن لاحتفال المسلمين بمولد الرسول ﷺ من البركات في التذكير وفي التوبة وفي التعليم مالا تحصى آثاره ، والأستاذ البنا يعتبر من مهات الحركة الإسلامية إحياء المناسبات الإسلامية ، وتذكير الناس بها ، ومن ثم فإنه يكاد يكون من البدهيات في فقه الدعوة الإسلامية المعاصرة أن تعطى قضية المولد النبوي والاحتفال به على طريقة مدروسة علمية مقبولة فقهاً أهمية خاصة ...

بعد هذا كله أصبح بإمكاننا أن نقول :

أ - إن الإنشاد في فقه الدعوة الإسلامية المعاصرة شيء له محله على أنه يبقى كالدواء ،

---

(١) من حديث رواه مسلم .

وفي حدود ضيقه كالملح للطعام .

ب ـ إنه لابد من اختيار دقيق لما ينشد في حلقاتنا ودوائرنا بحيث يغطي مجموعة العواطف الإسلامية ، ولا يخرج عن الكلام المرضي عند الفقيه ، وهذا يقتضي أن يتدخل الفقيه في اختيار الشعر للمنشد ، وألا نسمح للمنشد أن يقول ما شاء في دوائرنا .

جـ ـ إن الإنشاد إذا روعي فيه هذه المعاني ، ولم يؤثر وجوده على واجب وقت ، أو أدبه ، فإنه يكون مهيجاً على السير إلى الله بكل لوازم السير ؛ من رغبة في الكمال ، إلى حض على الجهاد ، إلى تثبيت على الطريق ، إلى تهييج على العمل ، إلى تأكيد للصراع مع الكفر ، وهي قضايا محسة لا ينكرها إلا إنسان ضيق الأفق .

د ـ أن نتخير للمناسبات الإسلامية أنواعاً من الشعر يلاحظ فيه المعنى والأداء ، على أن يكون جزءاً من برنامج كلي يحقق أهدافاً قريبة أو بعيدة ... ضمن هذا الإطار كله نفهم قضية الإنشاد ، وعلى ضوء ذلك اعتبرناه من منشطات السير إلى الله .

أما ما سوى ذلك فإن لنا عليه ملاحظات : فمثلاً إن الإكثار من السماع ، والاسترواح للصوت الحسن ، وإن كان نشيداً يوجد عند أصحابه استرخاء نفسي ، هذا الاسترخاء النفسي قد يتسبب عنه إهمال للوجبات ، أو استعداد للوقوع في الشهوات . فالسماع أحياناً يكون غذاء للقلب ، وأحياناً يكون غذاء للنفس ، ولذلك قال صاحب المباحث الأصلية :

(وإنما أبيح للزهاد ، وندبه إلى الشيوخ باد) .

وهو على العوام كالحرام ‏ ‏ ‏ عند الشيوخ الجلة الأعلام

وكان بعض الشيوخ لا يرى في السماع بأساً ، ولكنه يخشى أن يؤثر على نفوس سامعيه من حيث يوجد عندهم استرخاء عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وكان بعض الشيوخ يخشى من زلة الإنسان في السماع ، كأن يحمل معنى يليق بالشيوخ ، ولا يليق برسول الله ﷺ ، على رسول الله ، أو كأن يحمل معنى لا يليق بالله على الله ، وهذا كله لابد أن يلاحظ . ولنا أكثر من عودة على موضوع الإنشاد فلنكتف ههنا بذلك ، ولنذكر المنشط الثالث من منشطات السير وهو المطالعة في كتب السير إلى الله وقصص السائرين .

٣ ـ المطالعة في كتب السير إلى الله وقصص الصالحين :

هناك بعض أئمة الصوفية أجمعت الأمة على قبولهم : مثل الجنيد رحمة الله ، ومثل الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله ، الذي كان يقول عنه ابن تيمية رحمه الله : إن كراماته منقولة إلينا تواتراً ، أمثال هؤلاء الأئمة إذا قرأ الإنسان لهم يفطن لقضايا في السير ؛ فتتحرك بذلك همته ، وهناك أئمة قبلتهم أكثرية الأمة ، وناقشهم بعضها في بعض الأمور ، كحجة الإسلام الغزالي رحمه الله الذي يقول عنه العقاد : إن العالم كله شرقه وغربه لم يعرف مثله مفكراً ، وكابن القيم رحمه الله ، وكل من هذين الاثنين كتب في الذروة في بعض أمور السير إلى الله ، والعليم البصير في دين الله لا يفوته أن يدرك مواطن النقد الصحيح ، وليس من أحد معصوماً إلا رسول الله ﷺ ، إن المطالعة في كتب هؤلاء العلماء والفقهاء الذين تكلموا في أمر السير إلى الله تحرك الهمة نحو الله ، وهذا شيء محس واضح ، يستطيع كل إنسان أن يدركه من خلال التجربة . ليحاول أحدنا أن يمسك الجزء الأول من الإحياء ـ مثلاً ـ وليقرأ كتاب تلاوة القرآن فيه ، ثم ليجرب أن يقرأ القرآن بعد ذلك . إنه لاشك سيجد أن حضور قلبه مع القرآن قد اختلف عما كان قبل ذلك ، وقل مثل ذلك في كل بحث بحثه الغزالي رحمه الله ، فإنك عندما تقرؤه تجد نفسك قد انتقلت إلى وضع أكمل .

إن المطالعة في كتب السير إلى الله تهيج على السير إلى الله ، وتساعد على الكمال فيه ، ومن ثم فإن السائر إلى الله ينبغي أن يكون له حظ من ذلك ، ولاشك أن من أمهات كتب السير إلى الله (الرسالة القشيرية) و (إحياء علوم الدين) ، فليحاول المسلم أن يكون لهذين الكتابين حظ من دراسته مع ملاحظة أن صاحبيهما ليسا معصومين من الخطأ ، وكما يساعد على السير وينشط له ويهيج عليه ويبعث إليه مطالعة كتب السير إلى الله ، فكذلك قراءة قصص السائرين إلى الله فإن أثرها في رفع الهمة كبير ، وإن في كتاب (صفة الصفوة) أو (حلية الأولياء) من ذلك لزاداً للسالك ، ولنا ههنا ملاحظات :

١ ـ إن أكثر كتب التصوف لا يرتاح لكثير من عباراتها الفقهية ، ومن ثم فلابد أن يكون الإنسان دقيقاً فيتخير إذ يقرأ وإذا قرأ أن يدقق .

٢ ـ إن بعض الكتب التي عرضت قصص الصالحين دخل فيها من الانحراف مالا يستقيم

مع عقل ولا شرع ، مما ننزه القلم عن ذكره ، وننزه العلماء المنسوبة إليهم هذه الكتب أن يكونوا ذكروا مثل هذا الكلام فعلينا أن ننتبه لذلك .

٣ - إن كثيرين أوغلوا في دراسة كتب السير إلى الله ، وقراءة كتب الصالحين حتى نسوا الكتاب والسنة ، وسيرة رسول الله ﷺ ، وحياة الصحابة . لذلك فلابد أن نعطي هذا الموضوع محله ؛ إذ لا يجوز أن تكون أي دراسة على حساب الإهمال للكتاب والسنة والسيرة وحياة الصحابة ، ولنكتف بهذا القدر ...

عرضنا في الفقرات الثلاث الماضية لثلاث منشطات في موضوع السير إلى الله ، وعرضنا بعض ما يؤخذ على الموجود من بعضها ؛ ليكون المسلم على بصيرة في الأخذ ، وقد يكون من المناسب أن نختم هذا الباب بمقترحات عملية في هذا الشأن تكون بين يدي الدعاة إلى الله وشيوخ المسلمين :

١ - إنني أتمنى أن تقام في كل مسجد الحلقات المتعددة : حلقات الذكر ، وحلقات العلم ، وأن يكون للإنشاد دوره أحياناً في ذيل بعض الحلقات .

٢ - إن هناك حلقات تحتاج إقامتها إلى شروط كثيرة ، وهناك حلقات لا يتطلب إنشاؤها مثل هذه الشروط ، فعلينا أن نبذل أقصى جهد لإنشاء الحلقات على ضوء ما يتوافر لدينا .

٣ - بالإمكان إنشاء الجلسات التالية في كل مسجد :

أ - جلسة ذكر ، جلسة صلاة على رسول الله ﷺ ، ويمكن أن تدمج الجلستان ؛ فتكون الجلسة على الشكل التالي : تبدأ الجلسة مثلاً بعد صلاة الصبح ، أو بعد صلاة الظهر ، أو بعد صلاة العصر من يوم الجمعة ، أو في يوم آخر ، يبدأ الحاضرون بشكل منفرد وسري يصلون على رسول الله ﷺ بالصيغة التي يرتاحون لها ، والصيغة التي تحقق تنفيذ الحد الأدنى من الأمر بالصلاة عليه وهي قولنا : (اللهم صل على محمد وآله وسلم) ويمكن اعتماد زمن بعينه كثلث ساعة مثلاً ، أو عدد بعينه بحيث لا يرهق الحاضرين ، ثم بعد ذلك يبدأ ذكر ونحن جلوس كقولنا : (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) حوالي مائة مرة ، ثم يمكن أن يكون بعد ذلك شيء من الإنشاد المنتقى شعره ، ثم تختم الجلسة بشيء من

قراءة القرآن . ويمكن حذف فقرة الإنشاد إذا لم تتوافر شروطها ، والمهم في الجلسة ألا تكون طويلة ، وألا يكون فيها ما يمكن أن يشكل مأخذاً لفقيه .

ب ـ جلسة قرآنية : كأن يجلس الناس في المسجد بعد صلاة ما ، ثم توزع عليهم أجزاء القرآن ، بحيث يقرأ كل منهم جزءاً بما يغطي ختمة أو ختمتين أو أكثر أو أقل على حسب العدد ، وبعد أن يقرأ كل منهم جزأه ضمن زمن محدد يقرأ بعضهم قراءة جهرية مرتلة ، ثم يكون درس خفيف بعد ذلك كقراءة بعض الأحاديث النبوية من كتاب ككتاب رياض الصالحين ، أو قراءة فقرة من السيرة ، ثم يكون دعاء وانصراف .

جـ ـ ويمكن أن ترتب بعض الجلسات بحيث يجتمع فيها ذكر وعلم وإنشاد ، كأن تبدأ الجلسة بذكر (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) مائة مرة ، ثم يكون درس وعظ ، ثم يكون شيء من الإنشاد ، ثم يكون شيء من تلاوة القرآن ، ودعاء وانصراف ، ويمكن أن تقدم بعض الفقرات على بعض .

د ـ تتولى لجنة في كل مسجد أمر متابعة قضية الحلقات العلمية العامة والخاصة ، بحيث يكون في كل مسجد سير نحو التحقق بفروض العين ، وإيجاد مختصين بما يغطي فروض الكفايات الدينية في المنطقة ، وإذا لم تتوافر في مسجد بعض المعاني من وجود شيخ يدير أمر بعض الحلقات ، أو وجود من يعطي بعض العلوم ، فإن أهل المسجد عليهم أن يبحثوا عمن يساعدهم في ذلك ، وعلى الآخرين أن يفعلوا . إنك ترى المسلمين يحرصون على تأليف اللجان لإصلاح بناء المسجد ، أو إنشاء مساجد ، دون أن يفعلوا الشيء نفسه لعمارة المسجد بما من أجله وجد المسجد ، وهو وضع ينبغي أن يتكامل . إنه ينبغي أن يقوم تنافس بين المساجد وأهلها على ترتيب عمارة المساجد حساً ومعنى .

هـ ـ تتولى اللجنة في المسجد ـ متبرعة أو منتخبة أو مختارة ـ أمر إحياء المناسبات الإسلامية ؛ كإحياء مناسبة المولد ، والترتيب لها ، بحيث تعطي مردوداً كبيراً في تفهم سيرة رسول الله ﷺ ، وفي تذكير المسلمين بإسلامهم ، وفي ربطهم في المسجد ، وكإحياء مناسبات الهجرة ، ومناسبات إنقاذ القدس من الصليبيين في (٢٧) رجب ، وهو اليوم الذي يحتفل فيه المسلمون بحادثة الإسراء والمعراج ، وكتذكير المسلمين في المواسم ، موسم رمضان وموسم الحج ، والتذكير بحق العشر الأوائل من ذي الحجة .

و - وإن كثيراً من هذه الأشياء يمكن ترتيبها وإقامتها في البيوت ، زيادة على المسجد ، كما أن التحضير لشؤون إحياء المسجد يمكن أن يتم في البيوت . إننا لو استطعنا أن نوجد مثل هذه الأجواء في المساجد والبيوت نكون قد هيأنا الفرص لكل مسلم ؛ من أجل أن يسير إلى الله نوع سير ، بتوفير كل الشروط الجاذبة إلى السير ، أو الحاضة عليه ، أو المنشطة له ، وهذا يقتضي من كل مسلم مهما كان وضعه وكانت مشاغله أن يبذل جهداً في هذا السبيل بالمشاركة والدعوة والحضور والتشجيع على ذلك بنفسه وماله ولسانه .

* * *

الباب الثالث عشر

في الصحة القلبية والنفسية وحلها من دوائر التكليف

يقول ابن عطاء في الوصول إلى الله عز وجل : (وصولك إلى الله وصولك إلى العلم بـه) هـذا هو الوصول أن تعرف الله عز وجل حق المعرفـة ، معرفـة يـأخـذ العقل حظـه منهـا ، والقلب حظة منها ، والروح حظها منها دون أن يرافق ذلك تجسيم أو تشبيـه أوممـاسّـه أو اتصال أو حلول أو اتحاد ، معرفـة يشهـد فيهـا الإنسـان قربـه من الله عز وجل ، وقرب الله منـه . قـال تعـالى : ﴿ وإذا سَـألـكَ عِبَـادِي عَنّي فـإنّي قَرِيبٌ أجِيبُ دَعْـوةَ الـدَّاعِ إذا دَعَـانِ ﴾[1] فـإذا عرفت الله عز وجل حـق المعرفـة ، معرفـة يجتمـع لـك فيهـا التسليم العقلي والذوق القلبي فقد وصلت ، وذلك لا يتم بلا سلوك لطريق ذلك .

وإذا تم الوصول فلذلك ثمراته الكثيرة ؛ لأنه ما من خير إلا وهو انبثاق عن هذه المعرفـة ﴿ ألم تَرَ كيفَ ضَربَ الله مَثَلاً كلمة طيبةً كَشَجرة طَيّبة أصْلُها ثابتٌ وفَرْعُها في السماءِ تُؤتي أُكُلَهَـا كُلَّ حينٍ بإذنِ رَبّهـا ويَضْرِبُ اللهُ الأمثـالَ للنـاسِ لَعَلّهُمْ يتَـذكّرُونَ ﴾[2] . فثمرات المعرفـة الحقيقيـة لله عز وجل من الكثرة بحيث لا يستطاع إحصاؤهـا ومن ثمرات ذلـك التحقـق بمقـام العبوديـة لله ، وذلك أعلى المقامات على الإطلاق . والعبودية تقتضي طاعة ظاهرة وبـاطنـة لله في كل شيء ...

إن الوصول إلى الله يعني معرفتـه جل جلالـه ، معرفـة أنـه موجود ، ومعرفـة صفـاتـه ، صفـات الجلال والجمـال ، والصفـات الوجوديـة ؛ من علم وقـدرة وإرادة وحيـاة وسمـع وبصر وكلام . وصفات السلب التي تنفي بها عن الله عز وجل مالا يليق بذاته ، ومعرفـة أسمائـه ، ومعرفة أفعاله ، وأن يتملى القلب ذلـك كلـه ، وأن يستشعره ذوقـاً ، وذلـك معنى زائـد على مجرد المعرفة العقلية ، وإن كانت المعرفة العقلية هي المقدمة العادية لذلك . ومما يـدخل في معرفـة الله عز وجل معرفـة معـاني النصوص المتشـابهـة ، وحملهـا على محـاملهـا الصحيحـة ،

---

(١) سورة البقرة : ١٨٦ .

(٢) سورة إبراهيم : ٢٤، ٢٥ .

وتذوق ذلك ، فالسالكون لهم أذواقهم لهذه النصوص مع التنزيه . وفي هذه المقامات ضل كثير ، وغوى كثير ، وضاقت عبارات الكثيرين ، وفُهمت عبارات الكثيرين على غير مرادهم ، ومن فتح الله له في هذه الشؤون باب الفهم والذوق على مقتضى العلم استطاع أن يفهم الخطأ من الصواب ، واستطاع أن يميز ما يجب رده من هذه العبارات والمحامل الصحيحة لها ، وكثيراً ما نجد إنساناً يحمل على كلمة بدعوى أنها كفر ، مع أن لها محملاً صحيحاً ، وكثيراً ما نجد إنساناً يدافع عن كلمة وليس لها وجه ، وإنما هي البدعة أو الكفر أو الضلال ، والموفّقون من خلق الله هم الذين يضعون الأمور في مواضعها ، ويصلون إلى أن تكون معرفتهم بالله كاملة ، حتى إذا تكلموا في ذلك تكلموا عن حق وعلم . قال تعالى : ﴿ سُبحانَ اللهِ عَما يَصِفُونَ إلا عبادَ اللهِ المخلَصين ﴾[1] .

إن تذوق السالكين لمعنى اسم الله الأول ، ولمعنى اسم الله الظاهر ، واسمه الباطن ، ولمعنى اسمه الصمد ، ولمعنى اسمه القريب ، ولغير ذلك من أسماء الله عز وجل ، تذوق أعمق بكثير من أي تذوق عقلي ، والذين يتكلمون في هذه المعاني يفطنون لأمور لا يفطن لها غيرهم ، ويعبرون عنها تعبيراً لا يستطيعه غيرهم ، وأعني بذلك المحققين من هؤلاء ، والمدققين ، والذين عباراتهم مقيدة بالعلم والنصوص . أما الذين حرفوا وبدّلوا فهؤلاء ليسوا هم المقصودين في هذا المقام ، ولعل من أول ثمرات المعرفة التمكن من التعبير العالي والصافي . وفي ذلك يقول ابن عطاء : (تسبق أنوار الحكماء أقوالهم فحيث صار التنوير وصل التعبير . كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز . من أُذِن له في التعبير فُهمت في مسامع الخلق عبارته وجليت لهم إشارته . ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار إذا لم يؤذن لك فيها بالإظهار . عباراتهم إما لفيضان وَجْد أو لقصد هداية مريد فالأول حال السالكين ، والثاني حال أرباب المكنة والتحقيق والعبارة قوت لعائلة المستمعين) فمن ثمرات الوصول إلى الله القدرة على التعبير الصحيح عن الذات الإلهية ، والدلالة الصحيحة عليها . وانظر مثل هذه العبارات لترى بوضوح حقيقة هذه الثمرة . قال ابن عطاء : (أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون فإذا شهدته كانت الأكوان معك . لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية ، إنما مثل الخصوصية كإشراق شمس النهار ظهرت في الأفق وليست منه ، تارة

---

(١) الصافات : ١٦٠ .

تشرق شموس أوصافه على ليل وجودك وتارة يقبض ذلك عنك فيردك إلى حدودك فالنهار ليس منك إليك ولكنه وارد عليك . دل بوجود آثاره على وجود أسمائه وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه وبوجود أوصافه على وجود ذاته إذ محال أن يقوم الوصف بذاته) .

هذا الوصول إلى الله الذي رأينا بعض ثمراته هو المظهر الأعلى للصحة القلبية والنفسية في الإسلام ، وهو الذي يتفرع عنه أمور كثيرة هي أثر عن صحة القلب والنفس . فكيف نصل إلى الله ؟ وإذا وصلنا إلى الله فماذا ينبثق عن هذا الوصول ؟ لقد تحدثنا عن الأوراد ، وعن المجاهدة وعن فرض الوقت ، وعن ترك المحرمات ، وكلها عوامل تساعد على الوصول إلى الله عز وجل . وههنا سنتحدث عن مراحل أربع كل مرحلة توصل إلى ما بعدها ، فإذا عرفناها نكون قد عرفنا ماهية التكليف :

مرحلة تنفيذ الأوامر واجتناب النواهي ، ثم مرحلة تحقيق الحكمة من الأمر والنهي ، ثم مرحلة تنوّر القلب ، ثم مرحلة انبثاق سلوك معيّن كأثر عن ذلك ، فالوصول إلى الله جسر بين ما قبله وما بعده ، تسبقه معان وتنبثق عنه معان ، ولذلك قدمنا الحديث عنه وعن بعض ثمراته ، وههنا نعرض للأمر بتفصيل أشمل :

هناك أوامر ربانية ، ولكل أمر حكمته ، وكنا ذكرنا من قبل أن لكل عبادة حكمتها وأنوارها ، وأن المسلم عليه أن يعمل كما أمر ، وأن يحقق الحكمة التي من أجلها كان الأمر .

إن تنفيذ الأمر ، وتحقيق الحكمة من الأمر ؛ يترتب عليه آثار في القلب وفي النفس . هذه الآثار مهمتها تكميل الذات ، والارتقاء بالتحقيق بالكمالات العليا .

فالمسلم كما أن عليه أن يعمل ، عليه أن يلاحظ الحكمة من العمل ، وعليه أن يتابع تكميل ذاته كهدف للعمل ، وكثيرون من الناس يبقون في الدائرة الأولى على ضعف فيها دون أن ينتقلوا إلى الدائرتين الأخيرتين . وبعضهم قد يفطن للدائرة الثانية ، ولكن لا ينتقل إلى الدائرة الثالثة ، فضلاً عن دائرة أخرى رابعة سنراها .

والغموض في هذه الأمور هو علة عدم التطلع إليها ، ولذلك فإنها تحتاج إلى وضوح تام ، فلنقف أكثر من وقفة حول بعض المعاني حتى تتضح هذه المقامات .

قال تعالى : ﴿ إنَّ الإنسانَ خُلِق هَلُوعاً * إذا مَسَّه الشرُّ جَزُوعاً * وإذا مَسَّه الخيرُ

مَنُوعاً * إلا المصلين * الذين هم على صَلاتِهم دَائِمُون * والذينَ في أَمْوالِهِمْ حق مَّعْلُومٌ * للسَّائِلِ والمحْروم * والذين يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * والذينَ هُم من عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ * إنَّ عذابَ رَبِّهِم غيرُ مَأْمُونٍ * والذينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إلا على أَزْوَاجِهِمْ أَو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهم فَإِنَّهم غيرُ مَلُومِينَ * فَمنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ العَادُونَ * وَالَّذِينَ هُم لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * والذينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهم قَائِمُونَ * والذينَ هُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولئكَ في جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ * ﴾[1] لاحظ أن خلق الهلع الذي مظهره الجزع عند المصيبة ، والمنع عند النعمة ، لا يتخلص منه إنسان إلا إذا اجتمعت فيه مجموعة أمور : الصلاة ، والإنفاق ، والتصديق باليوم الآخر ، والإشفاق من عذاب الله ، وحفظ الفروج ، والقيام بالتهادة صدقاً وعدلاً ، فمن اجتمعت له مجموعة الأمور هذه تخلص من مرض وتحقق بصحة . فمتى تحقق إنسان بمجموع هذه المعاني انتفت عنده ـ بشكل تلقائي ـ صفة الهلع ، أي ووجد عنده خلقا الصبر والكرم . فالتحقيق بالصبر والكرم علامة إقامة هذه المعاني كلها ، ونحن مكلفون بمجموع هذا ، مكلفون بهذه الأعمال ، ومكلفون بالصبر وبالكرم ، وكما أن عليّ ـ كمسلم ـ أن أبذل جهداً في العمل لإقامة الصلاة ، فإن عليّ كذلك أن أحقق نفسي بالصبر والكرم من خلال مجاهدة النفس ، ومعرفة حدود الصبر والكرم . وتحقيقي بالصبر والكرم مظهر من مظاهر صحة القلب والنفس ، وعلامة على صحة طريقه ، ولكن الصبر والكرم يحتاجان إلى بذل جهد خاص فيهما ؛ فالله عز وجل قال : ﴿ وأُحْضِرت الأنفُس الشُّح ﴾[2] فما من حالة إلا والشح حاضر عندها ، وعلى صاحبها أن يتغلب على شحه بمجاهدة نفسه ، وبسلوك الطريق الموصل إلى ذلك ، ولكن كم من الناس يبدأ تلك البداية وينتهي هذه النهاية . لاحظ كم يترتب على الفشل في الوصول إلى مقامي الصبر والكرم من آثار سيئة : إنه ليس بعد الصبر إلا الكفر ؛ فبدون الصبر لا يكون إيمان ، وإذا لم يكن إيمان فلا إسلام ، والشح متى وجد لم يعد بالإمكان أن يكون هناك تعاون بين المسلمين على أمر ، بل تنعدم إمكانية العمل الجماعي أصلاً ، ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك ودع عنك العوام فإن من ورائكم أياماً الصبر فيهن مثل القبض على الجمر

---

(١) المعارج : ١٩ ـ ٣٥ .

(٢) سورة النساء : ١٢٨ .

للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم . قيل يارسول الله أجر خمسين منا أو منهم ؟ قال : بل أجر خمسين منكم »[١] لاحظ أن الشح المطاع هو المرض الأول من الأمراض التي إذا وجدت فقد حل للإنسان أن يعتزل الناس ؛ لأنه لا فائدة من عمل جماعي أصلاً .

من المثال المذكور ندرك كيف أن هناك أمراً ، وحكمة من هذا الأمر ، وآثاراً نفسية تترتب على ذلك ، وكيف أننا مكلفون بهذا كله . فالدائرة الثالثة من هذه الدوائر هي التي نسميها : الصحة النفسية والقلبية ، ولنضرب مثالاً آخر :

قال تعالى : ﴿ **إنَّ الله اشتَرى منَ المؤمِنينَ أنفُسَهُم وأموالَهُم بأنَّ لهم الجنـة يُقاتِلون في سبيلِ اللهِ فَيَقْتُلونَ ويُقْتَلون وعداً عليه حقاً في التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ ومَن أوْفَى بعهدهِ من اللهِ فاسْتَبْشِروا بِبَيْعِكم الذي بَايعتُم بهِ وذلكَ هوَ الفوزُ العظيم * التَّائبُون العَابِدُون الحَامِدُون السَّائحُون الرَّاكِعُون السَّاجِدُون الآمِرُونَ بالمعروفِ والنَّاهُونَ عن المنكر والحَافِظُونَ لحدودِ اللهِ وَبشِّرِ المؤمنينَ** ﴾[٢] لاحظ من الآيتين أن اجتماع خصال الإيمان والتوبة والعبادة والحمد والسياحة - التي هي الصوم أو الرحلة في الله - والركوع والسجود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي التي ينبثق عنها بيع النفس والمال لله ؛ فلا جهاد كاملاً إلا إذا توافرت هذه المعاني كلها . وأنا - كمسلم - مطالب بالتحقق بهذه الخصال ، ومطالب بأن أبيع نفسي لله ، فلو أن إنساناً عمل بهذه ثم لم يبع نفسه وماله لله فإنه يكون قد قصر في التكليف .

إن هناك أعمالاً ينبثق عنها حال نفسي ، وعن هذه الحالة النفسية تنبثق أعمال وتصرفات ، فهذه هي الدائرة الرابعة في التكليف وهي التي تنبثق عن الصحة القلبية . ومن المثالين السابقين ندرك أن هناك أعمالاً تستتبع وجود حالة نفسية وقلبية ، هذه الحالة نحن مطالبون بها ، كما أننا مطالبون بالطريق الموصلة لها ، كما أننا مطالبون بالأعمال التي تنبثق عنها . هذه الحالة النفسية والقلبية التي نحن مطالبون بها هي الوضع الصحي للنفس وللقلب . ووجودها علامة الصحة ، وعلامة على استقامة السير ، وكثير من المسلمين تغيب

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وقال : حسن غريب .

(٢) سورة التوبة : ١١١ - ١١٢ .

عنهم قضية الصحة النفسية والقلبية بكل أبعادها ، كما تغيب عنهم كثير من الأعمال الموصلة إليها ، أو التي تنبثق عنها ، وهي نقطة خطر ، وحتى الآن لم يتضح الشيء الذي نريده فلنضرب أمثلة أخرى .

قال تعالى : ﴿ **إن الصلاةَ تَنْهى عن الفَحْشاءِ والمنكر** ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ **وأقِمِ الصلاةَ لِذكري** ﴾[٢] فالصلاة من آثارها ترك الفحشاء والمنكر ، والهدف من إقامة الصلاة هو ذكر الله عز وجل ، على الطريقة التي اختارها الله لنا ، والذكر من آثاره أن يعطي القلب اطمئناناً . قال تعالى : ﴿ **ألا بِذكرِ الله تطمئنُّ القلوب** ﴾[٣] فطمأنينة القلب هي الحالة الصحية له ، ونحن مطالبون بالوصول إليها ، والطريق إلى ذلك هو الذكر ، ومن الذكر الصلاة ، ونحن مطالبون بذلك ، ومن آثار الصلاة العملية الانتهاء عن الفحشاء والمنكر ، ونحن مطالبون بذلك . فالدوائر الأربع ـ التي من جملتها الصحة القلبية والنفسية ـ نحن مطالبون بها ، وعلينا أن نحصلها علماً وعملاً .

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذينَ آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قَبْلِكم لَعَلَّكُم تَتقُون** ﴾[٤] .

فالصيام فريضة ، وحكمة هذه الفريضة الوصول إلى التقوى . والتقوى ملكة في القلب ، ينبثق عنها سلوك معين ، ونحن مطالبون بالجميع ، وأحد أجزاء هذا الجميع هو الصحة القلبية والنفسية والروحية والعقلية التي ينبثق عنها سلوك معين ، والتي تكون كأثر عن عمل معين ، وفي دائرة من هذه الدوائر يقع أحياناً نوع من القصور أو التقصير .

إذا اتضحت هذه الأمور فلنحاول أن نتحدث الآن عن معان من خلالها ندرك المراد من الصحة القلبية والنفسية والروحية بعد أن عرفنا محلها في دوائر التكلف ...

يلاحظ أن القرآن قال عن النفس مرة : ﴿ **إنَّ النفْسَ لأمارةٌ بالسوءِ** ﴾[٥] وهي حالة مرضية للنفس وقال مرة : ﴿ **ولا أُقْسِمُ بالنفْسِ اللوامَة** ﴾[٦] وهي حالة أرقى للنفس ؛ إذ

---

(١) سورة العنكبوت : ٤٥ .
(٢) سورة طه : ١٤ .
(٣) سورة الرعد . ٢٨ .
(٤) سورة البقرة : ١٨٣ .
(٥) سورة يوسف : ٥٣ .
(٦) سورة القيامة : ٢ .

تلوم صاحبها على الشر إذا واقعه . وقال : ﴿ ياأيَّتها النفسُ المطْمَئِنَّة ﴾[1] فههنا حالة أرقى للنفس إذ أخذت حظها من الاطمئنان واليقين ، والملاحظ أن النفس المطمئنة هي التي يقال لها ﴿ ارجعي إلى ربكِ راضيةً مرضية ﴾[1] . فدل ذلك على أن النفس المطمئنة هي التي رضي الله عنها وسيرضيها . فالنفس المطمئنة إذن هي الحالة الصحية العليا للنفس . والطريق إلى هذه النفس المطمئنة هي ما قاله الله عز وجل : ﴿ ويهدي إليه من أناب * الذين آمنوا وتطْمئن قلُوبهم بذكرِ الله ألاَ بذكرِ الله تَطْمئن القلوب * الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ طُوبى لهم وحُسن مآب ﴾[2] . فالطريق إلى النفس المطمئنة الإنابة إلى الله ، والإيمان ، وكثرة الذكر ، ونحن مكلفون بذلك كله . فهذا نموذج على الصحة النفسية والقلبية ، وعلى الطريق الموصلة إليها ، ولنا الآن أن نسيح سياحة ثم نرجع إلى الموضوع الأصلي .

يتحدث الصوفية عن شيء اسمه حال ، وعن شيء اسمه مقام . ويعتبرون الحال هو مقدمة المقام فمثلاً أول ما يبدأ الإنسان بالاشتغال في الذكر يصل إلى طمأنينة مؤقتة للقلب لا تلبث أن تزول . فهذا حال ، فإذا تابع الإنسان الذكر وصل إلى طمأنينة دائمة للقلب فهذا مقام . ونحن مطالبون في كل مظهر من مظاهر الصحة القلبية والنفسية أن نصل إلى المقام لنتمكن فيه ، ولكن كثيرين تغيب عنهم ماهية مقامات الصحة ، كما يغيب عنهم العمل من أجلها .

إننا مطالبون بالحلم إلا إذا إنتهكت حرمات الله ، فعندئذ نحن مطالبون بألا يقوم لغضبنا شيء حتى نقيم أمر الله . هكذا شأن رسول الله ﷺ ، لم يكن يغضب لشخصه ، وإنما يغضب إذا انتهكت حرمات الله . فإذا انتهكت حرمات الله لا يقوم لغضبه شيء فههنا مقامان : مقام الحلم ومقام الغضب لله ، والحلم لا يأتي دفعة واحدة ، وإنما الحلم بالتحلّم ، فعندما يبدأ الإنسان يجاهد غضبَهُ يفشل مرة ، وينجح مرة . فالحلم ههنا حال حتى يتمكن الإنسان من مقام الحلم ، فلا يغضب إلا حيث يجب عليه شرعاً أن يغضب . عندئذ يتمكن الإنسان من مقام الحلم ويكون في حالة صحية قلبية ونفسية . كم هي مجموع الأخلاق القلبية والنفسية التي نحن مطالبون بها ؟ إن مجموع هذه الأخلاق إذا أصبحت لدينا كمقامات ، وتمكنا منها ، فعندئذ نكون قد ملكنا الصحة القلبية والنفسية ، وهي إحدى دوائر التكليف

---

(١) سورة الفجر : ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) سورة الرعد آية ٢٧ ـ ٢٩ .

الأربع التي نحن مطالبون بها .

قلنا من قبل : إن في دين الله مقامات هي : الإسلام والإيمان والإحسان والتقوى والشكر . والشكر له جانب قلبي ، وآخر عملي ، وكذلك الإسلام والإيمان ، فإن يحصل الإنسان الجانب القلبي من هذه المقامات فذلك علامة صحة القلب والعقل والنفس ، وهذه دائرة من دوائر التكليف ...

قال تعالى : ﴿ وإذْ أخَذ ربُّك مِن بني آدم مِن ظُهورهم ذُريتهم وأشْهَدهم على أنفُسهم ألستُ بِربكم قَالُوا بَلَى ﴾[1] . فالروح مقرة لله بالعبودية ، فبقدر تحقق الإنسان بالعبودية لله ظاهراً وباطناً تكون صحة قلبه . والله عز وجل خلق آدم على صورته أي : على صفته كما قال جماهير العلماء . وإذاً فبقدر ما يأخذ الإنسان حظه من أسماء الله مع التحقق بالعبودية ، وعدم منازعة الله جل جلاله فيما هو من شأنه وحده جل جلاله فذلك علامة على الصحة .

الرأفة في محلها ، والرحمة في محلها ، والكرم في محله ، والعفو في محله ، وإذلال من يستحق الإذلال ، وإعزاز من يستحق الإعزاز ، كل ذلك في حقنا مطلوب ، وهو تحقق بأسماء الله مع العبودية ، والكبرياء والعظمة من شأن الله وحده لأنها من خصائص الربوبية فأن ينازع الإنسان رب العزة خصائص الربوبية فذلك مرض . قال عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي « العز إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني شيئاً منهما عذبته »[2] .

والتحقق بما ينبغي التحقق فيه ، وترك ما لا ينبغي أن يكون مظهراً من مظاهر الصحة القلبية والنفسية والروحية للإنسان ، فقد فرض الله عز وجل عليك أن يتحقق قلبك بمعانٍ ، وحرم عليك أن يكون فيه معانٍ فأن يكون قلبك كذلك سلباً وإيجاباً فذلك علامة الصحة . فرض عليك ألا يكون في قلبك مودة للكافرين ، وفرض عليك أن تحبه ، وتحب رسوله ، وأن تحب أهل الإيمان ، فرض عليك ألا تخاف غيره ، وفرض عليك أن تخافه وتخشاه وحده . فرض عليك أن ترجوه ، وفرض عليك ألا تقنط من رحمته ، فرض عليك أن لا تأمن من مكره ، وفرض عليك ألا تتكبر وألا تبطر ، فكل ما فرض عليك

---

(١) الأعراف : ١٧٢ .

(٢) رواه البرقاني في مستخرجه ورواه غيره والحديث صحيح .

من أعمال القلوب ينبغي أن تتحقق به ، وكل ما حرّمه عليك منها يجب أن تتخلى عنه ، فذلك علامة الصحة . فرض عليك الصبر والتسليم والرضا والتوكل ، فأن تتحقق بهذا كله ، فذلك علامة الصحة . فرض عليك أن تجلو مرآة قلبك ، وأن تجلو عين بصيرتك ، وطالبك بأن يتأمل قلبك آياته ، وأن ترى أفعاله ، وأن تستشعر صفاته ، وكل ذلك إن تحققت به فذلك من علامات الصحة ، وكل ذلك لن يتم إلا بذكر كثير ، وعلم غزير ، ومجاهدة شاملة ، ومذاكرة دائمة مع أهل ذلك ...

وأصل الأصول الذي عنه ينبثق عنه كل شيء هو تعميق التوحيد في القلب قال تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ الملائكةَ بالرُّوحِ مِنْ أمْرِهِ على مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّه لا إِلَهَ إلا أَنَا فاتَّقُونِ ﴾[1] .

لاحظ أن الوحي إنما يتنزل للإنذار بوحدانية الله ؛ ليترتب على ذلك الالتزام بتقواه ، فكلما تعمق التوحيد في القلب ترتب على ذلك كل خير ، ولا يتعمق التوحيد إلا بذكر . وإن الأذكار كلها ليست إلا تعميقاً لقضية التوحيد . فسبحان الله تنزيه لله ، والحمد لله اعتراف بأنه المنعم وحده ، والله أكبر نفي لتعظيم غيره في القلب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله نفي أن يكون هناك فاعل سواه . فهل اتضحت بعد هذا كله معالم الصحة القلبية والنفسية عند المسلم ؟ ومحلها في دوائر التكليف ؟ لا أجدني حتى الآن مطمئناً إلى أنني أفلحت في التعبير عما أريد ، فلأبذل محاولة أخيرة : هناك في الإسلام أوامر ونواه ، ولكل أمر حكمته ، ولكل نهي حكمته ، وتنفيذ الأوامر ، واجتناب النواهي ، مع تحقيق حكمة الأمر ، وتحقيق حكمة اجتناب النهي ، يترتب عليه حال قلبي ونفسي ، هذه الحالة هي مظهر الصحة القلبية والنفسية ، فإذا صح القلب والنفس انبثق - كأثر عن ذلك - ماء صاف وثمر طيب ، هو نبع الفطرة وثمار الإيمان . يظهر ذلك في معاملة الحق والخلق ، فهذه أربعة دوائر . دائرة تنفيذ الأمر واجتناب النهي ، ودائرة تحقيق الحكمة في ذلك ، ودائرة ما يترتب على ذلك من صحة قلب ونفس ، ودائرة ما ينبثق عن هذه الصحة من آثار . ونحن مكلفون بهذه الدوائر كلها على تفاوت في درجات التكليف في كل مرحلة ، وكثيرون من الناس يغلطون أو يقصرون في فهم هذه الدوائر والتحقق بها . والصحة الكاملة هي التحقق

(١) النحل : ٢ .

بهذه الدوائر كلها ، والصحة القلبية والنفسية هي محور هذه الصحة ، والصحة القلبية والنفسية محورها معرفة الله ، والتحقق بأسمائه ، مع العبودية الكاملة له جل جلاله ، وليكن هذا خاتمة هذا الباب ولعله قد وضح المراد .

* * *

الباب الرابع عشر

في الرؤى والكشف والإلهام والكرامة ومحلّها في دين الله والأخطاء الشائعة عنها وفيها في بعض الدّوائر

الشيء الجوهري في السير إلى الله وهو التحقق والشعور ، والذوق لحقائق الإسلام ، والإيمان ، والتقوى ، والإحسان ، والشكر ، وأن ينسجم السلوك مع ذلك ، وأن تصبح النفس مزكاة ، والقلب منوراً ، والروح عارفة بالله ، مستسلمة له والعقل شرعياً . وبكلمة واحدة : العبودية الخالصة لله فإنها غاية مطلب الصديقين ، وهي أشرف المقامات على الإطلاق ، وهي الوصف اللازم الأرقى لرسول الله ﷺ ﴿ **سُبحانَ الذي أسْرى بِعبدهِ ليلاً من المسجدِ الحرام إلى المسجدِ الأقصى** ﴾[1] . ﴿ **الحمدُ لله الذي أنزَلَ على عَبده الكِتابَ ولم يَجْعل له عِوجاً** ﴾[2] .

إن السالك إلى الله عز وجل هذه همومه أو هذا همه ، وما سوى ذلك يفرحه ، إذا كان علامة على فضل الله عز وجل فهو يفرح به لأنه علامة على ذلك ، وبشارة على القبول ﴿ **قُلْ بِفَضلِ اللهِ وبِرحْمتِهِ فَبِذَلكَ فَلْيفْرحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّما يَجْمَعُون** ﴾[3] . فقد يجد السالك إلى الله الرؤيا الصالحة ، أو الكشف ، وقد يحس بالإلهام ، وقد تظهر على يده كرامة ، وكل ذلك ليس هدفاً للسالك ، وإنما يفرح به لأنه علامة على القبول ، أو بشارة للسالك بأمر ، فإذا اتضح هذا نكون قد عرفنا هدف السالك ، وعرفنا ـ في الوقت نفسه ـ خطأ يقع فيه بعض الصوفية ؛ إذ يجعل بعضهم الهدف هو الوصول إلى الكشف ، أو إلى الكرامة ، أو غير ذلك من معان هي علامات على صحة السير ، وليست هدفاً في السير ، إذ المراد هو وجه الله عز وجل . قال تعالى : ﴿ **واصْبِر نَفْسك مَعَ الذينَ يَدْعون رَبَّهم بِالغَداة والعَشِي يُريدُون وَجْهَه** ﴾[4] . على أنه إذا كان بعض الصوفية يغلطون في جعل ما ليس هدفاً هدفاً ، فإنه من الملاحظ من التتبع التاريخي أن هذه المعاني من كشف أو إلهام أو رؤيا صالحة أو كرامة ، وهي أمور نجدها بكثرة في النصوص ، وفي حياة أصحاب رسول الله

---

(١) الإسراء : ١ .   (٢) الكهف : ١ .   (٣) يونس : ٥٨ .   (٤) الكهف : ٢٨ .

ﷺ ، هذه المعاني نادراً ما تجدها إلا في دوائر الصوفية ، ونادراً ما تجد حديثاً عنها يشبه الحديث عنها في النصوص ، كما نجده عند الصوفية ، وهذا دليل على أن التصوف الصحيح سير صحيح في طريق القدوة الصالحة ؛ بدليل ظهور ثمرات الاقتداء كاملة .

هذا ابن تيمية رحمه الله يذكر أن كرامات الشيخ عبد القادر الجيلاني منقولة تواتراً ، وللشيخ ابن تيمية على الشيخ الجيلاني من الثناء ما لم يظفر به أحد إلا قليلاً . وفي ذلك كله دليل على أن السير إلى الله على طريقة الصوفية المحققين له فضله وثمراته الطيبة ، ولكن كما سنرى فإن بعض الصوفية يغلو في بعض هذه الأمور ، أو يخطىء فيها ، وهنا كذلك مأخذ آخر . ولنبدأ عرض موضوعات هذا الباب :

١ ـ الكشف : وصف الله عز وجل سيدتنا مريم عليها السلام بأنها صديقة قال تعالى : ﴿ وأمه صِدّيقة ﴾(١) . ومن المعروف في علم العقائد أن الله عز وجل لم يبعث رسولاً إلا رجلاً . قال تعالى : ﴿ ومَا أرْسلْنا مِن قَبْلِك إلا رِجَالاً نُوحي إليهم ﴾(٢) . فمريم إذن صديقة وليست نبية ولا مرسلة ، ومع ذلك ذكر القرآن أن الملائكة خاطبتها ﴿ وإذْ قالت الملائكةُ يَامَرْيم إنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وطَهّرك واصْطَفَاكِ على نِسَآءِ العَالمينَ ﴾(٣) . ﴿ فأرسَلْنا إليها رُوحَنا فتَمثَّل لها بَشراً سَوياً * قالت إني أعُوذُ بالرَّحمنِ منك إن كُنتَ تَقياً * قال : إنما أنا رسُول ربِّك لأهَب لكِ غُلاماً زَكياً ﴾(٤) . وإذن فمن الممكن شرعاً أن يكشف الله عز وجل لغير الأنبياء والرسل عن الملائكة بحيث يسمع أو يرى ملكاً ، هذه الحالة يسميها الصوفية كشفاً ، هذا الكشف تذكر نصوص السنة إمكانيته ، ونجد نماذج له في حياة الصحابة ، ونجد تاريخ التصوف الإسلامي المحقق زاخراً بالحديث عن واقعات فيه . ومن قرأ سيرة الغزالي و ما كتبه وهو إنسان موثوق ، رأى الكثير من هذا ، إن فيما وقع للغزالي نفسه ، أو فيما نقله عن أمثاله وذلك حجة كافية في حق المنصف ، إذ أن الغزالي رجل صدق عند جماهير هذه الأمة ، ولنر ما يدل على إمكانية الكشف ووقوعه في جيل الصحابة وطرق الوصول إليه من النصوص :

أ ـ في الحديث رقم (٢٦٢) من كتاب الترغيب والترهيب ما يلي : « عن أبي أمامة رضي

---

(١) المائدة : ٧٥ .
(٢) سورة يوسف : ١٠٩ .
(٣) سورة آل عمران : ٤٢ .
(٤) سورة مريم : ١٧ : ١٩ .

الله عنه قال : مر رسول الله ﷺ في يوم شديد الحر نحو بقيع الغرقد . قال : وكان الناس يمشون خلفه . قال : فلما سمع صوت النعال وقر ذلك في نفسه فجلس حتى قدمهم أمامه فلما مر ببقيع الغرقد إذا بقبرين قد دفنوا فيهما رجلين . قال : توقف النبي عليه الصلاة والسلام فقال : من دفنتم ههنا اليوم ؟ قالوا : فلاناً وفلاناً . قالوا : يانبي الله وما ذاك قال : أما أحدهما فكان لا يتنزه من البول وأما الآخر فكان يمشي بالنمية ، وأخذ جريدة رطبة فشقها ثم جعلها على القبرين . فقالوا : يانبي الله ، لم فعلت هذا ؟ قال : ليخفف عنهما . قالوا يارسول الله حتى متى يعذبان ؟ قال : غيب لا يعلمه إلا الله ، ولولا تمرغ قلوبكم وتزيدكم في الحديث لسمعتم ما أسمع »[1] . لاحظ قوله عليه الصلاة والسلام : « لولا تمرغ قلوبكم وتزيدكم في الحديث لسمعتم » فهذا يدل على ماهية المانع من الكشف ، ويدل على إمكانيته والطريق إليه وهو عدم التزيد في الحديث مع تصفية القلب ، ولتصفية القلب طرقها المذكورة في النصوص كما سنرى .

ب ـ في الحديث (٩٦٦٢) من كتاب جمع الفوائد (قال) حنظلة ابن الربيع الأسيدي ـ أحد كتاب النبي ﷺ ـ: لقيني أبو بكر فقال : كيف أنت ياحنظلة ؟ قلت : نافق حنظلة . قال : سبحان الله ما تقول ؟ قلت : نكون عند النبي ﷺ يذكرنا بالنار والجنة كأنا رأي عين ، وإذا خرجنا من عنده عافَسْنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيراً ، قال أبو بكر : فوالله إنا لنلقى مثل ذلك . فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على النبي ﷺ فقلت : نافق حنظلة يارسول الله . فقال : وما ذاك ؟ قلت : نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأي العين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيراً فقال ﷺ : « والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن ياحنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات »[2] .

لاحظ قوله عليه الصلاة والسلام « والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عليه عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طريقكم ... » إن هذا الحديث يدل على أنه يمكن لكل صحابي إذا حافظ على الحال الذي يحصله حين جلوسه مع رسول الله ﷺ ،

---

(١) رواه أحمد واللفظ له .

(٢) رواه الترمذي ومسلم بلفظ .

وإذا داوم مع ذلك على الذكر أن يصير إلى حالة تصافحه فيها الملائكة ، ولعله من هذين الحديثين ندرك أن الصمت إلا فيا لا ينبغي السكوت عنه أو فيه ، والذكر من الأسباب التي يصل بها الإنسان إلى الكشف ...

جـ - في الحديث (٦٧٣١) من جمع الفوائد ما يلي : روى البخاري عن أسيد بن حضير : « بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكنت ، فقرأ فجالت فسكت فسكنت ثم قرأ فجالت فانصرف وكان ابنه يحيى قريباً منها فأشفق أن تصيبه ولما أخره رفع رأسه إلى السماء فإذا مثل الظلّة فيها أمثال المصابيح ، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال : إقرأ ياابن حضير ، إقرأ ياابن حضير قال : أشفقت يارسول الله أن تطأ يحيى - وكان منها قريباً - فانصرفت إليه ورفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها . قال : وتدري ما ذاك ؟ قال لا والله قال : تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى عنهم » لاحظ أن أسيداً رأى ، ثم لاحظ قوله عليه السلام « تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى عنهم » من هذا النص نرى إمكانية الكشف ، ووقوعه للصحابة ، وكيف أن قراءة القرآن طريق من طرق الكشف . ونجد في حياة الصحابة أكثر من نص يتحدث عن رؤية بعض الصحابة للجن ، مع أن الجن من عالم الغيب وسنرى في سلسلة (الأساس في المنهج) أدلة كثيرة عليه ، ونصوصاً كثيرة فيه ، ونماذج كثيرة منه في حياة أصحاب رسول الله ﷺ من هذه النصوص ندرك إمكانية الكشف وندرك وقوعه للصحابة ، فإذا ما وجدنا ناساً ساروا في التصوف المحرر إلى منتهاه وحدثونا - مع كونهم عدولاً - عن مثل ذلك ، فلا تستغرب أصل وقوعه بل نستدل بذلك على صحة الطريق ، وههنا أكثر من غلط يقع فيه بعض الصوفية :

أ - إن بعضهم يعتبر الكشف أصلاً زائداً على الكتاب والسنة ؛ يمكن أن تثبت به حقائق غيبية زائدة على ما ذكر في الكتاب والسنة ، وبعضهم يعتبر أن كل ما قاله صوفي في هذا المجال واجب التصديق ، فكأنها نبوة جديدة ، أو كأن غير النبي ﷺ يمكن أن يكون معصوماً ، وفي ذلك من الغلوّ ما فيه .

ب - يربط بعض الصوفية بين تصديق بعض الناس في أمر الكشف وبين التسليم لهم في

كل أمر ، دون التحقق من الحكم الشرعي فيه ، وبالتالي نجد كثيرين من أتباع الشيوخ يتابعون شيوخهم ، وكأن شيوخهم معصومون ، هذا مع أن الكشف قد يؤتاه إنسان استدراجاً ، ثم يختم له بسوء والعياذ بالله ، وفي قصة بلعم التي تحدثت عنها آيات الأعراف ، وما يقوله المفسرون في ذلك ، وما تذكره الروايات الإسرائيلية ما يشير إلى ذلك .

جـ - يربط بعض الصوفية بين الكشف وترك التكليف ، فيرون أن الإنسان متى كشف له شيء من أمر الغيب - وما أكثر ما يتوهمون في هذا الشأن - سقط عنهم التكليف ، فلا صلاة ولا صيام ولا غير ذلك ؛ ويستشهدون على ذلك بقوله تعالى : ﴿ **واعْبُد ربَّك حَتى يَأتيك اليقين** ﴾[1] . وهؤلاء كفار بإجماع الأمة ، إذ اليقين في الآية هو الموت ؛ بدليل أن رسول الله ﷺ بقي يعبد ربه حتى مات . رسول الله ﷺ يعبد ربه حتى الموت وهم لا يعبدون ؟ أبلغوا من اليقين أكثر منه عليه الصلاة والسلام (ألا لعنة الله عليهم) وفي أمثال هؤلاء يقول الجنيد : (وصلوا ولكن إلى سقر) وأخيراً نقول : إن الكشف ممكن ، وهو مما يصادفه السالك إلى الله ، وهو من مظاهر فضل الله وابتلائه ، ولكنا جميعاً مقيدون بالنصوص ، والكشف لا تثبت به عقيدة جديدة ، ولا يزاد به على النصوص ، ولا تتعبد به الأمة ولا تكلف الأمة بتصديق أصحابه ، ولكن لا حرج على من صدق العدول فيه إذا كان تصديقاً لنصوص الكتاب والسنة ، وإنما قلنا : إن الأمة لا تكلف بتصديق أصحابه حتى ولو كانوا صادقين ؛ لأن قلوبهم ليست معصومة في أمر الغيب ، واحتمال التوهم قائم ، ولأن الكشف قد يكون امتحاناً لإنسان أو للناس ، فيزل فيه صاحبه أو غيره . بهذه القيود كلها ندرك محل الكشف في شريعة الله عز وجل ، ونستطيع على ضوئها أن نقرأ في كتب الصوفية ، وإذا ما صادفنا كلام عن كشف عرفنا حدود الأخذ والرد ، ولنتذكر ما قلناه في الابتداء ، من كون السالك ليس همه الكشف وغيره مما يمكن أن يصادف السالك أثناء سيره الذي لا نهاية له ، وإنما همه الآخرة ، ومراده وجه الله . أخرج الترمذي عن أنس رفعه إلى رسول الله ﷺ قال : « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهي راغمة ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له » وزاد في رواية « فلا يمسي إلا فقيراً ولا يصبح إلا

---

(١) الحجر : ٩٩ .

فقيراً ، وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه بالود والرحمة وكان الله بكل خير إليه أسرع » وبمناسبة الكلام عن الكشف نقول : إن أدب السالك إلى الله ألا يتطلع إليه . وفي ذلك يقول ابن عطاء : (تشوّفك إلى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوّفك إلى ما حجب عنك من الغيوب) ومن آداب السالكين إلى الله ، ومن آداب الشيوخ والعارفين : أنه إذا كشف لأحد من عيوب الناس شيء أن يستره ، وألا يتكلم به ، وأن يكون خلقه الرحمة ، مع محاولة التطبيب والعلاج وأخذ الحذر ، فالمكاشف لا تثبت بكشفه حجة في حق الغير من الناحية الشرعية ، وحتى كشفه في حق نفسه يبقى محل تهمة ، لأنه يخشى أن يكون فتنة له من الله عز وجل . يقول ابن عطاء : (ربما أطلعك على غيب ملكوته وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد . من أطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلهية كان اطلاعه فتنة عليه وسبباً لجر الوبال إليه) ولننتقل إلى شيء آخر يمكن أن يصادفه السالك وهو الإلهام :

٢ - الإلهام : لندرس بعض ما قاله رسول الله ﷺ في عمر بن الخطاب ، وما قاله بعض الناس في شأن عمر رضي الله عنه ؛ لنرى من خلال ذلك ظاهرة يمكن أن توجد عند المسلم . يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه الشيخان : « لقد كان فيمن كان قبلكم ناس محدّثون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر » قال السيوطي في تفسير (محدّثون) أي ملهمون . وأخرج أحمد والبزار عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » وأخرج ابن عساكر عن طارق بن شهاب قال : « إن كان الرجل ليحدث عمر بالحديث فيكذبه الكذبة فيقول : إحبس هذه ثم يحدثه بالحديث فيقول : إحبس هذه فيقول له : كل حديثي حق إلا ما أمرتني أن أحبسه » . من هذه النقول ندرك أن شيئاً غيبياً يمكن أن يقع في قلب المسلم يكون معلماً وموجهاً ومذكراً ، هذا الشيء هو الإلهام .

إن ظاهرة الإلهام في المجتمع الإسلامي ، وفي قلب المسلم ، ظاهرة ممكنة الوقوع شرعاً ، وقد حدثت لكثير من هذه الأمة بل كثيراً ما يصادفها كل مسلم في نفسه أو فيمن حوله ، إن كان له شيء من سير قلبي إلى الله عز وجل . إذا اتضح هذا الأصل بشكل مبدئي نقول : إن القلب الإيماني يشبه في أحد جوانبه جهاز الاستقبال لأنواع من الموجات ، فهو يستقبل خواطر شيطانية ، كما أنه يستقبل واردات ربانية ، أو هواجس نفسية ، وهي قضية لها

أدلتها من النصوص ، ولها أدلتها من الإحساسات البشرية ، وتختلط على أكثر الخلق ، ولا يدرك أسرارها إلا القليل ، إنك تجد حتى الكافرين تحدثوا عن عالم النفس فتحدثوا عن شعور ولا شعور ، وتحدثوا كيف تطفوا قضايا من اللاشعور إلى الشعور ، وتحدثوا عن تداعي أفكار ، وتحدثوا عن حدس وعن ظن وعن إلهام وضمير وتأنيب ضمير ، وكل ذلك تحدثوا عنه كأثر من آثار التأمل الباطني لاستكشاف عالم النفس . وهي قضية ما خرجوا عن كونهم فيها مسجلين لإحساسات معينة لدى أنفسهم ، أو أنفس آخرين ، ونحن المسلمين نقبل الملاحظة ، ونشترك مع الناس في تسجيلها ، ولكن شتان بين كثير من تعليلاتنا وتعليلات الآخرين ، فتعليلاتنا علم خالص ، وتعليل الآخرين ظن خالص ، ثم إن غير المسلمين يقفون دائماً عند حدود لا يتجاوزونها فمثلاً : لا يستطيع الكافر أن يسجل شيئاً عن ظاهرة القلب الإيماني ، والاحساسات القلبية التي يحسها المسلم ويستطيع تسجيلها . ومن ثم فآفاق والإحساس القلبي الغيبي خاصة بالمسلم ، وعنده النصوص القطعية التي يستطيع بها أن يطمئن ، إلى أن إحساساته صحيحة إذ أن النصوص الربانية تبين له حقائق عالم النفس والقلب والعقل ، وما يمكن أن يحدث فيها ولها ، فإذا ما أحس بمعنى ووجد النص يتحدث عنه أدرك المطابقة بين الحقيقتين الكبيرتين : حقيقة الصدق في النص ، وحقيقة حاله الذي هو فيه ، وبشكل عام فالقلب يستقبل أربعة أنواع من الإيحاءات :

أ ـ الإيحاء الشيطاني : قال تعالى : ﴿ **شَياطِينَ الإنسِ والجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُم إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً** ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ **ألم تَر أنَّا أرْسَلنا الشَّياطِينَ على الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُم أزّاً** ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ **الشيطانُ يَعِدُكُم الفَقْرَ** ﴾[3] .

ب ـ الإيحاء النفسي : قال تعالى : ﴿ **إنَّ النفسَ لأمَّارةٌ بالسُّوءِ** ﴾[4] . وقال تعالى : ﴿ **ولا أُقسِمُ بِالنَّفْسِ اللوّامة** ﴾[5] .

جـ ـ الخاطر الملكي : قال عليه الصلاة والصلام : « في القلب لمتان لمة من الملك إيعاد بالخير وتصديق للحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله ، ولمة من العدو

(١) سورة الأنعام : ١١٢ .
(٢) سورة مريم : ٨٣ .
(٣) سورة البقرة : ٢٦٨ .
(٤) يوسف : ٥٣ .
(٥) القيامة : ٢ .

إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم »[١] .

د ـ الإلهام الرباني : قال تعالى : ﴿ والذينَ جَاهَدوا فِينا لَنَهْدِينَّهم سُبُلَنَا ﴾[٢] . وقال تعالى : ﴿ والذينَ اهْتَدوا زادَهُم هُدىً وَآتَاهُم تَقْواهم ﴾[٣] . ويسمي العلماء الإيحاء الشيطاني وسوسة ، الإيحاء النفسي هاجساً ، ويسمون إلقاء الملك في القلب خاطراً ، ويسمّون الإلقاء الرباني وارداً أو إلهاماً وهذه قضايا محسة مذاقة عند من كان له قلب ، وأن يكون للإنسان قلب يحس به ، وقلب لا يحس به ، فهذا مما تحدث عنه القرآن . قال تعالى : ﴿ إن في ذَلك لَذِكرى لمن كانَ لَه قَلْب ... ﴾[٤] . وحدد الله مكان هذا القلب في الصدر حتى لا يشتط بالإنسان فكره فقال : ﴿ ولكِن تَعْمى القُلوبُ التي في الصدور ﴾[٥] فمن كان له قلب يحس بالإلقاءات المتنوعة ويعرفها ويميز فيما بينها وقد جعل بعضهم علامات لكل نوع من أنواع الإلقاءات ليجتمع العلم والذوق للإنسان ؛ فيميز بين أنواع هذه الإلقاءات ، ولقد فصل في ذلك الشيخ أحمد الزروق في كتابه (قواعد التصوف) فذكر أن من علامات الخاطر الشيطاني سرعته ، وضيق القلب به ، وزواله بالذكر ، وأن الهاجس النفسي كثير الإلحاح . وأن الخاطر الملكي يتمكن بالذكر ، وتصحبه برودة في القلب ، وأن الوارد الرباني يكون في شأن التوحيد ، وذكر دقائق في هذا المقام يحسن أن تراجع .

إذا اتضح هذا كله ندرك كيف أن المسلم الحي القلب يحس بقلبه ، ويحس بمجموعة التيارات التي تهب على هذا القلب ، فبينما يحس الكافر بقضية النفس وخواطرها ، ويتابع إلقاءات الشياطين ، نجد المسلم يحس بأشياء كثيرة أخرى ؛ لأن له آلة استقبال غير معطلة ، هذه الآلة فيها حياة ولها خصائص . ومن ثم ندرك أن كثيراً من الأمور الغيبية هي من حق المسلم محسة مذاقه ، ولكنه إحساس بآلة أخرى غير الحواس الظاهرة ، وذوق بآلة أخرى غير الآلات الظاهرة ، ولذلك فإن المسلم الحق يتلقى توجيهاً مباشراً من عالم الغيب بواسطة الإلهام والخواطر الملكية ، كما تلقى التوجية عن طريق النبوة والوحي المتمثل بالكتاب

---

(١) أخرجه الترمذي وحسّنه النسائي في الكبرى من حديث ابن سعود .

(٢) سورة العنكبوت : ٦٩ .

(٣) سورة محمد : ١٧ .

(٤) ق : ٣٧ .

(٥) الحج : ٤٦ .

والسنـة . فـالمسلم العليم بـالكتـاب والسنـة يتحرك في أمر على ضوئهما ، ويسـدده مـع ذلـك إلقـاءات غيبيـة في قلبـه ، ولكن الإلقـاءات التي تقـذف في قلب العبـد المـؤمن ليست فقـط الإلقاءات الربانية ، والإلقاءات الملكية ، بل هناك إلقاءات نفسانيـة وإلقـاءات شيطـانيـة . والقلوب ماعدا قلوب الأنبياء غير معصومة ، ولا تستطيع ـ دائماً ـ التمييز ، ولذلك فإن المسلم مكلف بالنص المعصوم ، وعليه أن يزن كل مـا يرد إلى قلبـه بميزان النص المعصوم . قـال أبو سليمان الداراني : (ربما وقعت النكتة من كلام القوم في قلبي فلا أقبلهـا إلا بشـاهـدي عـدل من الكتاب والسنة لأن الله عز وجل ضمن لي العصمة في الكتـاب والسنـة ولم يضمنهـا لي فيما سوى ذلك) لنفرض أن المسلم وصل إلى حالـة أصبح بـإمكان قلبـه أن يميز بين الإلقـاءات ، لكن احتمال الغلط يبقى وارداً ، واحتمال الفتنة الربانية للقلب يبقى وارداً من بـاب الابتلاء والامتحـان ليبقى المـؤمن ملتزمـاً بـالنص ، ومتحركاً على ضـوء العلم ، ومن ثم نجـد الكتـاب والسنة يحدثاننا عن قضية امتحان القلب ، فكما أن الجسد يمتحن فكذلك القلب يمتحن . قال تعـالى : ﴿ **أولئـكَ الـذِينَ امْتَحنَ اللهُ قُلُوبَهم لِلتَّقْوَى** ﴾[1] . وقـال عليـه الصلاة والسلام : « تعرض الفتن على القلوب عوداً عوداً فأي قلب أنكرها ... » ومن هذا كله ندرك أنـه لابـد من قلب من نـوع معين ، ولابـد من قلب يرفض الفتن ، ولابـد من ميزان ، والميزان هـو الكتاب والسنة ، والقلب المعين هو القلب السليم الذي يرفض الفتن ولا يقبلها ، والذي وعد بعـد الوصـول أن يحفـظ من الفتن ، ولكن لا يعني أنـه لا يفتن بـل يفتن ، ولكن الفتنـة لا تضره . وبعد هذا الكلام كله أصبح بإمكاننا أن نعرف مواطن الغلط عند بعض الناس .

١ ـ لقد تصور بعض الناس أن بإمكانهم أن يستغنوا من خلال الخاطر والكشف والإلهـام عن دراسة الكتاب والسنة ، وعن العلم بالعقائد والفقه والسير البصير إلى الله وقواعد ذلـك ، وبهذا يكونون قد أفقدوا أنفسهم الميزان ، وحيث لا ميزان فالتقدير خـاطىء . قـال تعـالى : ﴿ **لقدْ أرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينَاتِ وأنزَلْنا مَعَهُم الكِتابَ والميزَانَ لِيَقُومَ النـاسُ بـالقِسْطِ** ﴾[2] . إنه متى أضعنا الميزان وجد الضلال ، قال عليـه الصلاة والسلام : « إني تـارك فيكم شيئين لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما : كتاب الله وسنتي »[3] .

---

(١) الحجرات : ٣ .

(٢) سورة الحديد : ٢٥ .

(٣) رواه الحاكم بلفظ (تركت ...) ورواه غيره .

٢ ـ لقد تصور بعض الناس أنه يمكن أن تصل بعض القلوب إلى العصمة فاعتبروا كل ما يلقى فيها وكأنه وحي منزل ، وبذلك جعلوا قلوب الأولياء كقلوب الأنبياء ، وهذا كفر وضلال ؛ فالله عز وجل تعبد الخلق برسالة محمد ﷺ فكيف نجعل على قدم المساواة ما يلقي به في بعض القلوب بما ألقى في قلب محمد ﷺ ؟ قال تعالى : ﴿ وإنّهُ لَتنزيلُ رَبِّ العالمينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمينُ على قَلْبِكَ ﴾[1] . فأين ذلك القلب وذلك الوحي من قلوب أخرى وإلقاءات أخرى مختلطة ؟ ومهما ادعى المدعون أن قلباً يرقى إلى حيث يدرك ما يلقى فيه فإن أحداً ـ من غير الأنبياء ـ لا يجوز أن يدعي عصمة قلبه وإلا فإنه يكفر .

٣ ـ إنطلق كثير من الناس بلا ميزان ، ويتصور أن قلوب الشيوخ معصومة فضلوا وأضلوا . قال لي بعضهم على لسان كبير من الصوفية : (بقرآني بآياتي لو أمرني الشيخ أن أسجد للات لسجدت) فيا ويلاه من مثل هذا . هل يجوز لمسلم أن يعتقد أن ما أمره الشيخ به يجوز له تنفيذه ولو كان كفراً ؟ أليس هذا هو عين ما فعله النصارى ﴿ اتّخذُوا أحْبَارَهُم ورُهبَانَهُم أرْباباً مِن دُون الله ﴾[2] وذلك كما فسرها رسول الله ﷺ بأن أحلوا لهم الحرام ، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم . ويدافع بعض الناس عن أمثال هؤلاء بأن هذا يريد كذا ، وأن الشيخ يستحيل أن يأمره إلا بخير ونقول : هل هناك شك بأن السجود للات والعزى شرك ؟ فكيف يعلن عن استعداده للطاعة حتى في مثل هذا ؟ إن مجرد الإعلان عن الاستعداد للطاعة في مثل هذا كفر ، فلا يضلنك ياأخي عن الطريق المبصر تأويلات الجاهلين ، ولقد كان شيخنا محمد الحامد ـ رحمه الله ـ يتمثل بهذا البيت :

خلّ عنك الأوهام ياأم عمرو ودعينا من طيشك المعهود

وهذا وباختصار رأينا ما يمكن أن يصادفه السالك من إلهامات وخواطر ، ورأينا حدود ذلك ، وجوانب الخطأ التي وقع فيها بعض الصوفية في هذا المقام .

وبمناسبة الكلام عن الخواطر والإلهامات نقول : إنه لا شيء يساعد السالك على التمييز بين الخواطر والهواجس وغيرها مثل أكل الحلال والورع فيه فقد قالوا : (من عرف ما يدخل في جوفه عرف ما يهجس في نفسه) وقضية أكل الحلال والورع في شأن الكسب

(١) سورة الشعراء : ١٩٢، ١٩٣ .

(٢) التوبة : ٣١ .

تعتبر من بديهيـات الإسلام في حق كل مسلم ، فضلاً عن سـائر في طريق الولايـة العظمى ، ولذلك لم نتكلم عنها كثيراً في هذا الكتـاب ، لأن البحث المفصل فيهـا ، والطريق للتـدقيق في شأنها محله كتب الفقه . على أن الغزالي في المجلد الثاني من الإحياء عقـد لـذلـك بحثاً هو من أحلى وأعذب وأجود ما يقرأ في بابه ، ولننتقل إلى قضيـة أخرى تعرض للسـالكين وهي قضية الأحلام والرؤى :

٣ - الرؤى والأحـلام : للرؤى والأحـلام في الحيـاة البشريـة دور كبير ، وقـد كان هـذا الدور كبيراً في كل العصور ، وفي عصرنا بالذات أصبح للرؤيا تفسيرات متعددة ، وأصحـاب هـذه التفسيرات لهم اتجـاهـات شتى ، والمـاديـون - بشكل عـام - يعتبرون الأحـلام والرؤى المناميـة من بـاب هواجس النفس ، وتبـداعي الأفكار ، ولكن هـذا لا يفسر كل أنواع الرؤى التي يراهـا أصنـاف من النـاس ، ومن ثم كان كـلامهم يـدور حـول نـوع واحـد من أنـواع الرؤى ، وقـد كان المسلمون هم السـابقين بفضل الوحي إلى تصنيف الرؤى إلى أنواع ثـلاثـة : الرؤى التي هي أثر عن هـواجس النفس ، وتـــداعي الأفكار ، وهي التي تسمى الرؤى النفسية ، والرؤى التي يتدخل فيها الشيطان بأن يتسلـط في نوم الإنسـان على محل تـداعي الفكر منه ، فيلقي إليه ما يلقي فتتوجـه رؤاه نتيجـة لـذاك ، بهـذه الإلقـاءات وهـذه هي الرؤيا الشيطانية ، ثم يأتي النوع الثالث من الرؤى ، وهي الرؤى الروحية الربانية ، وهـذا النوع من الرؤى شيء مهم جداً ؛ لأنه يكون مبشراً أو منذراً أو مخبراً أو محذراً إلى غير ذلـك من معان هي في الذروة من توجيه الإنسان ، والتأثير في سلوكـه ، أو في توجهـاتـه ، ولقـد استطاع علماء المسلمين من خلال ما قصه الله عز وجل علينـا في القرآن من رؤى وتفسيراتها كرؤيا يوسف - عليه السلام - ورؤيـا العزيز ، ورؤيـا إبراهيم - عليـه السلام - ومن خلال الرؤى التي رآهـا رسـول الله ﷺ وفسرهـا ، أو رآهـا أصحـابـه وفسرهـا لهم عليـه الصلاة والسلام ، أو من خلال القـواعـد المستنبطـة والاستقراءات الـواسعـة أن يكتبـوا في مـوضـوع الرؤى أدق الكتب العلمية ، وأن يضعوا القواعد التي بها تعرف ما إذا كانت الرؤيا شيطانيـة أو نفسانية أو ربانية ، ثم ماذا تعني رموز الرؤى الربانيـة ، لأن الغـالب في الرؤى أن تكون رمزية ، كما نرى هذا واضحاً في سورة يوسف سواء في ذلك رؤيا يوسف نفسه عليه السلام ، أو رؤيا العزيز . والسالكون إلى عز وجل ، والسائرون إليـه ، والمقبلون عليـه ، حظهم من الرؤى المبشرة كبير ، وفي الحديث الذي أخرجه مالـك والبخـاري وأبو داود « لم يبق بعـدي

من النبوة إلا المبشرات قالوا : وما المبشرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة » فالروح كلما شفت انطبع فيها أثناء النوم من عالم الغيب بعض هذه المعاني ، ذات المغزى الكبير ، والتي لها دورها الكبير في توجيه الإنسان ، ولو أننا تأملنا هذا الحديث الصحيح « رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة »[١] . ولو تأملنا هذا الحديث لأدركنا أهمية الرؤيا بالنسبة للمسلم ، وإذا عرفنا أن الرسول ﷺ كان يسأل أصحابه يومياً تقريباً عما إذا كان أحدهم رأى رؤيا ، إذا عرفنا هذا أدركنا جهل الذين لا يعطون للرؤيا أهمية . ولكن إذا كان للرؤيا مثل هذه الأهمية فلا شك أن التمييز بين أنواع الرؤى مهم ، وأن الهجوم على تعبير الرؤى ممن لا يتقن ذلك خطأ كبير ؛ لما يترتب عليه من مفاسد كثيرة ؛ إذ أكثر الرؤى تأتي بثوب رمزي ، فظاهرها شيء ، وتأويلها شيء آخر ، وأحياناً يكون ظاهرها مخيفاً ، وتأويلها مبشراً ، والتأويل الخاطىء في غاية الخطورة ، وكل ذلك يقتضي علماً في تعبير الرؤى ، وتأنياً في التعبير إذ تفسير الرؤيا في كثير من الأحوال يشبه الفتوى ، في كون المسألة قد تكون مرتبطة بعدة أبواب ، ولكل رؤيا مفاتيحها ، وقد يكون مفتاحها في اسم أو في إشارة خفية ، ومن القواعد الرئيسية أن الرؤيا في حق الأنبياء وحي ، ولذلك يبنون عليها الأحكام فهذا سيدنا إبراهيم بنى على رؤياه فقرر ذبح إسماعيل عليهما السلام ، ولكنها في حق غير الأنبياء ليست وحياً . فالرؤى في حق غير الأنبياء يمكن أن تكون نفسية أو شيطانية أو ربانية ، فهي مختلطة وحتى الرؤيا الربانية تأتي في كثير من الأحيان بشكل رموز ، وقد يخطىء المعبر ولأمر ما استعمل القرآن لفظة الظن في تعبير الرؤيا ، قال تعالى على لسان يوسف ـ عليه السلام ـ : ﴿ **وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا** ﴾[٢] . فمع أن يوسف عليه السلام كان يعبر بإلهام رباني ، ومع ذلك أشعرتنا الآية أن التعبير يبقى للظن فيه نصيب ، هذا مع ملاحظة أن ظن في اللغة تأتي أحياناً بمعنى تيقن ، وعليها تحمل الآية ، ومن ثم فإجماع المسلمين متفق على أن الرؤيا في حق غير الأنبياء لا يجوز أن تكون مصدر تشريع ، حتى قالوا لو أن الإنسان رأى رسول الله ﷺ في المنام ، وهو الذي لا يمكن أن يتمثل الشيطان بصورته فأمره أمراً يخالف الشريعة ، فإننا نقول له : إنك واهم ويحرم عليه أن يبني على رؤياه ، فكيف فيما سوى ذلك من الرؤيا ، والذي حدث

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي .

(٢) سورة يوسف : ٤٢ .

في شأن الرؤيا عند بعض الناس أنهم :

١ - يبنون على الرؤى مواقف تناقض شريعة الله عز وجل ، وتناقض أحكام الله ، فما أكثر ما بنى صوفي أو غيره على رؤيا ، فاتخذ موقفاً ؛ كأن يعطي ولاءه لكافر بناء على رؤيا فأين النصوص ...!

٢ - ربما يوجه الشيخ رؤيا المريد في اتجاه لا يخدم حتى مصلحة المريد الأخروية ، وبما لا يتفق مع أصول تعبير الرؤيا .

٣ - كثيراً ما حدث أن قام بعض الشيوخ بناءً على رؤى أعمالاً هي من باب البدع عند الفقهاء .

٤ - كثيراً ما كانت الرؤى سبباً في إعطاء حجم لأمور ، أو إعطاء صفة لم يعطها الشارع ، كأن نجد شيخاً يعتبر العمل الفلاني أعظم عند الله من عمل آخر ، بينما النصوص على خلاف ذلك . وهكذا نجد أن الرؤى التي يصادفها السالكون إلى الله ، كما يصادفها غيرهم ، كانت في كثير من الأحيان سبباً في خطأ شرعي ، فأبدلت النعمة بذلك ، فصارت بسبب الجهل إما طريقاً للكفر ، أو مَعْبراً لخطأ شرعي أو لضلال .

هذه نماذج ثلاثة ذكرناها في هذا الباب مما يمكن أن يصادفه السالك إلى الله ، وكيف يمكن أن تؤدي بسبب الجهل أو الخطأ أو غير ذلك إلى انحرافات ، ولذلك أردنا أن نبين حدود هذه الأمور . ولننتقل إلى قضية أخرى تصادف السالك إلى الله ، وللناس في شأنها أغلاط كثيرة ، وتقوم بسببها توهمات كثيرة ، وهي قضية الكرامات .

٤ - الكرامات : عقد الشيخ النووي رحمه الله في كتاب رياض الصالحين باباً ذكر فيه بعض الكرامات فلنر ما ذكره الشيخ قال : باب كرامات الأولياء وفضلهم :

في كرامات الأولياء وفضلهم :

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ، لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[1] .

(١) سورة يونس : ٦٢ - ٦٤ .

وَقَـالَ تَعَـالَى[1] : ﴿ كُلَّمَـا دَخَـلَ عَلَيْهَـا زَكَرِيَّـا الْمِحْرَابَ وَجَـدَ عِنْـدَهَـا رِزْقـاً ، قَـالَ : يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذا ؟ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، إنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1] .

وَقَـالَ تَعَـالَى : ﴿ وَإِذِ اعْتَـزَلْتُمُـوهُمْ وَمَـا يَعْبُـدُونَ إلاَّ اللهَ فَـأْوُوا إلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِـــهِ وَيُهَيِّءْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقـــاً * وَتَرَى الشَّمْسَ إذَا طَلَعَتْ تَـزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ ، وَإذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمَالِ ﴾[2] الآيَة .

ـ وعَنْ أَبِي مُحَمَّد عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق رضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ أصْحَاب الصُّفَّـةِ كَانُوا أُنَاساً فُقَراء ، وأَنّ النَّبيَّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَرَّةً : « مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَـامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَالِثٍ ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ أَرْبَعَةٍ فَلْيَـذْهَبْ بِخَـامِسٍ ، بِسَـادِسٍ » أَوْ كَمَـا قَـالَ ، وَأَنّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جَاءَ بِثلاَثَةٍ ، وَانْطَلَقَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعشَرَةٍ ، وَأَنّ أَبَـا بَكْرٍ تَعَشَّى عِنْدَ النبيِّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ثُمَّ لَبِثَ حَتّى صَلّى الْعِشَـاءَ . ثُمَّ رَجَعَ فَجَـاءَ بَعْـدَ مَا مَضَى مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللهُ ، قَـالَتِ امْرَأَتُـهُ : مَـا حَبَسَـكَ عَنْ أَضْيَـافِـكَ ؟ قَـالَ : أَوَ مَـا عَشَيّتهِمْ ؟ قَـالَتْ : أَبَوْا حَتّى تَجِيءَ وَقَـدْ عَرَضُـوا عَلَيْهِمْ . قَـالَ : فَـذَهَبتُ أَنَـا فَـاخْتَبَـأْتُ ، فَقَالَ : يَاغُنْثَرُ ، فَجَدَّعَ وَسَبَّ ، وقَالَ : كُلُوا لاَ هَنِيئاً وَاللهِ لاَ أَطْعَمُهُ أَبَـداً . قَـالَ : وَايْمُ اللهِ مَا كُنّا نَأخُذُ مِنْ لُقْمَةٍ إلاّ رَبَـا مِنْ أَسْفَلِهَـا أَكْثَرُ مِنْهَـا حَتّى شَبِعُوا وَصَـارَتْ أَكْثَرَ مِمّـا كَانَتْ قَبْلَ ذلكَ ، فَنَظَرَ إلَيْهَا أَبُـو بكْرٍ فَقَـالَ لامْرَأَتِـهِ : يَـاأُخْتَ بَنِي فِرَاس مَـا هَـذَا ؟ قَـالَتْ : لاَ وَقُرّةِ عَيْنِي لَهِيَ الآنَ أَكْثَرُ مِنْهَا قَبْلَ ذَلِكَ بِثَلاثِ مَراتٍ ! فأَكَلَ مِنْهَـا أَبُو بَكْرٍ وقَـالَ : إنّمَـا كانَ ذلكَ مِنَ الشّيْطَانِ (يَعْني يَمينهُ) ثُمَ أَكَلَ مِنْهَا لُقْمَةً ثمَّ حَمَلَهَا إلَى النّبيِّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم فَأَصْبَحَتْ عِنْدَهُ ، وَكَـانَ بَيْنَنَـا وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْـدٌ فَمَضَى الأجَلُ فَتَفَرَّقْنَـا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً مَعْ كُلِّ رَجُلٍ منهُمْ أُنَـاسٌ اللهُ أَعْلَمُ كَمْ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ ، فـأَكَلُـوا مِنْهَـا أَجْمَعُـون وفي رِوَايَـة : فَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ لاَ يَطْعَمُـهُ ، فَحَلَفَتِ الْمَرْأَةُ لاَ تَطْعَمُـهُ ، فَحَلَفَ الضّيْفُ أو الأَضْيَـافُ أَنّ لاَ يَطْعَمهُ أَوْ يَطْعَمُوهُ حَتّى يَطْعَمَهُ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : هذِهِ مِنَ الشّيْطان ! فَدَعَا بالطَعَامِ فَأَكَلَ وَأَكَلُوا ، فَجَعَلُوا لاَ يَـرفَعُـونَ لُقْمَـةً إلاّ رَبَتْ من أَسْفَلِهـا أَكْثَر مِنْهَـا ، فَقَـالَ : يَـا أُخْتَ بَنِي فِراس مَا هَذَا ؟ ! قَالت : وَقُرّةِ عَيْنِي إنّهَـا الآنَ لأَكْثَرُ مِنْهَـا قَبْلَ أَنْ نَـأْكُلَ ، فـأَكَلُوا وَبَعَثَ بِهَا إلَى النّبيِّ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وسلّم فَذكَر أَنّهُ أَكَلَ مِنْهَا . وفِي رواية : أَنّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ لعَبْدِ

---

(١) سورة آل عمران آية ٣٧ .

(٢) الكهف : ١٦ ، ١٧ .

الرَّحْمَن : دُونَكَ أَضْيَافَكَ فَإِنّي مَنْطَلِقٌ إِلَى النّبيِّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم فَافْرُغْ مِنْ قِرَاهُمْ قَبْلَ أَنْ أَجيءَ ، فَانْطَلَقَ عَبْدُ الرَّحْمنِ فَـأَتَـاهُمْ بِمَـا عِنْـدَهُ ، فَقَـالَ : اطْعَمُوا . فَقَـالُوا : أَيْنَ رَبُّ مَنْزِلِنَا ؟ قَالَ : اطْعَموا . قَالُوا : مَا نَحْنُ بِآكِلِينَ حَتّى يَجيء رَبُّ مَنْزِلِنَا ، قَالَ : اقْبَلُوا عَنّا قِرَاكُمْ فَـإِنّـهُ إِنْ جَـاءَ وَلَمْ تَطْعَمُوا لَنَلْقَيَنَّ مِنْـهُ ، فَـأَبَـوْا فَعَرَفْتُ أَنّـهُ يَجِـدُ عَلَيَّ ، فَلَمّـا جَـاءَ تَنَحّيْتُ عَنْهُ ، فَقَالَ : مَا صَنَعْتُمْ ؟ فَأَخْبَرُوهُ ، فَقَال : يَـاعَبْـدَ الرَّحْمنِ ، فَسَكَتُّ ، ثُمَّ قَـالَ : يَاعَبْدَ الرَّحمن ، فَسَكَتُّ ، فَقَالَ : يَـاغُنْثَرُ أَقْسَمْتُ عَلَيْـكَ إِنْ كُنْتَ تَسْمعُ صَوْتِي لَمَـا جِئْتَ ، فَخَرَجْتُ فَقُلتُ : سَلْ أَضْيَافَكَ ، فقالوا : صَدَقَ ، أَتَانَا بِهِ ، فَقَالَ : إِنَّمَـا انْتَظَرْتُمُونِي وَاللهِ لاَ أَطْعمهُ اللَّيْلَةَ ، فَقَـالَ الآخَرُونَ : وَاللهِ لاَ نَطْعَمَـهُ حتّى تطعمـه ، قَـالَ : وَيْلَكُمْ مَـا لَكُمْ لاَ تَقْبَلُونَ عَنّـا قِرَاكُمْ ؟ هَـاتِ طَعـامـك فَجَـاءَ بـه فَـوَضَـعَ يَـدَهُ فَقَـالَ : بِسْمِ اللهِ ، الأُولَى مِنَ الشّيْطان فَأَكَلَ وَأَكَلُوا . مُتّفَقٌ عَلَيهِ . قَوْلُهُ « غُنْثَرُ » بغينٍ معجمعةٍ مضمومةٍ ثمَّ نُونٍ ساكِنَـةٍ ثم ثَـاءٍ مثلثَـةٍ وهو : الْغَبِيُّ الْجَـاهِلُ . وقَوْلـهُ « فَجَـدَّعَ » أيْ شَتَمَـهُ وَالْجَـدْع : الْقَطْعُ . قولـهُ : « يَجِدُ عَلَيَّ » هو بِكسر الجيم : أيْ يَغْضَبُ .

ـ وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه قَـالَ رَسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَلَيْـهِ وسلّم : « لَقَـدْ كَانَ فِيما قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ ناسٌ مُحدَّثون فَـإِنْ يَكُنْ فِي أُمّتي أَحَـدٌ فَـإِنّـهُ عُمَرُ » رَوَاهُ الْبُخَـارِيُّ . وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِن روايةِ عائشة . وفِي روايتِها قالَ ابْنُ وَهْب : « محدثون » أيْ مُلْهَمُونَ .

ـ وعن جَـابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهما قَـالَ : شَكَـا أَهْلُ الْكُوفَـةِ سَعْـداً (يَعْنِي ابْنَ أَبِي وقّاصٍ) رَضِيَ اللهُ عنهُ إِلَى عُمَرَبْنِ الْخَطابِ رَضِيَ اللهُ عنـه فَـاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ عَمّـاراً ، فَشَكَوْا حَتّى ذَكَرُوا أنهُ لاَ يُحْسِنُ يُصَلي ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ : ياأَبَا إِسْحَـاقَ إِنَّ هؤُلاءِ يَزْعُمُونَ أَنّـكَ لاَ تُحْسِنُ تُصَلي ، فَقَالَ : أَمّا أَنَا وَاللهِ فَـإِني كُنْتُ أُصَلّي بِهِمْ صَلاَةَ رَسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عَليـهِ وسلّم لاَ أَخْرِمُ عَنْهَا : أُصَلّي صَلاَتَي الْعِشَاء فَأَرْكُدُ فِي الأوْلَيَيْن وَأُخِفُّ فِي الأخْرَيَيْنِ ، قَالَ : ذلكَ الظَنُّ بكَ يَـاأَبَـا إِسْحَـاقَ ، وَأَرْسَلَ مَعَـهُ رَجُلاً أَوْ رِجَـالاً إِلَى الْكُوفَـةِ يَسْـأَلُ عَنْـهُ أَهْلَ الْكُوفَةِ ، فَلَمْ يَدَعْ مَسْجِداً إِلاّ سَـأَلَ عَنْـهُ وَيُثْنُونَ مَعْرُوفـاً ، حَتّى دَخَلَ مَسْجِـداً لِبَنِي عَبْسٍ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ أُسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ يُكْنَى أَبَا سَعْدَةَ ، فَقَالَ : أَمّا إِذْ نَشَدْتَنَا فَـإِنّ سَعْـداً كانَ لاَ يَسِيرُ بالسّرِيّةِ ، وَلاَ يَقْسِمُ بِالسّوِيّةَ ، وَلاَ يَعْدِلُ فِي الْقَضِيّة . قَالَ سَعْـدٌ : أَمَـا وَاللهِ لأَدْعُوَنَّ بِثَلاثٍ : اللّهُمّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ هذَا كاذِباً قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً ، فَأَطِلْ عُمُرَهُ ، وَأَطِلْ فَقْرَهُ وَعَرِّضْـهُ

للفتَنِ ! وكانَ بَعْدَ ذلِكَ إذَا سُئِلَ يَقُولُ : شَيْخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ . قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرِ الرَّاوي عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ : فَأَنَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِن الكِبرِ ، وَإِنَّهُ لَيَتَعَرَّضُ لِلْجِوَارِي فِي الطُّرُقِ فَيَغْمِزُهُنَّ . مُتَفَقٌ عليهِ .

ـ وعن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ سَعِيدَ بْنِ عَمْرِو بْن نُفَيل رَضِيَ اللهُ عنه خَاصَمَتْهُ أَرْوَى بِنْتُ أَوْسٍ إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمَ وَادَّعَتْ أَنَّهُ أَخَذَ شَيْئاً مِنْ أَرضهَا ، فقَالَ سَعِيدٌ : أَنَا كُنْتُ آخُذُ مِنْ أَرْضِهَا شَيْئاً بَعْدَ الّذي سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم ! قَالَ : مَاذَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم ؟ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّم يَقُولُ : « مَنْ أَخَذَ شِبْراً مِنْ الأَرْض ظُلْماً طُوِّقَهُ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ » فَقَالَ لَـهُ مَرْوَانُ : لاَ أَسْأَلُكَ بَيِّنَةً بَعْدَ هذَا ، فَقَالَ سَعِيدٌ : اللّهُمَّ إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً فَأَعْمِ بَصَرَهَا ، وَاقْتُلْهَا فِي أَرْضِهَا ، قَالَ : فَمَا مَاتَتْ حَتّى ذَهَبَ بَصَرُهَا ، وَبَيْنَمَا هِيَ تَمْشِي فِي أَرْضِهَا إِذْ وَقَعَتْ فِي حُفْرَةٍ فَمَاتَتْ . مُتَفَقٌ عَلَيْهِ . وفِي رِوَايَةٍ لِمُسلمٍ عَنْ مُحَمّد بْن زَيْدِ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ بِمَعْنَاهُ ، وَأَنّهُ رَآهَا تَلْتَمِسُ الْجُدُرَ تَقُولُ : أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعِيدٍ ، وَأَنّهَا مَرّتْ عَلَى بِئْرٍ فِي الدارِ التِي خَاصَمَتْهُ فِيهَا فَوَقَعَتْ فيهَا فَكَانَتْ قَبْرَهَا .

ـ وعَنْ جَابرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهمَا قَالَ : لَمّا حَضَرَت أُحُدٌ دَعَانِي أَبِي مِنَ اللّيْلِ فَقَالَ : مَا أَرَانِي إلاّ مَقتُولاً فِي أَوّل مَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَصْحَابِ النّبِيِّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم ، وَإِنِي لاَ أَتْرُكُ بَعْدِي أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْكَ غَيْرَ نَفْسِ رَسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم ، وَإِنَّ عَلَيَّ دَيْناً فاقْضِ وَاسْتَوص بأخواتكَ خَيْراً ، فأَصْبَحْنَا فَكَانَ أَوّلَ قَتِيلٍ . وَدَفَنْتُ مَعَهُ آخَرَ فِي قَبْرِهِ ، ثُمَّ لَمْ تَطِبْ نَفْسِي أَنْ أَتْرُكَهُ مَعَ آخرَ فاسْتخرجْتُهُ بَعْدَ سِتّةِ أَشْهُرٍ فَإِذَا هُوَ كَيَوْمَ وَضَعْتُهُ غَيْرَ أُذُنِهِ فَجَعَلْتُهُ فِي قَبْرٍ عَلىَ حِدَةٍ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ .

ـ وعَنْ أَنَس رَضِيَ اللهُ عنه أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ النّبِيِّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النّبِيِّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ وَمَعَهُمَا مِثْلُ الْمِصْبَاحَيْن بَيْنَ أَيْدِيهِمَا ، فَلَمّا افْتَرَقَا صَارَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَاحِدٌ حتّى أَتى أَهْلَهُ رَوَاهُ الْبُخَارِي مِنْ طُرُقٍ . وَفِي بَعْضِهَا أَنّ الرَّجُلَيْنِ أُسيْدُ ابْنُ حُضَيْرٍ ، وَعَبّادُ بْنُ بِشْرٍ ، رَضِيَ اللهُ عنهمَا .

ـ وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه قَالَ : بَعَثَ رَسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم عَشَرَةَ رَهْطٍ عَيْناً ، وَأَمّرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بن ثَابتِ الأنْصَارِيَّ رَضِيَ اللهُ عنه فانْطَلَقُوا حَتّى إذَا كَانوا بِالْهَدَاةِ

بَيْنَ عُسْفَانَ وَمَكَّةَ ، ذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هُذَيْلٍ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو لَحْيَانَ فَنَفَرُوا لَهُمْ بِقَرِيبٍ مِنْ مِائَةِ رَجُلٍ رَامٍ فاقْتَصوا آثَارَهُمْ ، فَلَمَّا أَحَسَّ بِهِمْ عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ لَجَأُوا إِلَى مَوْضِعٍ فَأَحَاطَ بِهِمُ الْقَوْمُ ، فَقَالُوا : انْزِلُوا فأعْطُوا بِأَيْدِيكُمْ وَلَكُمُ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ أَنْ لاَ نَقْتُلَ مِنْكُم أَحَداً فَقَالَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ : أَيُّهَا الْقَوْمُ أَمَّا أَنا فَلاَ أَنْزِلُ عَلَى ذِمَّةِ كافِرٍ ، اللهم أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم . فَرَمَوْهُمْ بِالنَّبْلِ فَقَتَلُوا عَاصِماً ، وَنَزَلَ إِلَيْهِمْ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ عَلَى الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ، مِنْهُمْ خُبَيْبٌ ، وَزَيْدُ بْنُ الدَّثِنَةِ ، وَرَجُلٌ آخَرُ ، فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُمْ أَطْلَقُوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ فَرَبَطُوهُمْ ، قالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ : هذَا أَوَّلُ الْغَدْرِ وَاللهِ لاَ أَصْحَبُكُم إِنَّ لِي بِهَؤُلاَءِ أُسْوَةً (يُرِيدُ الْقَتْلَى) فَجَرِوهُ وعالَجوهُ فَأَبَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ فَقَتَلُوهُ ، وَانْطَلَقُوا بِخُبَيْبٍ وَزَيْدِ بْنِ الدَّثِنَةِ حَتَّى بَاعُوهُمَا بِمَكَّةَ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ ، فَابْتَاعَ بَنُو الْحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نَوفَلِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ خُبَيْباً ، وكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الْحَارِثَ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَلَبِثَ خُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أَسيراً حَتَّى أَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِهِ ، فاسْتَعَارَ مِنْ بَعْضِ بَنَاتِ الْحَارِثِ مُوسَى يَسْتَحِدُّ بِهَا فَأَعَارَتْهُ ، فَدَرَجَ بُنَيٌّ لَهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ حَتَّى أَتاهُ فَوَجَدَتْهُ مُجْلِسَهُ عَلَى فَخِذِهِ وَالْمُوسَى بِيَدِهِ فَفَزِعَتْ فَزْعَةً عَرَفَهَا خُبَيْبٌ ، فَقَالَ : أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ ذلكَ . قالتْ : واللهِ مَا رَأَيْتُ أَسيراً خَيْراً مِنْ خُبَيْبٍ ، فَوَاللهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْماً يَأكُلُ قِطْفاً مِنْ عِنَبٍ فِي يَدِهِ وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ بِالْحَدِيدِ وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرَةٍ ، وكَانَتْ تَقُولُ : إِنَّهُ لَرِزْقٌ رَزَقَهُ اللهُ خُبَيْباً ، فَلَمَّا خَرَجُوا بِهِ مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فِي الْحِلِّ قَالَ لَهُمْ خُبَيْبٌ : دَعُونِي أُصَلِّي رَكْعَتَين ، فَتَرَكُوهُ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ فَقَالَ : وَاللهِ لَوْلا أَنْ تَحْسَبُوا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ لَزِدْتُ ، اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَداً ، وَاقْتُلْهُمْ بَدَداً ، وَلاَ تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَداً ، وَقَالَ :

فَلستُ أُبَالِي حينَ أُقتَلُ مُسلماً ... عَلَى أَيِّ جنبٍ كانَ للهِ مصرَعِي

وذلكَ في ذاتِ الإلهِ وإنْ يشَأْ ... يُبَارِكْ على أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

وكانَ خُبَيْبٌ هُوَ سَنَّ لكلِّ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْراً الصَّلاَةَ وأَخْبَرَ (يَعْنِي النَّبي صلّى اللهُ عليهِ وسلّم) أَصْحَابَهُ يومَ أُصيبوا خَبَرَهُمْ ، وَبَعَثَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلى عَاصِمِ بْنِ ثابتٍ حينَ حُدِّثُوا أَنَّهُ قُتِلَ أَن يُؤْتَوا بِشَيءٍ مِنْهُ يُعْرَفُ ، وكانَ قَتَلَ رَجُلاً مِنْ عُظَمَائِهِمْ ، فَبَعَثَ اللهُ لِعَاصِمٍ مِثْلَ الظُّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ فَحَمَتْهُ مِنْ رُسُلِهِمْ فَلَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَقْطَعُوا مِنْهُ شَيْئاً . رَوَاهُ البُخَارِيُّ . قولُهُ « الهَدَاة » مَوْضِعٌ . و« الظُّلَّةِ » : السَّحَابُ . و« الدَّبْر » النَّحْلُ . وقولُهُ « اقْتُلْهُمْ بِدَداً » بكسرِ الباءِ وفتحِها ، فمن كسر قالَ : هُوَ جَمْعُ بِدَّةٍ بكسرِ الباءِ وهي : النَّصيبُ ومَعْنَاه : مُتَفَرِّقِينَ فِي الْقَتْلِ واحِداً بَعْدَ واحِدٍ ، مِنَ التَّبْدِيدِ .

وفِي الْبَابِ أحاديثُ كثيرةٌ صَحيحَةٌ سَبَقَتْ فِي مَوَاضِعِهَا مِنْ هَذَا الْكِتَابِ. منْهَا حديثُ الْغُلَامِ[1] الّذِي كانَ يَأْتِي الرَّاهِبَ والسَّاحِرَ .وَمِنْهَا حديثُ جُرَيْجٍ[2] وحديثُ أصْحَابِ الْغَارِ[3] الّذِينَ أطْبَقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ ، وحديثُ الرَّجُلِ الّذِي سَمِعَ صوْتاً فِي السَّحَابِ[4] يقُولُ : اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ وغَيْرُ ذلِكَ ،وَالدَّلائِلُ فِي الْبَابِ كَثِيرَةٌ مشْهُورَةٌ ،وبِاللهِ التَّوفِيقُ .

ـ وعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهمَا قَالَ : مَا سَمِعْتُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه يَقُولُ لشَيْءٍ قَطّ إنِّي لأَظُنُّهُ كَذَا إلاّ كَانَ كَمَا يَظُن . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ .

هذا ما ذكره الشيخ النووي في كتابه رياض الصالحين عن كرامات الأولياء وفضلهم ، وبه نعرف وجود الكرامة ، ووجوب الإيمان الشرعي بها ، وفي كتب التوحيد تبحث عادة قضية الكرامات ، والخوارق للعادات بشكل عام ، فيذكرون هناك المعجزة والإرهاص والكرامة والإهانة والاستدراج ، ومن المعلوم أن السحر لا يدخل في باب الخوارق ؛ لأنه جزء من عالم الأسباب.والكرامة على نوعين : منها ما هو خرق لعادة ، ومنها ما كان على مقتضى عالم الأسباب ، ولكنه من مظاهر التوفيق الإلهي ويسميه العلماء (معونة) والتفريق بين أنواع الخوارق للعادات ، ومعرفة كل منها ، كل ذلك من مباحث علم التوحيد فلتراجع هناك ، والذي نحب أن نقف عنده هنا هو : أن الكرامة ثابتة شرعاً ، وأن هذا يكاد يكون من المعلوم من الدين بالضرورة ، ولكن التمييز بينها وبين أنواع الخوارق الأخرى دقيق جداً ، كما أن التمييز بين الخوارق وبين السحر ـ أصلاً ـ يحتاج إلى دقة كثيرة . وكل ذلك ليس محل بحثنا هنا ، وإنما محل بحثنا هنا نقطتان : النقطة الأولى أن الكرامة وقعت ، وتقع في دوائر التصوف ، وأن أعداء التصوف ـ بشكل عام ـ يحاولون أن ينكروا أن تكون هناك كرامة تقع للمنتسبين للتصوف ، بل يحاولون أن يعطوا هذه الكرامات أسماء أخرى ، وهذا خطأ وغلو . لقد ذكرنا من قبل أن ابن تيمية ـ رحمه الله ـ ذكر أن كرامات الشيخ عبد القادر الجيلاني منقولة تواتراً ، بل كان الشيخ ابن تيمية لا يذكر الشيخ الجيلاني

---

(١) انظر الحديث رقم ٣٠ ص ١٧ . من كتاب رياض الصالحين .

(٢) انظر الحديث رقم ٢٥٩ ص ٨٨ . من كتاب رياض الصالحين .

(٣) انظر الحديث رقم ١٢ ص ٦ . من كتاب رياض الصالحين .

(٤) انظر الحديث رقم ٥٦٠ ص ١٦٩ . من كتاب رياض الصالحين .

إلا ويعقب على ذلك بقوله (قدّس الله سره) فإنكار أصل الكرامة لطبقات الصوفية إنكار غيرعلمي ،وليس في محله ،وأهم شيء عندي هوألا نقف من الكرامات موقف المنكر ،وألا نتعامل مع أهله بحساسية ،بل أن نعطي للتحقيق مداه هذا هو الأصل ،فمن نقلت لنا كراماته نقلاً صحيحاً ،ولم يكن هناك مأخذ شرعي على صاحبها فما هو المانع أن نعتبر ذلك كرامة من الله عز وجل ، ولقد كان لبعض شيوخنا من الكرامات ما هو ظاهر وواضح ، وأكرر أنني أتمنى أن يتابع موضوع الكرامات إلى نهاياته ، وإنني أعتبر الخدمة في هذا الموضوع من أعظم الخدمات التي تقدم لدين الله في هذا العصر ، إذ إنّ الكرامات امتداد للمعجزات ، وهي من مظاهر حجج الله على خلقه بأن ﷺ ، هذه نقطة .

النقطة الثانية : يقول ابن عطاء في حكمه : (ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه) . وقال : (ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة) . قدمنا بهاتين العبارتين لهذه النقطة للتدليل عليها من كلام الصوفية أنفسهم . إن بعض الصوفية يعتبرون الكرامة دليل الولاية ، ويعتبرون الولاية مظنة العصمة ، فمتى ظهرت كرامة على يد شيخ اعتبروا ذلك علامة على العصمة ، وإن أعطوا العصمة هنا إسم الحفظ ، ثم بنوا على ذلك وجوب الالتزام بالشيخ ، ووجوب استشارته في كل شيء ، ووجوب الالتزام بكل ما قاله ، ويأخذون عنه الفتوىٰ والسلوك في كل أمر ، وهو موضوع يترتب عليه ما يترتب من فساد أحياناً ، يقول الإمام مالك : إن من شيوخي من أستسقي به ولا أقبل حديثه ... تأمل هذه العبارة العظيمة لتدرك ما نريده . إن أولياء هذه الأمة كثيرون ، وإنهم بفضل الله ليتكاثرون ، فإذا أعطت كل مجموعة من المسلمين شيخها صفة الإمامة المطلقة المحوطة بهالة الولاية فكم سيترتب على ذلك من انقسامات وتشتتات وأخطاء . إن من ظهرت كرامته وكان مستقيماً فتلك مظنة ولايته ، وهو أهل لأن يطلب منه الدعاء ، ولكن إن لم يكن فقيهاً لا تؤخذ الفتوى عنه . وإن لم يكن خبيراً باصطلاحات العلوم لا تؤخذ العلوم عنه ، وإذا لم يكن ذا وعي على ما يجري حولنا فلا نسلمه قيادتنا في أمور السياسة ؛ فالكرامة شيء ، وأن يكون لإنسان دور الإمامة شيء آخر . هذا موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام : لقد أعطي الخضر بعض الميزات ولكن من الأفضل هو أو موسى ؟ إنه موسى عليه السلام ؛ فهو الذي أعطاه الله منصب الإمامة والقدوة . إن الفهم العميق للأمور ، ووضع كل

شيء في محله ، ومعرفة ما نأخذ من كل إنسان ، وما هو المحل الذي نضع فيه كل إنسان في جسم هذه الأمة الإسلامية الكريمة . إن هذا من أهم ملامح المسلم الواعي الحكيم . فإذا ما استوعبت كل ما مر في هذا الباب من الكلام عن الكشف والرؤى والإلهام والكرامات فقد آن لك أن تستوعب بدقة كلام الأستاذ البنا رحمه الله حين قال في (رسالة التعاليم) تحت ركن الفهم :

٣ - وللإيمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة ، نور وحلاوة ، يقذفها الله في قلب من يشاء من عباده ، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية ، ولا تعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه .

٤ - والتمائم والرقى والودع والرمل والمعرفة والكهانة وادعاء معرفة الغيب ، وكل ما كان من هذا الباب منكر تجب محاربته ، إلا ما كان آية من قرآن أو رقية مأثورة .

٥ - وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ ، وكل ما جاء عن السلف رضي الله عنهم موافقاً للكتاب والسنة قبلناه ، وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع ، ولكننا لا نعرض للأشخاص فيما اختلف فيه بطعن أو تجريح ، ونكلهم إلى نياتهم ، وقد أفضوا إلى ما قدموا .

٦ - ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم قربة إلى الله تبارك وتعالى ، والأولياء هم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ الذينَ آمنُوا وكانُوا يَتَّقون ﴾[1] . والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية ، مع اعتقاد أنهم - رضوان الله عليهم - لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً في حياتهم أو بعد مماتهم ، فضلاً عن أن يهبو شيئاً من ذلك لغيرهم .

ولنا عودة على الجزء الأخير من الفقرة الأخيرة من كلامه عليه الرحمة فإلى باب آخر عن الشيخ والبيعة لما لأهمية ذلك في قضية التصوف ، ولكثرة الأغلاط التي تحيط بهذا الموضوع .

---

(١) سورة يونس آية ٦٣ .

الباب الخامس عشر

قضية الشيخ والبيعة

قال تعالى : ﴿ ومَن يُضْلِلْ فلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً ﴾[١] . دلت هذه الآية على أن الغاية في القدرة على الهداية هو الولي المرشد ، إذ الآية تبين أن الولي المرشد نفسه لا يخرق مراد الله إذا أراد الله إضلال إنسان ، ومن ثم نعلم أن الدعوة إلى الله عز وجل تكون أكمل ما تكون إذا وجد الولي المرشد ، وعندما يضع الإنسان يده بيد الولي المرشد يكون ذلك أجود ما يكون في باب الهداية إلى الله وإلى طريقه ، وإذا كان الرسل عليهم السلام في الأصل هم الهداة الحقيقيين إلى الله عز وجل ، فالأولياء المرشدون هم الوراث الكاملون للأنبياء في باب الدعوة إلى الله عز وجل ، ومن هذا المعنى الذي ذكرناه ندرك أهمية وجود الولي المرشد لصلاح الدعوة إلى الله عز وجل ، وإذ أحاط بهذا الأمر كثير من الخطأ والغلط والدعاوى الكاذبة ، والأوهام المضللة ، فلابد أن نذكر الكثير الكثير حوله ، وسنعرض معاني متناثرة في فقرات متوالية يضمها أن لها صلة بعنوان الفصل كل منها يوضح جانباً من جوانب هذا الموضوع .

١ ـ قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾[٢] . يستشهد كثير من الصوفية بهذه الآية على أن الله عز وجل أمر بالكون مع الصادقين ، ويعتبرون ـ من حيث المبدأ ـ أنهم هم الصادقون ، والذي نقوله : إن الله عز وجل قد حدد صفات الصادقين تحديداً دقيقاً فمن اتصف بهذه الصفات فهو الصادق ، ومن لم يتصف بذلك فليس كذلك ، فلنر هذه الصفات قال تعالى : ﴿ إنَّما المؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمنُوا باللهِ ورَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وجَاهَدُوا بأمْوالِهم وأنفُسِهِم في سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُم الصَّادِقُونَ ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ ليسَ البِرَّ أن تُولُّوا وُجُوهَكُم قِبَلَ المشْرِقِ والمغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ والملائكَةِ والكِتَابِ والنَّبِيِّينَ وآتَى المالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى والْيَتَامَى والمسَاكِينَ وابنَ السَّبِيلِ والسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وأقَامَ الصلاةَ وآتَى الزَّكاةَ والْموفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذَا عَاهَدُوا والصَّابِرِينَ في البَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وحِينَ البَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُم المتَّقُونَ ﴾[٤]

---

(١) الكهف : ١٧ . (٢) التوبة : ١١٩ . (٣) الحجرات : ١٥ . (٤) البقرة : ١٧٧ .

وقال تعالى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وِمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾[١] . وقال تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم وَأَمْوَالِهِم يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾[٢] . فالصادقون هم المؤمنون المجاهدون الموقنون المصلون المزكون المتقون الصابرون الوافون بالعهود المنتظرون أن يقتلوا في سبيل الله ، ويدخل في الصادقين العلماء العاملون ؛ لأنه قد جاء في سياق الآية قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[٣] ، فالشيخ المربي ينبغي أن يكون متصفاً بهذه الصفات جميعاً ومربياً عليها .

٢ ـ قال تعالى : ﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾[٤] . هذا تعريف لمجرد الولي . وهو من اجتمعت له صفتا الإيمان والتقوى ، والشيخ ينبغي أن يكون ولياً مرشداً ، أي له صفة الإرشاد فوق صفة الولي ، فمن لم يكن مؤمناً تقياً كيف يسمى ولياً ، فضلاً عن أن يسمى ولياً مرشداً ، فالولاية جزء المشيخة ، وركنا الولاية : إيمان وتقوى ، ولا إيمان ولا تقوى بلا التزام بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ...

من الفقرتين السابقتين ندرك بعض أمهات الصفات التي ينبغي أن يتصف بها الشيخ ، وإذا كان الشيخ مرشداً فلاشك أن إرشاده ينبغي أن يكون ضمن توجيهات الآية القرآنية ﴿ فَلَولا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُم إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهم يَحْذَرُونَ ﴾[٥] . من هذه الآية نفهم أن الإرشاد يقتضي فقهاً في دين الله ، ثم إنذاراً ، فمن لم يكن فقيهاً لا يصلح لمقام الإنذار ، ومن لم يقم بمهمة الإنذار لا يؤدي حق الله في فقهه ، وذلك مظهر من مظاهر الوراثة الكاملة لرسل الله عليهم السلام ﴿ رُسلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلا يَكُون لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾[٦] . والتفقه في دين الله يقتضي فقهاً في الكتاب والسنة ، وفقهاً في الإيمان والإسلام والإحسان والتقوى والشكر ، ومن لم

---

(١) سورة الأحزاب : ٢٣ .
(٢) سورة الحشر : ٨ .
(٣) سورة التوبة : ١٢٢ .
(٤) سورة يونس : ٦٢ ـ ٦٤ .
(٥) سورة التوبة : ١٢٢ .
(٦) سورة النساء : ١٦٥ .

يجتمع له الفقه في هذا كله ، وتفصيلاته ، وما يلزم له ، لا يكون فقيهاً في دين الله عز وجل ، ومن لم يحسن التربية على هذا كله لا يصلح لمقام الإرشاد ، ومن لا يحسن تعليم هذا كله وغيره لا يصلح لمقام الإرشاد الكامل ، أي مقام الشيخ الذي يخدم خدمة كاملة في موضوع السير إلى الله عز وجل .

٣ ـ قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[١] . هذه الآية تحدد بعضاً من واجبات النبوة ، وبالتالي بعضاً من صفات الوارث ، أي الشيخ في الاصطلاح الصوفي ، أي الولي المرشد في الاصطلاح القرآني ، فلابد للشيخ أن يكون حكيماً يدعو إلى طريق الله بالحكمة . والحكمة معنى زائد على مجرد العلم ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾[٢] . فالحكمة عطاء من الله عز وجل ، فقد يكون الإنسان عالماً بالكتاب والسنة ولكن لا يقول الكلمة المناسبة في محلها ، ولا يتصرف التصرف المناسب ضمن حدود الشريعة ، ومن ذلك قضية الدعوة . والحكمة عطاء رباني ، وتحتاج إلى توفيق رباني في الأنفاس والحركات ، وكما أن الشيخ لابد أن يكون حكيماً ، لابد أن يكون قادراً على الموعظة الحسنة ، وما أكثر الذين يعظون ولا يحسنون ، وما أكثر الذين لا يعظون أصلاً ، كما أن الشيخ ينبغي أن يكون قادراً على النقاش ، وإقامة الحجة ، لا بالطريقة الحسنة فقط بل بالطريقة الحسنى ، وذلك كله من أدب الشيخ ، وينبغي أن يكون جزءاً من تكوينة ، ولا يتم هذا للشيخ إلا بعلم وتربية ومجالسة وذكر كثير . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمن كَانَ يَرْجُوا اللهَ واليَومَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً ﴾[٣] إن رجاء الله واليوم الآخر ، والذكر الكثير ، يوصلان إلى التأسي الكامل برسول الله ﷺ ، ويأتي تبعاً لذلك الكمال كله .

٤ ـ قال تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُم رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ويُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَّا لم تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾[٤] فالوارث ـ أي الشيخ ـ ينبغي أن يرث عن رسول الله ﷺ هذا ، فيذكر الناس بآيات الله في الكون والتاريخ ، ويربي النفس البشرية ، ويطهرها من عيوبها ، ويخلصها من أمراضها ، ويعلّم الناس كتاب

---

(١) سورة النحل : ١٢٥ .
(٢) سورة البقرة : ٢٦٩ .
(٣) سورة الأحزاب : ٢١ .
(٤) سورة البقرة : ١٥١ .

الله وسنة رسوله ﷺ ؛ إذ هي عين الحكمة ، ويعلّم الناس كل ما يلزمهم في أمر دينهم ، من فقه إلى غيره ، وهذا لا يتأتى للشيخ إذا لم يكن عالماً بالكتاب والسنة ، قادراً على تربية النفس البشرية ، محيطاً بعلوم الإسلام والثقافة الإسلامية ، عارفاً بعصره وبالتاريخ . وههنا يطرح الناس فكرة هي : أنه لا يشترط بالشيخ ذلك ؛ لأن كثيراً من كبار الأولياء تتلمذ عليهم كبار العلماء .

نقول : إننا لا ننفي أن يوجد ولي قادر على التربية والهداية مع قصور باع في علوم الكتاب والسنة والفقه وغير ذلك . ولا ننكر أن يستطيع مثل هذا أن يفيد كبار العلماء في هذا الجانب ، ولكن هذا شيء ، والوارث الكامل شيء آخر ، والشيخ الكامل ، والمرشد الكامل ، هو الذي نتحدث عنه ، والمشكلة الكبيرة أن كثيرين يعتبرون شيوخهم هم الوراث الكاملين ، مع أنهم لم يرثوا عن رسول الله ﷺ إلا بعض الأمر ، والشيوخ أنفسهم يسكتون على غلو تلاميذهم بهم ؛ بحجة أن المريد يستفيد بقدر ثقته بالشيخ ، إلا أن هذا يترك آثاراً سيئة في المجتمع الإسلامي ، إذ لا يعرف مريدٌ أمثال هؤلاء الشيوخ من هم الذين يشكلون القيادات الحقيقية للمسلمين . ولقصور شيوخهم في باب العلم فإنهم يفتونهم الفتاوى القاصرة في الشؤون العامة أو الخاصة ، وفي ذلك ما فيه من خلل ...

٥ ـ روى الإمام مسلم عن حنظلة بن الربيع الأسيدي ـ أحد كتاب النبي ـ ﷺ ـ قال : لقيني أبو بكر فقال : كيف أنت ياحنظلة ؟ قلت نافق حنظلة . قال : سبحان الله ما تقول ؟ قلت : نكون عند رسول الله ﷺ يذكّرنا بالنار والجنة كأنا رأي العين . وإذا خرجنا من عنده عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيراً . قال أبو بكر : فوالله إنا لنلقى مثل ذلك . فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على النبي ﷺ فقلت : نافق حنظلة يارسول الله . فقال : وما ذاك ؟ قلت : نكون عندك تذكّرنا بالنار والجنة كأنا رأي العين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيراً . فقال ﷺ « والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن ياحنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات » . من هذا الحديث نفهم أن لرسول الله ﷺ حالاً يترقى به أصحابه ، حتى إن ملازم الجلوس عند رسول الله ﷺ يصل إلى ما يصل إليه الذاكر الدائم ، أي إلى حالة يمكن أن تصافحه بها

الملائكة . وقد ذكر أصحاب رسول الله ﷺ في روايات صحيحة عنهم كيف أنهم أنكروا قلوبهم بعد أن فرغوا من دفن رسول الله ﷺ . كل هذا يدل على أن الأحوال القلبية كانت محسوسة من خلال مجالسة رسول الله ﷺ ، ووجوده بين الصحابة ، وأن من مظاهر هذا الحال أن يستشعر الصحابي وكأنه يرى الجنة والنار رأي العين . من هذا كله ندرك أن الشيخ الوارث ما لم يكن عنده شيء من هذا الحال فإنه لا يكون وارثاً نبوياً كاملاً ، ومن خلال الواقع نجد أن الذين ليس لهم سير صوفي لا يستطيعون أن ينقلوا هذه الإحساسات إلى غيرهم ، كما أنهم هم أنفسهم لا يستشعرون بها . ومن ثم فإننا نقول : إن كل طالب علم ينبغي أن يتحقق بهذه المعاني ، بسلوك الطريق الموصلة إلى ذلك ، وإننا لنرجو أن يكون هذا الكتاب مع أخويه ـ المستخلص ، ومذكرات في منازل الصديقين والربانيين ـ موضحاتٍ لكل حيثيات هذا السلوك .

من خلال النصوص التي ذكرناها ندرك بعض صفات الولي المرشد ، أو الوارث الكامل ، أو المرشد الكامل ، أو الشيخ . فهو ولي مرشد حكيم ، داعية إلى الله ، معلّم لآيات الله ، معلّم للكتاب والسنة ، قادر على تزكية الأنفس ، قادر على نقل القلب البشري إلى آفاق الاستشعار لكثير من أمور الغيب ، قادر على النقل إلى مقامات الإسلام ، وهذا كله يقتضي أن يتجمع فيه علم معيّن ، وعمل معيّن ، وحال معيّن ؛ ليكون معلماً مربياً من خلال القدوة والتعليم بآن واحد ، وعليه أن يتحقق بصفات الصادقين التي من جملتها الجهاد بالنفس والمال عندما يتعيّنان عليه ، وقد رأينا أدلتها من قبل . هذه قضايا لها حكم البديهيات ؛ في أن الوارث الكامل ينبغي أن يتحقق بها لظهورها في النصوص ووضوحها . والآن لنر بعض ما يقوله الصوفية أنفسهم في قضية الشيخ ننقلها من قصيدة المباحث الأصلية مع شيء من التعليق مستأنسين بشرح بعض الشارحين :

(عار لمن لم يَرُضِ العلوما) أي لم يعانها ويمهر فيها حتى تصير طوع يده ليكون على بينة من ربه . (ويعلم الموجود والمعدوما) أي يعلم الوجود الواجب ، والوجود العارض ، والعدم الواجب ، والعدم العارض . (ولم يكن في بدئه فقيهاً) أي ينبغي أن يكون الفقه هو السابق على كل شيء ؛ إذ لا ينبغي لإنسان أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه . (وسائر الأحكام ما يدريها) أي لا يعرف حكم الله في الأمور التي تواجهه أو تصادفه أو

يمكن أن يبتلى فيها . (والحد والأصول واللسانا) المراد بالحد : علم المنطق . وبالأصول : علم أصول الفقه ، وعلم أصول الدين ـ أي العقائد ـ ، وباللسان : علوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وغير ذلك . (والذكر والحديث والبرهانا) المراد بالذكر القرآن ، وبالحديث السنة ، وبالبرهان إقامة الحجة في دين الله على الخلق . (ولم يكن أَحْكَمَ علم الحال) المراد بعلم الحال علم التصوف ، أي ينبغي على الشيخ كذلك أن يتقن علم الحال ، وعلم المقامات بحيث يكون سلك طريق الأحوال ، ثم سكن في المقامات (ولا درى مقاصد الرجال) : أي لا يستطيع أن يفهم عبارات العلماء في تصريحهم وتوضيحهم وإشارتهم ورموزهم وألغازهم ومقاصدهم في ذلك كله . (ولم ينزه صفة المعبود) بأن يعرف الله حق المعرفة ، منزهاً إياه من الحدوث أو الحلول أو الاتحاد أو المشابهة أو المشاكلة أو غير ذلك مما لا يجوز عليه جل جلاله . (ولا دري مراتب الوجود) أي من وجود عارض ، ووجود واجب ، ووجود شاهد ، ووجود مغيب (والنفس والعقل معاً والروحا) أي لا يعلم على ماذا تطلق كلمة النفس ،وعلى ماذا تطلق كلمة العقل ، وعلى ماذا تطلق كلمة الروح ، ومتى يكون المحل واحداً ، ومتى يكون المراد مختلفاً ، وليس المراد معرفة الكنه كما مر معنا من قبل (ويدري منه صدره المشروحا) أي ولم يدر أيضاً معنى الصدر المشروح بالإسلام ، وما علامة شرحه ، من تجاف عن دار الغرور ، وإنابة إلى دار الخلود ، وغير ذلك (وعلم سر الناسخ والمنسوخ) أي ولم يعرف قضية الناسخ والمنسوخ في الكتاب والسنة ، لأنه بدون هذا العلم يضل ويضل ، ثم قال الشيخ : (أن يتعاطى رتبة الشيوخ) أي من لم يجتمع له كل ما مر فعار عليه أن يتصدر للمشيخة . وطبعاً المراد بها هنا الإرشاد الكامل ، أما ما سوى ذلك من نصيحة ومذاكرة وتعليم وإفادة بالمقال أو بالحال فهذا بابه مفتوح لأفراد الأمة . ففي الحديث : « بلغوا عني ولو آية »[1] .

وقال صاحب المباحث في مكان آخر من قصيدته في شأن الشيخ ما سنذكره مع شيء من التعليق الخفيف عليه : (وإنما القوم مسافرونا) السفر هنا عبارة عن الانتقال من مقام إلى مقام ، كالانتقال من مقام الإسلام إلى مقام الإيمان ، ثم إلى مقام الإحسان ، ثم إلى مقام التقوى ، ثم إلى مقام الشكر . ومن رؤية أفعال الله عز وجل إلى استشعار صفاته وأسمائه ،

---

(١) أخرجه البخاري والترمذي .

ومن عالم الحس إلى عالم المعنى ، ومن أمراض النفس إلى صحتها ، وكل ذلك قد مر من قبل (لحضرة الحق وظاعنونا) أي مسافرون إلى الله عز وجل ، ومنتقلون في سيرهم إليه من مقام إلى مقام . من مقام الغفلة إلى مقام اليقظة ، ومن مقام اليقظة إلى مقام الحضور ، إلى غير ذلك . (فافتقروا فيه إلى دليل) أي فافتقروا في سفرهم هذا إلى دليل يدلهم على الطريق ، وهو الشيخ الذي من صفاته ما سيأتي بعد هذا الشطر (ذي بصر بالسير والمقيل) أي لا بد أن يكون الشيخ بصيراً بأحوال السير ومنازله ، فيسيّر كل مريد بحسب طاقته وجهده ، ويراعي احتياجات السالك إلى الراحة (قد سلك الطريق ثم عادا) أي لابد أن يكون الشيخ قد سلك طريق السلوك من بدايته إلى نهايته ، ثم عاد بعد أن عرف ليدلّ غيره ولذلك قال : (ليخبر القوم بما استفادا) أي ليخبر المريدين بما استفاده من علوم الأذواق ، وأنوار الشهود ولذلك قالوا : لابد للشيخ أن يكون له علم صحيح ، وذوق صريح ، وهمة عالية ، وحالة مرضية (وجاب منها الوهد والآكاما) الوهد : المكان المنخفض . والآكام : جمع أكمة وهي المكان المرتفع ، وجاب بمعنى : نقب وقطع وههنا بمعنى : دخل وسلك ، والمراد : أن الشيخ ينبغي أن يكون ذاق طعم الخمول والذلة على المؤمنين ، والعزلة الهادفة ، وأمثال ذلك مما هي بمثابة المنخفضات في الطريق إلى الله ، كما ذاق طعم المشقات في الطريق من أمر بمعروف ونهي عن منكر وجهاد ـ إذا تعيّن ـ ومجاهدة (وراض منها الرمل والرغاما) راض المكان اختبره . والرغام : التراب ، والمراد : أن الشيخ ينبغي أن يكون عارفاً بالطريق لينها الذي يشبه الرمل ، وصعبها الذي يشبه التراب الصلب ، وبالتالي فإنه يسيّر كل مريد على حسب همته ، وعلى حسب الطريقة المناسبة ، له من طول ، وقصر ، وصعوبة وسهولة (وجال فيها رائحاً وغادياً) أي يشترط في الشيخ أن يكون ماهراً في الطريق ، سار فيه صباح مساء ، إشارة إلى علم البدايات والنهايات (وسار كل فدفد وواد) . الفدفد : الموضع الذي فيه غلظ وارتفاع . والوادي : المسيل . وأشار بالفدفد والوادي إلى ما يلقاه المريد من الامتحانات والتسهيلات والتوفيقات والعطاءات (وعلم المخوف والمأمونا) أي يعلم الأمور التي يخاف على المريد منها فيأمره بالبعد عنها ، كالركون إلى التعظيم والتبجيل والدعة والكسل والدنيا ، ويعلم الأمور التي ينال بها المريد الرضي من الله عز وجل حتى يكون من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، من إقامة الفرائض ، والإكثار من النوافل ، ومن صحبة الصالحين ، وموالاة أهل الحق (وعرف الأنهار

والعيونا) . الأنهار هنا علوم الشريعة . والعيون هنا منابع الفطرة ، فالشيخ يعرف علوم الشريعة ، ويعرف كيف تنفجر ينابيع الفطرة ، وكيف يفجرها (قد قطع البيداء والمفاوز) البيداء : الصحراء . والمفاوز : جمع مفازة وهي الصحراء الشاسعة الأطراف . والمراد بالبيداء هنا أرض النفس حال شهوانيتها ورعوناتها . والمراد بالمفاوز المسافات البعيدة عن رضوان الله عز وجل : (وارتاد كل حابس وحاجز) . الإرتياد : هو التقدم أمام القوم لاختيار الأمكنة ، وما فيها ، والحابس : هو الذي يحبسك عن بلوغ المراد ، والحاجز : هو الذي يحجز بينك وبين مرادك ، فلابد للشيخ أن يعرف ما يحبس عن السير ، من وقوف عند مظهر من مظاهر الكون مثلاً ، وأن يعرف ما يحجز من الوصول إلى الله من ملل من المجاهدة ، وركون إلى الراحة وغير ذلك (وحل منازل المناهل) . المنهل : هو الموضع الذي ينزله الركب ، بشرط أن يكون فيه ماء والمعنى : أنه يشترط في الشيخ أن يكون حل في منازل السائرين من يقين وورع وزهد وخوف ورجاء وتوكل وصبر ورضى وتسليم ومشاهدة وتزكية وفناء عما سوى الله وبقاء في الله (وكل شرب كان منه ناهل) الناهل : الشارب . أي يشترط في الشيخ أن يكون قد شرب من مياه هذه المقامات ؛ بأن ذاقها ، وتحقق بها (فعندما قام بهذا الخطب) . الخطب : هو الشأن الجسيم . أي عندما تحقق بهذه الأمور كلها التي مرت معنا من بداية هذه الأبيات (قالوا جميعاً أنت شيخ الركب) . قال له إخوانه وشيوخه وعارفوه : لقد وصلت إلى رتبة المشيخة ، وآن لك أن تجاز بالتسليك إلى ملك الملوك .. (والسفر المذكور بالقلوب) أي السفر الذي مر معنا فيما مضى هو سفر القلوب إلى حضرة علاّم الغيوب ، وهو بالتفصيل من أربعة مواطن إلى أربعة مواطن : من موطن الذنب والغلفة ، وإلى موطن التوبة واليقظة ، ومن موطن الحرص على الدنيا ، إلى موطن الزهد فيها ، وطلب الآخرة ، ومن موطن مساوىءالنفوس وعيوب القلوب ، إلى موطن التخلية منها والتحلية بأضدادها ، ومن شهود الكون إلى شهود رب الكون « اعبد الله كأنك تراه »[1] . ثم يكون بعد ذلك سير معه (والشيخ بمنزلة الطبيب) . فكما أن الشيخ بمثابة شيخ الركب في معرفة الطريق فهو أيضاً بمثابة الطبيب للقلوب (يعلم منها الغث والسمينا) الغث : اللحم الذي ليس سميناً ، والمراد بالغث هنا القلب الضعيف من العلم والعمل والحال ، والضعيف اليقين ، والخافت النور والمراد بالسمين القلب المليء بالعلم والعمل والنور

---

(١) حديث حسن رواه أبو نعيم في الحلية والطبراني في الكبير .

والحال والمعرفة ، فالشيخ ينبغي أن يكون بصيراً يسيِّر بهذا وهذا على مقتضى ما يناسب كلاً منهما (ويدرك الصلب معاً واللينا) . الصلب : الشديد اليبوسة . واللين : ما قابل ذلك . والمراد بالصلب هنا : القلب القاسي من كثرة الذنوب والغفلة ، أو القلب الشديد على أعداء الله ، والمراد باللين هنا : القلب الخاشع أو القلب الرحيم بخلق الله . فالشيخ يعرف طبيعة هذا وهذا ، ويسيِّر كل إنسان بما هو مؤهل له ، أو بما يناسب حاله نحو الأرقى في حقه ، بما يحقق الحكمة التي جعل الله عز وجل بها قلوب عباده متفاوته (قد أحكم التشريح والمفاصل) . والمراد بالتشريح هنا : المعرفة بعلاج الأمراض القلبية والنفسية والروحية ، والمراد بالمفاصل هنا : معرفة علاج الجوارح . والمراد أن الشيخ يعرف واجبات القلب ، وواجبات الجسد ، ويعرف كيف يدوای انحراف القلب ، وانحراف الجسد (وصار علم الطب فيه حاصل) . أي حصّل أمر الطب الديني كله ، حتى أصبح علم الطب كله فيه ، أي عنده فهو قادر على أن يعالج كل حالة بشرية على أي مستوى ، سواء في ذلك قلب الإنسان وسلوكه ليكون على مقتضى الشرع . أو محل هذا الإنسان في الصف الإسلامي ، أو موقف المسلمين من غيرهم بالفتوى والإرشاد والنصيحة والتربية والتأديب وغير ذلك (وكان عشاباً وصيدلاني) العشاب : هو الذي يعرف أعيان الأعشاب ومنافعها وخواصها . والصيدلاني : هو الذي يعرف أنواع الأدوية والعقاقير . والمراد أن الشيخ كما أنه طبيب يصف الداء ويصف الدواء فإنه في الوقت نفسه يعرف الأدوية وخواصها ، ويعرف كيف يركّبها ؛ فهو طبيب وصيدلي بآن واحد في قضايا أمراض القلوب . (قدحاً وكحالاً ، ومارستاني) . القدح في اصطلاح الأطباء قديما : هو جراحة العيون ، وجراح العيون قديماً يسمى القداح ، والكحال : هو الذي يعرف أدوية العين ويعالجها بالكحل ، والمارستاني : هو المدير العام للمستشفى العام للأمراض المتعددة . والمراد أن الشيخ ينبغي أن يكون خبيراً بجراحة عين البصيرة ومداواتها ، عارفاً بجموع الأمراض ، قادراً على مداواة أصحابها جميعاً (أمهر في الأعراض والأخلاط) . الأعراض : ما يطرأ على الجسم من حالات . والأخلاط : ما اجتمع في المعدة من العلل الناشئة عن اختلاط الأغذية المختلفة (من أسقلا جالينوس أو بقراط) جالينوس وبقراط طبيبان . والأسقل ـ كما يبدو ـ كتابها الطبي ومراد المؤلف أن الشيخ ينبغي أن يكون أمهر في علم القلوب ومداواتها من هذين الطبيبين في تطبيب الأجساد ، ومراده بالأعراض : ما يعرض للمريد من القواطع والشواغل ، كميله للرئاسة والجاه ،

وتقدمه للتصدر في شأن قبل الكمال فيه ، وأمثال ذلك ، وأراد بالأخلاط الخواطر الرديئة والمقاصد الدنيئة التي يمكن أن تشوش حال بعض المريدين (ويعلم البسيط والمركبا) . البسيط : هو هاهنا القلب غير المعقد ، والمركب : هنا هو القلب المعقد ، أو البسيط : هو ما كان أقرب إلى الفطرة ، والمركب : هو الذي خالط الفطرة فيه ما عكرها ، فالشيخ ينبغي أن يكون عارفاً يصلح الكل ، وكيف يسيِّر كلاً من أصحاب هذين القلبين (وما بدا منها عليه واختبا) . بعض أخلاق القلوب تظهر بشكل واضح في سلوك الإنسان ، وبالتالي يسهل على الإنسان اكتشافها ، وبعض قضايا القلوب تكون غامضة ، وتحتاج إلى فراسة دقيقة لإدراكها ، والشيخ ينبغي أن يكون ذا بصيرة وفراسة ، يدرك بها حال مريده الظاهر والخفي (والطبع والمزاج والتركيبا) . الطبع : ما جبل عليه الإنسان ، من خوف أو شجاعة أو كرم أو بخل ، والمزاج هنا : التركيب النفسي للإنسان من كونه بارد الطبع أو حاره ، أو حاد المزاج أو هادئه . والتركيب هنا : اختلاط الشيء بغيره كاختلاط الأصيل بالدخيل ، والعليل بالسليم . فالشيخ ينبغي أن يكون عارفاً بالطباع والسجايا والأمزجة والاختلاطات النفسية والقلبية ، وعلى ضوء هذه المعرفة يسيّر أصحابها بما يصلحهم ويقربهم إلى الله بما يحقق الحكمة على ضوء الشريعة ، وكما ينبغي أن يكون عارفاً ذلك كله ينبغي أن يعرف (والكون والتحليل والترطيبا) ، والمراد بالكون هنا : واقع الإنسان صحة أو مرض ، والمراد بالتحليل هنا : تذويب ما تعقد في قلب الإنسان من علل والمراد بالترطيب هنا : المعرف بطرق تليين ما صلب ويبس من القلوب والمعنى : أن الشيخ ينبغي أن يكون ماهراً بأحوال القلوب ، عارفاً بعللها ، عالماً بعلاجها مهما كان شأنها وواقعها . فالأمراض القلبية بإرشاداته تتحلل ، وجفوة القلوب بمجالسته ومذاكرته تزول (فعندما صح له التحصيل) . أي بعدما حصّل هذه المقامات التي مرت معنا كلها على التمام والكمال (يمه السقيم والعليل) أي قصده المرضى على اختلاف أنواع أمراضهم (فكان يبريهم من الأمراض) أي يشفيهم بإذن الله من الأمراض القلبية والنفسية مما مر معنا بعضها (والساخط القلب يعود راضي) . أي من كان قلبه ساخطاً أصبح بعد الشفاء راضياً . فمن علامات الشفاء الرضا عن الله في كل حال ، ولذلك كان من دعاء المسلم (والحمد لله على كل حال ونعوذ بالله من حال أهل النار) .

(ليس هـذا طب جـالينـوس إنمـا يختص بـالنفـوس)

هذا تنبيه من المؤلف على أن الطب المذكور في الأبيات ليس هو طب الأبدان ، بل طب النفوس ؛ لتستقيم على أمر الله ، وطب القلوب لتصح من الأمراض ، والعيوب فتنخرط في سلك من أتى الله بقلب سليم .

(فهكذا الشيوخ قدماً كانوا يا حسرتي إذ سلفوا وبانوا)

كأن الشيخ يريد أن يقول : إنه لم يبق من هذا النوع من الشيوخ أحد وهي كلمة تقال للتحسر ، ولرفع الهمة للوصول إلى رتبة المشيخة بحق ، وإلا فإن الأمة لم تخل من الوراث الكاملين في كل عصر ، والحمد لله . ومن عرف شيخنا محمداً الحامد رحمه الله عرف ما قلناه ...

في المجموعة الثانية من الأبيات التي نقلناها ذكر صاحب المباحث ثلاث نقاط رئيسية في قضية الشيخ :

١ - أن يكون الشيخ قد سار في الطريق من مبداه إلى منتهاه ، وعرف كل خفاياه ، حتى أصبح قادراً على أن يدل أصناف الخلق جميعاً على هذا الطريق .

٢ - أن يكون الشيخ بصيراً بأنواع القلوب ، وأنواع أمراضها ، قادراً بإذن الله على تطبيبها .

٣ - أن يكون عارفاً بأنواع الأدوية القلبية ، وما يناسب منها للأدواء .

والآن لنر بعض عبارات ابن عطاء في الشيخ : قال ابن عطاء :

(لا تصحب من لا ينهضك حاله ، ولا يدلك على الله مقاله ، ربما كنت مسيئاً فأراك الإحسان منك ، صحبتك من هو أسوأ حالاً منك) (ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه فأي علم لعالم يرضى عن نفسه وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه) . (من رأيته مجيباً على كل ما سئل ومعبراً عن كل ما شهد وذاكراً كل ما علم فاستدل بذلك على وجود جهله) ، (تسبق أنوار الحكماء أقوالهم فحيث صار التنوير وصل التعبير ، كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز ، من أذن له في التعبير فهمت في مسامع الخلق عبارته وجليت إليهم إشارته . ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار إذا لم يؤذن لك فيها بالأظهار ، عباراتهم إما لفيضان وجد أو لقصد هداية

مريد ، فالأول حال السالكين ، والثاني حال أرباب المكنة والمحققين ، والعبارة قوت لعائلة المستمعين . وليس لك إلا ما أنت له آكل ربما عبر عن المقام من استشرف عليه ، وربما عبر عنه من وصل إليه ، وذلك إليه وذلك يلتبس إلا على صاحب البصيرة) .

بعد أن رأينا نموذجاً من النصوص ، ونموذجاً من كلام الصوفية على قضية الشيخ فلنتساءل : إذا كانت هذه مهمة الشيخ في تربيته للمريد مطلقاً ، فما هي مهمة الشيخ زيادة على ذلك في عصرنا الذي استشرت فيه الردة ، وسيطر فيه الكفر ، وما تأثيرات ذلك وانعكاساته على تربية المريدين ؟ ثم ما هي مهمة الشيخ في عصر لم يعد للمسلمين فيه خلافة مركزية ؟ وكيف تكون الصلة بينه وبين غيره ، وهكذا ليكون المسلمون صفاً واحداًويداً واحدة ؟

لأشرح تصوري عن هذا الموضوع وبعد ذلك نقف وقفات ، تبدأ رحلة الأمة المريضة إلى الصحة بوجود المجدد ، ونوّابه الذين ينقلون الإنسان إلى صحته في جوانب أربعة : الإلتزام ، والخصائص ، والثقافة والتخصص ، وفي رسالتنا التي عنوانها (من أجل خطوة إلى الأمام على طريق الجهاد المبارك) ذكرنا بعض مظاهر المرض في الأمة الإسلامية ، أو في بعض منها ، وقلنا هناك باختصار : إن الطريق إلى الصحة يبدأ بوجود نموذج الصحة الأول المتمثل بالنسبة للأمة الإسلامية في كل عصر أو قرن أو جيل بالمجدد ، ثم بالورّاث الكاملين الذين ينطلقون في عملية التجديد حتى نهاياتها ، مبتدئين بإيجاد المسلم الكامل ، ومنتهين بإعلاء كلمة الله ، حيث وصلت إلى ذلك قدراتهم . وفي كتب أخرى لنا تحدثنا كثيراً عن الدواعي التي تجعل نقطة البداية في الصحة هي المجدد . وعلى ضوء نظريات المجدد في العمل التجديدي لحياة الإسلام والمسلمين ، لابد أن ينطلق الورّاث ليصوغوا المسلم صياغة كاملة ، ويرتقوا بكل مسلم إلى قمته التي تستأهلها طاقاته وهمته واستعداداته . وهذا يعني بشكل مبدئي أن توجد طبقة من الورّاث تغطي احتياجات هذه الأمة سواءً سمّي هذا الوارث بالشيخ أو بغير ذلك مما اصطلح عليه الناس كرمز إلى عالم عامل مرب ، وتكلمنا كثيراً في كتبنا عن العمل الإسلامي ، والتربية الإسلامية . وههنا نحب أن نبرز نقطة : ما هي مهمة الوارث الأولى في تكوين الإنسان المسلم في عصرنا ؟ لاشك أن هناك أربع دوائر يحتاجها المسلم المعاصر ، وهي التي تحتوي كل ما يمكن أن يتصوره أحد في باب تكوين المسلم ، سواء

كان المتصور صوفياً ، أو فقيهاً ، أو مجاهداً . هذه الدوائر الأربع هي : العلم ، والتخصص والأخلاق الأساسية وما يتفرع عنها ، ولزوم الصف الإسلامي ، وما يلزم لذلك من تربية ووعي وسلوك والتزام . والعلة الكبرى أن المسلم المعاصر تفوته واحدة من هذه ، أو اثنتان ، أو ثلاثة ، أو الأربعة أو يأخذ بعض هذه الأربعة بضعف .

تصور أن مسلماً عنده علم ولكن الأخلاق الأساسية تفوته أو واحداً منها ، إن الأمر لا يستقيم على ذلك . وتصور أنّ ما يقتضيه الالتزام بالصف الإسلامي من تربية ووعي وغير ذلك ليس موجوداً فإن الأمر كذلك لا يستقيم . إن العلة الكبرى تكمن في ضياع واحدة من هذه الأربعة ، أو أخذها بشكل قاصر ، ويدخل في العلم في رأينا : الثقافة الإسلامية بأصولها وفروعها التي أحصيناها في كتاب (جند الله ثقافة وأخلاقاً) ، ويدخل في العلم تحصيل الثقافة المعاصرة ، حتى لا يكون الإنسان غريباً عن عصره ، وعما يجري فيه ، ويدخل في الاختصاص الثقافة التأهيلية إما لاختصاص حياتي ، أو لاختصاص داخل العمل الإسلامي المعاصر .

وأما الأخلاق الأساسية فهي التي تحدثت عنها آيات الردة في سورة المائدة وقد فصلنا الكلام في شأنها في كتاب (جند الله ثقافة وأخلاقاً) وهي : محبة الله ، والذلة على المؤمنين ـ كل المؤمنين ، والعزة على الكافرين ـ كل الكافرين ، والجهاد في سبيل الله وتحرير الولاء لله ورسوله ﷺ والمؤمنين .

وأما لزوم الصف الإسلامي فيقتضي معرفة ماهية هذا الصف في عصرنا وخصائصه التي نصت عليها النصوص ، والشروط التي يجب أن تتوفر فيه حتى يكون هو الطائفة القائمة بالحق العاملة من أجله ، كما يقتضي معرفة بالقواعد التي يقوم عليها العمل الإسلامي المعاصر كما يقتضي عقلية شورية تقبل الشورى ، وتنزل على مقتضياتها على ضوء قواعد الشورى الإسلامية .

إذا اتضح هذا . كله ـ وكان هذا كله ضرورياً ـ فما هو الواقع ؟

تجد شيخاً يزعم أنه يسيّر المريد في طريق الجنة ، وتفوته التربية على الذلة للمؤمنين ، والعزة على الكافرين ، والجهاد ، وتحرير الولاء ، وتجد شيخاً يعلّم بعض مسائل الفقه أو

التوحيد ، وينسى تعليم الكتاب أو السنة أو السيرة وحياة الصحابة ، أو تاريخ الأمة الإسلامية ، أو غير ذلك مما يلزم لثقافة إسلامية متكاملة ، وتجد من يدعو إلى بعض الدعوات الصالحة وتفوته أمور كثيرة في الثقافة أو الأخلاق أو التربية الجماعية الإسلامية وفي إحدى هذه الدوائر يكمن الخلل ويبقى الحال كما نرى .

إن مهمة الشيخ واسعة جداً ، ولاشك أن استعدادات الناس متفاوتة ، ولكن حداً أدنى مما يلزم لكل إنسان لابد من وجوده ، ومهمتنا أن نرتفع بالناس لا أن ينزلنا الناس إلى ما يريدون . إذا أدركنا هذه السطور القليلة أصبح بإمكاننا أن ندرك نقاط الخلل في رتبة المشيخة المعاصرة ، وعرفنا ما يلزم للارتفاع بهذه الرتبة . وأتمنى لكل مسلم كان دون هذه القمة التي ذكرت أن تسير على يد من يستطيع أن يصل به إلى هذه القمة ، أو يضع لنفسه برناجاً يستكمل به نقصه . وقديماً كانت الإجازة التي يعطيها الشيوخ شهادة لإنسان بالتحصيل والقدرة على التكميل ، وحبذا لو وجد هذا بشكله المفصّل في عصرنا ، خاصة لرتبة الوراثة الكاملة أو المشيخة المربية . وإنني أعتبر أن المهمة الأولى لجماعة المسلمين هي أن توجد طبقة من الشيوخ الكمّل ، تستوعب احتياجات المسلمين التعليمية والتربوية والسلوكية . وبمناسبة المرور على كلمة الإجازة نقول باختصار في شأنها : إن الإجازة شهادة على أهلية إنسان ما لنوع من العلم ، فالإجازة في علم شهادة من أهله على أن إنساناً ما يملك النضج أو حده الأدنى في هذا العلم . والإجازة في التربية شهادة على أن إنساناً ما يملك النضج أو حده الأدنى الذي يؤهله للتربية . ولا شك أن الشهادة من أهلها تبعث على الاطمئنان ؛ ومن ثم تشترط الإجازة للاستقلال بالعلم والتربية ، أما المساعدة على العلم والتربية فهذه فيها سعة إذا وجد الأساس الصالح ، إذا استوعبنا ما مر نكون قد أدركنا رتبة المشيخة ـ كما يحتاجها عصرنا ـ وأدركنا حال المشيخة في وضعها الحاضر .

تصور الآن إنساناً يتصدر لرتبة المشيخة وهو لا يعرف عصره ، وليس قادراً على الفتوى المستوعبة للزمان والمكان والأشخاص ، تصور هذا الإنسان قد جاءه مريد يستفتيه في شؤونه العامة أو الخاصة ، أو يستفتيه في شؤون الإسلام والمسلمين ، إلى أين يمكن أن تصل فتاواه ؟ ولذلك حذرنا في هذا الكتاب من الالتزام المطلق بشيخ وههنا ننصح بما يلي :

أ ـ أن يكون الالتزام المطلق لجماعة المسلمين وإمامهم حيثما وجدت جماعة المسلمين

وخليفة راشد على رأسها ، وإذا لم يكن للمسلمين جماعة على رأسها خليفة راشد فعلى المسلم أن يكون من الطائفة المنصوص عليها في الأحاديث وذلك بأن يكون مع الصف الإسلامي عامة .

٢ - أن يلزم نفسه التعاون على الخير بقدر استطاعته ،ويحرر كل ما يسمعه على ضوء العلم الصحيح ، فإذا استوعب المسلم هاتين القضيتين ، وكان بيده الميزان الصحيح - وهو العلم الصحيح - فلا عليه بعد ذلك أن يجالس كل أحد ، ويستفيد من كل أحد ، ولا شك أنه سيجد كاملاً وأكمل ، وعالماً وأعلم ، وذا حال طيب وذا حال أطيب ، فيأخذ من هذا أكثر من هذا ، وكل ذلك طيب ولكن إياه والالتزام المطلق إلا لجماعة المسلمين وخليفتهم الراشد - إن وجد - لأنه إذا أعطينا لأنفسنا أن يلتزم كل منا بشيخ التزاماً مطلقاً فكيف يكون للمسلمين جماعة واحدة ؟ ولذلك أجاب السيوطي على سؤال : (رجلٌ أعطى العهد لشيخ ثم أعطاه لآخر أي العهدين يلزمه ؟ قال لا هذا ولا ذاك ولا أصل لذلك) . (إذ الأصل الوحيد هو لزوم جماعة المسلمين وخليفتهم الراشد) . وذكرنا من قبل أن الصوفية بحثوا حالة لا يجد الإنسان فيها مرشداً كاملاً فقالوا : بأن العلم مع الصلاة على رسول الله ﷺ كافيان للإنسان ، لأن الله عز وجل وعد من يصلي على رسول الله ﷺ أن يصلي هو عليه ففي الحديث : « من صلى علي صلاة صلى الله بها عليه عشراً »[1] . وإذا صلى الله على الإنسان أخرجه من كل ظلمة إلى كل نور ﴿ **هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾[2] ... إن التسليم لغير المرشد الكامل ، والالتزام المطلق بغير جماعة المسلمين وخليفتهم الراشد خطآن كبيران . وأكثر الصوفية الآن تغيب عنهم هاتان القضيتان ، فعلى كل مسلم أن يراجع نفسه في هذا الشأن فيترك العصبية العمياء لشيخه فلا يعطيه مقاماً غير مقامه . ولانريد أن نقطع مريداً عن شيخه ، بل نريد أن نفتح الطريق ليتعاون الشيوخ ، وليستفيد المريدون حيثما وجدوا فائدة . ومما يستأنس به على ملازمة أهل الصلاح حين الفتن والضلال ملازمة سلمان الفارسي قبل الإسلام لمن بقوا على الدين الصحيح للمسيح عليه السلام ، وما رواه الترمذي في حديث صحيح في حادثة الراهب بحيرا أن سبعة من الجنود بايعوه وأقاموا معه ، وهناك قضية يجب أن نعرفها وهي أن من عبارات الصوفية

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي .

(٢) سورة الأحزاب : ٤٣ .

عبـارة وتقول : « من لا شيخ لـه فشيخـه الشيطـان » . وهي عبـارة تنقـل عن أحـد كبـار الصوفية ، ونحب أن نناقش هذا الأمر وأن نقدم لذلك بقولنا :

إن علماء الأصول لم يعتبروا اجتهاد الصحابي نفسه ملزماً للأمة ـ إلا إذا أُجمع عليـه ـ فمن باب أولى رأي غيره . وإنما يكسب قول أي إنسان قوة بقدر ما تؤيده النصوص ، فإذا اتضح هذا الأصل نقول : إن هذه العبـارة صحيحـة في صورة واحـدة وهي : أنـه لو وجـد إنسـان جاهل وليس عنده قدرة على أن يتعلم لنفسه العلوم الشرعية فهـذا إنسـان يسير في عبـاداتـه ومعـامـلاتـه وتصرفـاتـه على غير علم ، فهـذا إذا لم يتتلمـذ على عـالم فعنـدئـذ يكـون شيخـه الشيطـان ، أمـا الإنسـان القـادر على أن يتعلم بنفسـه ، وهو يسير على ضوء العلم الصحيح ، فهذا شيخه العلم الصحيح ، وشيخه الكتاب . أما الإنسان الذي يأخذ العلم عن أهله فهذا لـه شيوخه . فإذا أدركنا هذا عرفنا محل هذه العبارة وعرفنا الخطأ الذي به يحاول بعض النـاس أن يحملوا هذه العبارة على من لا شيخ له صوفياً ، وبالتالي فمنهم من يتكئون عليها للـدعوة إلى شيوخهم ، وقد يكون شيوخهم جهالاً يحتاجون إلى شيوخ .

ومن المفاهيم الشـائعة عنـد بعض الصوفيـة (أنـه يستحيل وصولٌ إلى الله إلا عن طريق شيخ صوفي) وهذا وهم كبير ، وقد رأينـا عبـارة ابن عطـاء (وصولـك إلى الله وصولـك إلى العلم به) . فمعرفـة الله عز وجل بـابهـا مفتوح لمن سلـك طريق ذلـك ، سواء كانت المعرفـة الـذوقيـة أو المعرفـة العلميـة ، وإن تعليق المعرفة بـالله على وجود شيـخ من طراز خـاص ، وتأثيم من لا يسلكون على يد أمثال هذا الشيخ . إن هذا يعني أن ملايين المسلمين ماتوا وهم جهال بالله ، وبعضهم المفسر ، وبعضهم المحدث . والحق أن الاصطلاح على المشيخـة الصوفيـة جـاء متـأخراً في العصور الإسلاميـة ، فهل كان النـاس قبل ذلـك لا يعرفون الله وهم أفضل الأجيال على الإطلاق ؟!

لاشـك أن أدبنـا كسلمين أن نـأتي البيوت من أبوابهـا ، ولكل شيء بـابـه الـذي نلج إلى البيت من خلاله ، ولكل إنسان أحوالـه ، ولكل إنسـان أوضـاعـه ، فهـذا إنسـان يفترض في حقه أن يذهب إلى شيخ فقيه ، وهذا إنسان يفترض في حقه أن يذهب إلى عالم بالتوحيـد ، وهـذا إنسـان يفترض في حقـه أن يـذهب إلى شيخ صـوفي . والفتـوى تقـدر زمـانـاً ومكانـاً وشخصاً . يقول الشيخ أحمد الزروق في موضوع الشيوخ : (وقد تشـاجر فقراء الأنـدلس من

المتـأخرين في الاكتفـاء بـالكتب عن المشـايخ ، فكتبـوا للبـلاد ، فكل أجـاب على حسب فتحه ، وجملة الأجوبة دائرة على ثلاثة : (أولها) النظر للمشايخ : فشيخ التعليم تكفي عنـه الكتب للبيب حاذق يعرف موارد العلم ، وشيخ التربية تكفي عنه الصحبة لذي دين عـاقل ناصح . قال شارح بداية السلوك : وقلّ أن يوجد لغلبـة الهوى ، وشيخ الترقيـة يكفي عنـه اللقاء والتبرك ، وأخذ كل ذلك من وجه واحد يعني : أن أخـذ ذلـك عن الشيخ في الأوجـه الثلاثـة أتم للنجح وأبلغ للمراد . (ثـانيهـا) النظر لحـال الطـالب ، فـالبليـد لابـد من شيخ يربيه ، واللبيب تكفي الكتب في ترقيه ، لكنه لا يسلم من رعونة نفسـه إن وصل ؛ لابتلاء العبد برؤية نفسه . (ثالثها) النظر للمجاهدات : فمجاهدة التقوى لا تحتاج إلى شيخ لبيانها وعمـومهـا ، والاستقـامـة تحتـاج للشيـخ في بيـان الأصلـح منهـا ، وقـد يكتفي عنـه اللبيب بالكتب ، ومجاهدة الكشف والترقية لابد فيها من شيخ يرجع إليه في فتوحها كرجوعه عليـه السلام في عرضـه على ورقـة بن نوفل لعلمـه بـأخبـار النبوة ومبـادي ظهورهـا حين فـاجـأه الحق ، وهذه الطريقة قريبة من الأولى والسنـة معهـا والله تعـالى أعلم) (إنتهى) . لاحـظ قولـه : (فـالتقوى لا تحتـاج إلى شيخ) والتقوى كما عرفنـاهـا تفصيلاً في كتـاب (جنـد الله ثقافـة وأخلاقـاً) هي مطلب الله عز وجل من عبـاده ؛ لأنهـا تحتوي مـا قبلهـا وتضع قـدم الإنسان فيما هو أرقى منها ، كمقام الشكر ، ولا تقوْى أصلاً إلا بمعرفة الله عز وجل .

وقـد آن الأوان بعـد الـذي ذكرنـاه في هـذا البـاب أن نبيّن ضرورة الشيـخ في العلم والتربية ، فقد استجرنا التوضيح ومناقشة الأخطاء إلى كلام قد يفهم منـه فـاهم أن الشيخ لا محل له أصلاً ، لذلك نحب أن نوضح هذه النقطة :

١ ـ إن الشيخ البصير في الأمور يختصر لك الطريق ؛ فبدلاً من أن تتعبْ في الطريق ـ أي طريـق ـ سـواء كان طريـق تحصيـل علم ، أو طريـق استـدلال على صـلاح القلب ، أو طريق تخلص من مرض فإنه يختصر لك .

٢ ـ إن الشيـخ الكامـل يجنبـك الخطـأ في الفهم ، أو الخطـأ في السلـوك ، أو الخطـأ في التصورات التي يمكن أن تنشأ عن سير الإنسان نفسه .

٣ ـ إن الشيخ من خلال صحبته تأخذ منه حـالاً ، وتـأخـذ منـه سمت العلمـاء وأدبهم ، ونور العلم ، وتنوير القلب .

٤ ـ إن مجرد قبول الإنسان أن يأخذ العلم أو التربية عن أهلها يحرزه من كثير من الأمراض ، كمرض الغرور ، أو العنجهية ، أو الكبر .

٥ ـ وكل حالة يفترض على إنسان تحصيل شيء ولا يستطيع تحصيله إلا من جهة ما فإن الأخذ عن هذه الجهة يعتبر فريضة في حقه من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

٦ ـ وإذا كان الشيخ صالحاً وداعياً إلى هدى فإن الانتفاع به في الدنيا والآخرة تدل عليه النصوص .

٧ ـ والتجمع حول شيخ ، والمشاركة في حلقات العلم والذكر ، والتآخي الخاص في هذه الأجواء ، تترتب عليه مصالح كثيرة في الدنيا والآخرة ، وكل ذلك غيض من فيض في محل الشيخ ومكانه . ونحن بقدر ما نركز على أن تزول الأخطاء من التصورات والسلوكيات في موضوع المشيخة ، فإننا نركز على أن نقطة الانطلاق الصحيحة هي وجود الولي المرشد .

فصل في البيعة :

كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأخذ البيعة على الدخول في الإسلام ، وعلى أعمال من الإسلام ، وكانت البيعة في أحد أوجهها بيعة لشخص رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، ثم بعد وفاة رسول الله ﷺ وجدت صيغة وحيدة للبيعات ، هي البيعة السياسية التي تعطى لأمير المؤمنين ، ولما اختلفت الاتجاهات في الأمة الإسلامية بقيت البيعة تعطى على أساس الولاء الشخصي لجهة في إطار سياسي ، مرتبطاً بالحكم والسلطان ، وبقي الأمر على ذلك حتى القرن الخامس للهجرة ، حيث وجدت البيعة للشيخ في بعض البيئات على أساس التزام بأعمال ، وفصل هذا النوع من البيعات للشيوخ عن الإطار السياسي ، فأصبح بعض الناس لهم بيعتان : بيعة للسلطان على الطاعة في الأحوال العامة ، وبيعة للشيخ على الالتزام بالتقوى ، وأصبح بعض الشيوخ يأخذون البيعة على مريديهم في هذا الإطار ، واستمر الأمر على ذلك حتى سقوط الدولة الإسلامية ، وانتهاء الحكم الإسلامي في كثير من الجهات . وغلب الجهل على الناس ، فغابت عنهم قضية الخلافة ، وضرورة العمل من أجلها ، وغاب عن كثير من الناس ضرورة العمل لإقامة الحكم الإسلامي في أقطارهم ، وضاعت في خضم ذلك فكرة البيعة السياسية ، وبقيت في بعض الدوائر فكرة البيعة الصوفية ؛ فخلط بعض

الصوفية بين البيعة للإمام وبين البيعة للشيخ ، واعتبروا أن البيعة للشيخ لها نفس شروط البيعة تلك ، وأن لها أحكامها ، وأنها تغني عنها ، ولذلك صحح الفقهاء هذا الموضوع فقالوا : كما في تنقيح الفتاوى الحامدية عن السيوطي (رجل أعطي العهد لشيخ ثم أعطاه لآخر أي العهدين يلزمه ؟ قالوا لا هذا ولا ذاك ولا أصل لذلك) . وواضح أن البيعة الصوفية ذات صفة غير ملزمة ، يدل على ذلك الحديث الذي رواه مسلم وهو فيما يسمى في اصطلاحنا اليوم بالبيعة السياسية « إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما » . فلو أن هذه البيعات التي تعطى للشيوخ لها حكم البيعة المعروفة لجاز لنا أن نقتل كل الشيوخ ما عدا شيخاً واحداً ماداموا جميعاً يأخذون البيعات ، وهذا لا يقول به أحد ، ثم إن كثيراً من المجموعات الإسلامية صارت تأخذ عهوداً وبيعات على المنتسبين لها ، وهذه البيعات كلها - إن كانت على عمل بعينه - فإن لها حكم اليمين ، وإن كانت بيعة على الولاء الشخصي فإنها تكون بيعة غير ملزمة بل هي واجبة الفسخ إذا كان هناك شذوذ أو انحراف أو فسوق أو أمراض قلبية أو سلوكية أو فتن ، وبشكل عام نقول :

١ - إن شيوخنا كانوا يرون أن البيعة التي تعطى للشيخ عند الصوفية هي بيعة على التقوى ، ولذلك فإنهم يكتفون فيها بوضع اليد وقراءة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ . يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾[1] دون أن يضيفوا شيئاً آخر . إن البيعة في هذا الإطار ليس لها أحكام البيعة العامة ، ولا تحول دون الالتزام بجماعة المسلمين وخليفتهم الراشد إن وجد ، كما أنها لا تحول دون أن يعطي الإنسان بيعة لجهة أخرى على الخير نفسه ، أو على شيء آخر من الخير ، لذلك درج الصوفية القدماء على تعداد الشيوخ ، وضيق المتأخّرين منهم في ذلك ، والأمر واسع إذا وجدت الاستقامة ، وهي في هذا الإطار لا حرج فيها ، ولكن للالتباس الذي حدث فإننا نؤثر أن نطلق عليها اسماً آخر كالعقد أو الوعد ، أو أن نشرح لمن يعطي البيعة أن هذه البيعة بيعة على التقوى ، وأنها تأكيد لما ألزمنا به الشارع وليست إنشاءاً لأحكام جديدة ، يصبح أمر الشيخ فيها بالمباح فريضة ، فضلاً عن أن يحرّم حلالاً أو يحلّل حراماً . والطاعة في هذه الحالة بالمعروف طاعة حبية وودية فيما هو مباح .

---

(١) الفتح : ١٠ .

أما الإمرات التي تنبثق من شورى المسلمين فهي محكومة بالشروط المتفق عليها . وإذا رأى من أعطى البيعة أو العهد ما يوجب فسخها ، أو إذا رأى رؤيا شرعية بفتوى مبصرة ، أو علم لا هوى فيه ، فليأت الذي هو خير وليكفّر عن يمينه ، فالعهد عند فقهاء الحنفية له حكم اليمين .

٢ ـ الأصل أن البيعة الملزمة الوحيدة هي التي تعطى لجماعة المسلمين وخليفتهم الراشد ـ ولا خلافة عند فقهاء الحنفية لمن لم ينفذ أمره وذلك بأن تكون بيده السلطة ـ ويلاحظ في هذه الحالة وحدها شخص الإمام ، فإذا فسق الإمام أصبح المسلم دينياً غير ملزم بطاعة أمره ، ولكن لا يخرج عليه إلا بشروط .

٣ ـ يمكن أن تأخذ جهة مأذونة بيعة ما على أعمال إسلامية بعينها والالتزام في هذه الحالة التزام بالعمل ، وإذا عجز الإنسان عن هذا العمل فينظر هل عليه كفارة يمين أو لا ؟

وبشكل عام فإنني أدعو كل مسلم إلى التريث في أمور النذور والإيمان والعهود والبيعات إلا إذا اقتضاه واجب شرعي أن يفعل شيئاً من ذلك .

ويطيب لي في هذا المقام أن أسجل نقطة هي : أن كثيرين من المسلمين يصيبهم اليأس وهم يرون المآسي التي رافقت سلسلة الخلافة حتى سقوطها . ويصيبهم اليأس وهم يرون كيف أن الانحراف عن الحكم الإسلامي بدأ مبكراً جداً في تاريخ الأمة الإسلامية ، ويصيبهم اليأس وهم يرون الحال والواقع الذي عليه المسلمون أنفسهم ، ويصيبهم اليأس وهم يرون واقع القوى العالمية ، ويتعجبون أن يتكلم أمثالنا في الأسس الصحيحة للانطلاق ، ويتصورون أن هذا أشبه بالأحلام ، ونقول لهؤلاء جميعاً : هل نحن مكلفون أو لا ؟ فإذا كنا مكلّفين من الله بعمل فعلينا أن نفعل ، ولا علينا بعد ذلك إذا فرّط غيرنا بالتكليف ، فنحن طلاب جنة عرضها السموات والأرض ، وماذا يضيرنا إذا ربحناها وخسرها غيرنا . إن أهل كل عصر مكلفون بإقامة الإسلام كله ، فهم لا يسألون عن تقصير السابقين ، ولا تفريط اللاحقين . إن هذا هو التفكير السليم فيما نحن فيه . على أننا مع هذا نقول : إن ما حدث من انحرافات أعطانا دروساً ، وواجبنا أن نعمل كي لا يتكرر الانحراف مرة ثانية ، وإن واقع المسلمين الحالي ليس صعب التغيير إذا سرنا في الطريق الصحيح . وإن القوى العالمية لا تساوي شيئاً مع وعد الله لنا ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي

الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾[١] . ولِحِكَم كثيرة قال ربنا بعد هاتين الآيتين : ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[٢] . ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[٣] .

* * *

---

(١) النور : ٥٥ .

(٢) النور : ٥٧ .

(٣) البقرة : ٢٠١ .

الباب السادس عشر

في الأخلاق والآداب

الأدب هو الباب الذي انعكاساته على كل موضوعات السير إلى الله عميقة وبعيدة ، فسوء الأدب يفسد السلوك كله ، فهو يفسد العمل ، ويفسد القلب ، ويفسد آثار الذكر ، وآثار الصمت ، وآثار الخلوة والعزلة ، ويستحيل معه الأخذ من الشيوخ ، ومن ثم فلا سير بلا أدب مع الحق والخلق ومن ثم قالوا : والله ما فاز من فاز إلا بحسن الأدب ، ولا سقط من سقط إلا بسوء الأدب . إن حسن الأدب تعبير عن كمالات النفس ، وعن انضباطها ، وعن التحكم في نزواتها ، وذلك وحده علامة خير ، بينما سوء الأدب دلالة على أن النفس لا تزال متلطخة برعوناتها ، عاجزة عن الانضباط ضمن المسار الصحيح .

وللأدب مظهران : مظهر نظري ومظهر سلوكي ، والعلم يسبق السلوك والالتزام عادة . ومن ثم فلابد من تحديد موضوع الآداب مع ملاحظة أن موضوع الآداب أوسع من أن يحيط به باب ، فما من باب من أبواب الفقه في الغالب أو من أبواب التصوف إلا وتدخل فيه قضايا هي من باب الآداب ، ولذلك فنحن لا نطمع هنا أن نذكر كل شيء بقدر ما نطمع أنْ نذكر أمهات في هذا الباب ، لا تغني عن معرفة أخواتها في أبواب أخرى . وهذه كلها لا تغني عن التأدب بالكتاب والسنة . إن الكتاب والسنة هما مظهر البناء الأخلاقي والسلوكي ، واجتهادات الأئمة المنبثقة عن ذلك لا تغني عن دراسة الأساس بل هي استنباط دقيق لما ورد فيهما .

لقد كان بعض شيوخنا ينبه على ضرورة الأدب مع الله ومع الإنسان ومع الحيوان ومع الأشياء فيقول : إن الأشياء إذا أحسنت التعامل معها خدمتك ، وإذا لم تحسن لم تخدمك ، ويضرب لنا مثلاً على ذلك استعمالنا لإبريق الوضوء فلو أنك استعملته بلطف أخذاً ووضعاً خدمك كثيراً ، وإلا لم يخدمك ، فإذا كان هذا محل حسن الأدب مع الأشياء فما بالك بالأحياء ؟

إنه لابد أن نتعامل مع كل شيء بالأصول الصحيحة للتعامل على ضوء شريعة الله فلابد من الأدب الرفيع مع الله عز وجل شكراً وعبودية خالصة ورغبة ورهبة ولابد من التعامل مع خلقه على مقتضى أمره ، فدوائر الآداب واسعة جداً وعلينا أن نأخذ منها حظوظنا ،

وإنه من الملاحظ أن بعض البيئات لم تستطع أن تصل حتى الآن إلى آداب عامة تصبح بمثابة ألف باء في التعامل اليومي ، ولهذا تأثيراته الكبيرة على الحياة ، بينما استطاعت بعض البيئات أن تصل إلى اعتماد كثير من الآداب المتعارف عليها في كل جانب من جوانب الحياة في طريقة كلامها ، وفي طبيعة لباسها المناسب لكل مناسبة ، وفي طريقة التعامل مع الآخرين ، وفي طريقة التقديم والتأخير إلى آخر ما يدخل في باب التعامل العام ، ونحن المسلمين أغنى الخلق بعلم الآداب على الإطلاق وليس هذا فقط ، بل أدبنا في كل حالة هو الأدب الأرقى ، ولكن هذه الآداب نجدها متناثرة ههنا وههنا في كتب الفقه ، وفي كتب شروح الحديث ، وكتب التصوف المختلفة ، وكتب التفسير . وأولاً وقبل كل شيء فإن الكتاب والسنة ما تركا أدباً ولا خلقاً طيباً إلا بيناه ، ولكن كتاباً جامعاً للسنة كلها بشكل عملي لا نجده في كل بيت وفهماً صحيحاً للقرآن لا يسعى إليه كل مسلم ثم قراءة مستوعبة لكتب الفقه والتصوف نادراً ما يحصلها إنسان بشكلها الكامل ، وكل ذلك أدى إلى انحسار قضية الآداب أو وجودها في بيئات محدودة وبشكل جزئي ، وأحياناً فإن هناك مفاهيم خاطئة وسلوكاً خطراً يأخذ طابع الأدب . هذا كله يحتاج إلى علاج ، وبداية العلاج وجود كتاب التفسير المناسب ، ووجود كتاب السنة الجامع والمتوافرة في جمعه وخدمته شروط متعددة ، وكذلك التأليف المناسب في الفقه والتصوف . ونحن سنذكر بعض الآداب في هذا الباب لأن الأمر أوسع من أن يذكر في باب من كتاب صغير ، وعلينا أن نلاحظ أن قضية الآداب في اصطلاح الصوفية أوسع منها في اصطلاح الفقهاء ، فالفقيه يتحدث عن الأدب كمكمل للفرائض والواجبات والسنن ، ولكن الصوفي يذكر أشياء هي من باب الفرائض في بحث للآداب ، لأن الأدب عنده هو السلوك والتعامل مع الله عز وجل ومع خلقه ، وهذه قضية ينبغي أن ينتبه إليها الإنسان ، ونحن في هذا الباب سنجري على ذكر بعض الآداب على طريقة الصوفية ، وعلى هذا فما نذكره هنا تحت عنوان هذا الباب قد يكون فرضاً ، وقد يكون واجباً ، وقد يكون سنة أو مباحاً فليلاحظ ذلك . ومجموع ما سنذكره في هذا الباب إنما هو فصول متفرقة يجمعها كلها أنها آداب وأخلاق ، إما مع الحق أو مع الخلق ، أو هي من باب الخصائص . إن رسول الله ﷺ كان خلقه القرآن ، فما نذكره هنا وما يذكره غيرنا إنما هو تنبيه على بعض الأمور ولا يطمع أحد في الإحاطة . إنه للوصول إلى كمال النفس الذي هو العبودية الخالصة لله لابد أن نحقق شروط السير ، وبقدر ما يكون تفريط

في هـذه الشروط يكون الوصول عسيراً أو نـاقصاً أو مستحيلاً ، وإذن فـالمسـألـة تحتـاج إلى معرفة بالشروط ، وكل شرط يحتـاج إلى آداب . ومـا من خلق ينفصل عن أدب فلن نتحقق بكمال إذا لم يرافق ذلـك أدب ، فـالتواضع كصفـة للنفس يحتـاج إلى مظهر هو أدب ، والحلم كصفة للنفس يحتـاج إلى مظهر هو أدب ، واحترام المسلم وإكرامـه كصفـة للنفس يحتـاج إلى مظهر هو أدب ، وبقدر ما يكون السير صحيحاً ، وبقـدر مـا تتحقق شروط السير ، وبقـدر ما تتوافر الآداب يكون الوصول إلى الكمال أكيداً ، وبقدر ما يكون الكمال تكون القدرة على التكميل لمن أقامه الله هذا المقام . فقضية الآداب والأخلاق إذن قضيـة واسعـة ، والصوفي من أولى سماته التتبع لمكارم الأخلاق ، ومحاسن الآداب ، والتحقق بهـا ؛ ومن ثم قـالوا : التصوف خلُق ، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التصوف ، فإذا اتضحت هذه المعـاني كلهـا فلنبدأ عرض بعض الفصول .

فصل : في موضوع الأخلاق والآداب :

عقد صاحب قصيدة المباحث الأصلية فقرة لقضيـة الأخلاق والآداب في الطريق ننقلها هنـا مـع تعليقـات خفيفـة على كلمـات فيهـا . قـال : (وللطريـق ظـاهر وبـاطن) . أي للطريق إلى الله ظاهر وباطن سيفسرهما في بيتين آتيين وباختصار ، ظـاهرهـا : مـا يتعلق بإصلاح الجوارح الظاهرة وباطنها : ما يتعلق بـإصلاح العوالم البـاطنـة (تعرف منـه صحـة البواطن) أي إن ظـاهر الطريـق تعرف منـه صحـة بـواطن السـالكين . أخبر أن استقـامـة الظواهر دليل تعرف منه استقامة البواطن ، وعبر عن الاستقامة بـالصحـة ، فصحـة الظـاهر عنوان صحة الباطن ، ثم فسر ظـاهر الطريق بقولـه : (ظـاهره الآداب والأخلاق) . (مع كل خلق ما له خلاَق) . الخلاَق : النصيب ، فظـاهر الطريق الأدب مع خلق الله حتى مع من ليس لهم نصيب في الآداب فضلاً عن غيرهم . والأدب هو الموقف الأفضـل من كل وضـع نواجهه على مقتضى شريعة الله . فهناك حـالات يكون الأدب فيهـا هو الغضب ، وحـالات الأدب الأرقى فيها هو الإحسان وكظم الغيظ ، وهو معنى دقيق لا يفطن له إلا موفق ، ولا يعرف أن يضـع كل شيء في محلـه إلا عـالم وحكيم ، كان من خلـق رسـول الله ﷺ أنـه لا يغضب لنفسه ولكن إذا انتهكت حرمات الله فإنـه لا يقوم لغضبـه شيء ، وإذا وُجـد منكرٌ فإنه لا ينتهي سخطه إلا بانتهاء هذا المنكر ، ثم فسر باطن الطريق بقوله : (باطنه منـازل

الأحوال) . الوارد الإلهي إذا نزل في القلب أحدث أثراً ، هـذا الأثر يسمى حـالاً ، ومنـازل الأحوال هي القلوب ، ولكنه في البيت أراد الأحوال القلبية الصالحة نفسها ؛ بدليل إنه ذكر المقامات بعد ذلك مصاحبة فقال : (مع المقامات لذي الجلال) . الفـارق بين الحـال والمقـام أن الحال يتحول فيذهب ويجيء بخلاف المقـام ، فـإنـه رسوخ وتمكين ، فبـاطن الطريق إذاً الأحوال والمقامات في السير لذي الجلال الله رب العالمين فكأنه قـال : بـاطن السـائر إلى الله بين حال ومقام ، وهو في انتقال دائم من حال إلى مقام ، ومن مقام إلى مقام . وهذا كله هو بـاطن الطريـق . ثم بـدأ المؤلف يتكلم عن الأدب فقـال : (والأدب الظـاهر للعيـان) . (دلالة الباطن في الإنسان) . هـذا داخل فيا تقـدم من أن صحـة الظواهر تـدل على صحـة البواطن (وهو أيضاً للفقير سند) . أي يستنـد إليـه الفقير فيرتفع إلى المقـامـات العلى دينـاً ودنيا ؛ لأن القلوب مجبولـة على حب أهل الأدب (وللغني زينـة وسؤدد) . فـالأدب يزين الغني ويشرفـه ويرفـع قـدره ، ومراده بهـذا البيت أن الأدب لا يستغني عنـه غني أو فقير (وقيل من يحرم سلطان الأدب) . أي يمنع منـه ولم يوجـد فيـه شيء منـه (فهو بعيـد مـا تدانى واقترب) . التـداني والقرب بمعنى واحـد والمعنى : أن من لا أدب عنـده فهو بعيـد عن الله وعن خلقـه مهما تصور دنوه في زعمـه واقترابـه في وهمـه قـال أبو حفص : التصـوف كلـه أدب ، لكل وقت أدب ، ولكل حـال أدب ، ولكل مقـام أدب ، فمن لزم آداب الأوقـات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، مردود من حيث يظن القبول . (وقيـل من تحبسـه الأنسـاب فـإنما تطلقـه الآداب) . أي قـال بعضهم من تحبسـه الأنسـاب عن الارتقاء في المراتب تطلقه الآداب المرضية إلى أرفع المراتب ، وبعـد أن بين محل الأدب في الحياة بشكل عام رجع إلى التصوف فقال : (فالقوم بـالآداب حقـاً سـادوا .. منـه استفـاد القوم مـا استفـادوا) .. القوم هنـا هم الصوفيـة ، أي مـا سـاد الصـوفيـة وشرفـوا إلا بالآداب ، وما استفادوا من العلوم والمعارف والأنوار والأسرار والكرامـات الحسيـة والمعنويـة إلا بالأدب ثم ذكر بعض آدابهم فقال : (إذ نصحوا الأحداث والأصـاغر) . الأحـداث : جمع حـدث وهـو من لم تنبت لحيتـه والأصـاغر : جمـع صغير وهـو هنـا مـا كان في السن دون الحدث ، نبه على أن من أهم أخلاق الصوفية نصحهم الخالص لصغار السن والمُردان أقول : مع ملاحظة احتياط الصوفية من صحبة المردان وخوفهم على قلوبهم وحالهم من هـذه الصحبـة ، فهم ينصحون مع احتياطهم لأنفسهم في عدم النظر وعدم الخلوة وعـدم المصـافحـة (وحفظوا

السادات والأكابر) . المراد بالسادات هنا : العباد والزهاد والصالحون والعلماء العاملون والمريدون السالكون الذين لم يبلغوا رتبة المشيخة . والمراد بالأكابر ههنا المشايخ . وحفظ السادات والأكابر ، إنما يكون بالتوقير وبالاحتشام وبإعطاء الرتبة حقها من كل وجه . ثم ذكر آدابهم في الكلام فقال : (واجتنبوا ما يؤلم القلوبا) . هذا دأبهم مع كل مسلم ، فلا يتكلمون مع مسلم بما يوجع قلبه ولو كان نصحاً ، فالوعظ إنما ينفع إذا كان على وجه الملاطفة والسياسة ، ويتأكد ترك ما يؤلم مع الزوجة والأهل وكذلك مع الإخوان ، ثم ذكر آدابهم في العمل فقال : (وابتدروا الواجب والمندوبا) . أشار بذلك إلى كال عبوديتهم ، وأنهم يبادرون إلى القيام بحقوق مولاهم واجبة كانت أو مندوبة ، ثم ذكر آدابهم مع الشيوخ والإخوان فقال : (وخدموا الشيوخ والإخوانا) . خدمة المسلمين أمر عظيم في أصول السير إلى الله لما تخلفه في نفوس أصحابها من تواضع ، ولما تعمقه من مفهوم الذلة على المؤمنين وهو أصل من أصول الأخلاق في الإسلام ، ومن لم يعتد على خدمة الإخوان فإن بينه وبين الذلة على المؤمنين حجاباً كثيفاً ، ولاشك أن خدمة الشيخ لها فضلها الزائد ، لما فيها من توقير الكبار فضلاً وسناً ، واعتاد الناس أحياناً أن ينكروا أو يستكبروا مثل هذا ، وهو إنكار في غير محله ، فقد كان ابن مسعود يخدم رسول الله ﷺ ، وكان أنس بن مالك متفرغاً لخدمته عليه السلام .

إن الاستكبار عن خدمة الإخوان والشيوخ مسألة مرتبطة بالكبر والعنجهية ، وغير ذلك من أمراض ينبغي أن يجاهد الإنسان نفسه فيها (وبذلوا النفوس والأبدانا) . أي في هذه الخدمة خدمة الشيوخ والإخوان ثم بعد هذا ذكر آدابهم في العلم وغيره فقال : (وأنصتوا عند المذاكرات) بمعنى أن كلاً منهم يعطي أخاه فرصة أثناء المذاكرات العلمية حتى ينهي كلامه، فإذا تم كلام المذاكر تكلم بما عنده من غير رفع صوت ولا خصام ولا خروج عن الأدب (واحترموا الماضي معاً والآتي) . المراد بالماضي من تقدم من الصحابة والتابعين والأولياء والصالحين والعلماء العاملين فضلاً عن الأئمة المجتهدين واحترامهم ، ألا يذكروا إلا بإحسان ، وأن يعرف على ماذا يحمل كلامهم . والمراد بالآتي احترامهم لأهل زمانهم ، ولو جاؤوا بعدهم - أو حتى من سيجيئون وهم في كبر في السن - فلا ينظرون إلى الأجيال اللاحقة باحتقار بل يعرفون أن فضل الله لا حد له (وسألوا الشيخ عما جهلوا) . وذلك لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وهو معلوم من الدين بالضرورة ، وإنما يسألون عما يحتاجون

إلى معرفته في الحال من عمل أو حال أو مقام (ووقفوا من دون ما لم يصلوا) . أي أنهم لا يتحدثون عن مقام لم يصلوا إليه حديث الزاعم أو الموهم أنه وصل إليه ، أو أنهم لا يسألون إلا عما يلزمهم مما يناسب حالهم ، ابتعاداً بأنفسهم عن التكلف ، أو أنهم لا يتحدثون إلا عن علم ، فما لم يصل إليه علمهم يتوقفون فيه ، فهم يتوقفون عن الحديث في شيء لم يصلوا إلى عمله (وعلوا بكل ما قد علموا) فعلمهم عظيم ، وعملهم مكافىء لعلمهم ؛ إذ العمل هو نتيجة العلم ، فعلم بلا عمل وسيلة بلا غاية ، ومن كلامهم : العلم يهتف بالعمل فإن وجده وإلا ارتحل ، ومن عمل بما علم أورثه الله علم مالا يعلم (وآثروا واغتفروا واحتشموا) . فهذه ثلاثة أخلاق من أخلاقهم في العلم وغيره ، فهم يؤثرون على أنفسهم في الكلام ، ويؤثرون على أنفسهم في صدور المجالس والمحافل ، وكل ما فيه تعظيم إلا إذا قدمهم غيرهم ، فضلاً عن إيثارهم في اللقمة والمال والمنصب وغير ذلك ، وهم يحتشمون عن الكلمة غير العفيفة أو غير المهذبة في المذاكرة أو غيرها ، سواء هاجمهم غيرهم ، أو ترك الأدب ، فضلاً عن احتشامهم من أن يتصرفوا تصرفاً غير عفيف ، أو يقولوا كلمة غير حميدة . والمراد بالاغتفار : المسامحة والعفو عن جفوة الإخوان الذين هم بعد في طور التربية ، والصبر على الغلظة في المذاكرة وغيرها (واحتكموا بالعدل والإنصاف) . فهم يحتكمون للعدل والإنصاف ، ويحكمون إن حكموا بالعدل والإنصاف ، فيحكمون بالعدل على بعضهم بعضاً وعلى أنفسهم ، ومن توجه عليه حق من الحقوق أنصف وأذعن وانقاد للحق ، لا يتعصب ، ولا تستفزه حمية الجاهلية . والإنصاف : هو الاعتراف بالحق متى ظهر من غير توقف وكانوا يقولون : الإنصاف من شيم الأشراف (فوردوا كل معين صاف) . الماء المعين : هو الماء الجاري الذي لا ينقطع ، والصافي : هو الذي لا تغيير فيه . والمراد أن الصوفية لما حكموا بالعدل واتصفوا بالإنصاف شربوا من العلوم أعذبها وأصفاها (وبعضهم كان لبعض عوناً) . تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾[1] . فيعين المسلم أخاه المسلم بنفسه وماله وجاهه وعلمه وهمته وحاله ومناصحته ومودادته إلى غير ذلك . (يلقى لديه دعة وأمناً) . الدعة : الراحة . والأمن : الأمان ، أي كل منهم يلقى عند أخيه راحة في نفسه وأمناً على نفسه وعرضه وأمانته وسره ومقاصده (ينصره في الحق حيث كانا) . تحقيقاً لقوله عليه السلام : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً قال يارسول الله ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً فقال

---

(١) المائدة : ٢ .

تأخذ على يديه فترده عن ظلمه »[١] . (فإن أساء قارضه إحساناً) . أي فإن أساء صوفي إلى أخيه في قول أو فعل ساحه ، وبذل له إحساناً في مقابل إساءته ، فهو يبادله بالإساءة إحساناً تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[٢] . ثم بعد أبيات يتحدث فيها عن قضية يظنها الناس أدباً وليست أدباً يقول : (والقصد من هذا الطريق الأدب ... في كل حال منه هذا المذهب) . أشار في هذا البيت إلى أن الطريق مبنية على الآداب ، بل هي الهدف في الطريق ، فمن لا أدب له لا طريق له ، وبالبيت الأخير تنتهي الفقرة التي عقدها صاحب المباحث الأصلية في الأخلاق والآداب ، وقد نقلنا بعض التعليقات عليها مستأنسين بشرح ابن عجيبة لهذه القصيدة كعادتنا حيث علقنا على ما ننقله من هذه القصيدة .

١ ـ وبمناسبة البيت الأول من هذه الفقرة قال ابن عجيبة :

إن باطن الطريق هو محل تنّزل الأحوال ، والمقامات وهي القلوب والأسرار ، لأنها باطنة لا يعلمها إلا الله ، والفرق بين الحال والمقام أن الحال يتحول فيذهب ويجيء ، بخلاف المقام فإنه رسوخ وتمكين قال في العوارف : كثر الاشتباه بين الحال والمقام ، واختلفت إشارات المشايخ في ذلك ؛ لوجود الاشتباه لمكان تشابهها في أنفسها ، وتداخلها ، فتراءى للبعض الشيء حالاً ، وتراءى للبعض مقاماً ، وكلا الرأيين صحيح لوجود تداخلها ، ولابد من ذكر ضابط يفرّق بينهما ، على أن اللفظ والعبارة عنها تشعر بالفرق ، فالحال سمي حالاً لتحوله ، والمقام مقاماً لثبوته واستقراره ، وقد يكون الشيء بعينه حالاً ثم يصير مقاماً ، مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ، ثم تزول الداعية بغلبة صفات النفس ، ثم تعود ، ثم تزول ، فلا يزال العبد تعاوده الحال ثم يحول الحال بظهور صفات النفس إلى أن تتداركه المعونة من الله الكريم ، فيغلب حال المحاسبة فتنقهر النفس ، وتنضبط ، وتتملكها المحاسبة ، فتصير المحاسبة وطنه ومستقره ومقامه ، ثم ينازله حال المراقبة ، فمن كانت المحاسبة مقامه تصير له المراقبة حالاً ، ثم يحول عنه حال المراقبة لتناوب السهو والغفلة في باطن العبد إلى أن ينقشع ضباب السهو والغفلة ، ويتدارك الله عبده بالمعونة فتصير مقام المراقبة مقاماً بعد أن كانت حالاً ، ولا يستقر مقام المحاسبة قراره إلا بنازل حال المراقبة ، ولا

---

(١) رواه البخاري .

(٢) المؤمنون : ٩٦ .

يستقر مقام المراقبة إلا بنازل حال المشاهدة ، فإذا منح العبد نازل حال المشاهدة استقرت مراقبته ، وصارت مقامه ، ونازل المشاهدة أيضاً يكون حالاً ، ويجول بالاستتار ، ويظهر بالتجلي ، ثم يصير مقاماً ، وتتخلص شمسه من كسوف الاستتار ، ثم في مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال إلى حال أعلى منه ، كالتحقق بالفناء ، والتخلص إلى البقاء ، والترقي من عين اليقين إلى حق اليقين ، يقين نازل يخرق شغاف القلب ، وذلك أعلى فروع المشاهدة . (إنتهى) .

وكذلك التوبة والورع والزهد والتوكل والرضى والتسليم ، تكون أحوالاً ثم تصير مقامات فادامت مجاهدة فهي أحوال ، فإذا كانت ذوقاً فهي مقامات وقد قالوا : الأحوال مواهب لأنها موهبة من الله جزاء على الأعمال ، والمقامات مكاسب لأن التمكين منها مكتسب بدوام الأعمال وفي التحقيق كلها مواهب .

٢ ـ قال السلمي : وعلى كل جارحة أدب تختص بها قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾[1] . وقال بعض المشايخ : حسن الأدب مع الله تعالى أن لا تتحرك جارحة من جوارحك في غير رضى الله عز وجل . فأدب اللسان أن يكون رطباً بذكر الله تعالى ، وبذكر الإخوان بخير ، والدعاء لهم ، وبذل النصيحة والوعظ ، ولا يكلمهم بما يكرهونه ، ولا يغتاب ولا ينم (يعني : لا يمشي بالنميمة) ولا يشتم ، ولا يخوض فيما لا يعنيه ، وإذا كان في جماعة تكلم معهم ما اداموا يتكلمون فيما يعنيهم ، فإذا أخذوا فيما لا يعنيهم تركهم وأمسك ، ويتكلم في كل مكان بما يوافق الحال ، فقد قيل : لكل مقام مقال ، وقيل : خلق الله اللسان ترجماناً للقلب ، ومفتاحاً للخير والشر ، وقيل : إذا طلبت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك ، والزم الصمت ، فإنه ستر للجاهل ، وزين للعاقل قال ﷺ : « وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم ؟ » وآداب السمع ألا تسمع الفحش والخنا والغيبة والنميمة والمناكر . وأنشدوا :

أحب الفتى ينفي المناكر سمعه كأن به عن كل فاحشة وقراً

بل يسمع الذكر والوعظ والحكمة ، وما يعود عليه بالفائدة ديناً ودنيا ، ويحسن الإصغاء

(١) الإسراء : ٣٦ .

إلى مكلمية ومخاطبيه ملتذاً بذلك . وآداب البصر الغض عن المحارم ، وعن عيوب الإخوان ، وعن المنكرات ، وعن المحرمات ، فإن الله تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وقيل : من طاوع طرفه تابع حتفه أي موته ، وفي رواية من أرسل طرفه مات حتفه وأنشدوا :

وإنك مهما ترسل الطرف رائداً	لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
ترى ما الذي لا كله أنت قادر	عليه ولا عن بعضه أنت صابر

ثم قال السلمي : وقيل من غض طرفه تم ظرفه ، وقيل : من كثرت لحظاته دامت حسراته ، ويكون نظره بالاعتبار والاستدلال على قدرة الله تعالى وعظمته ، وجميل صنعه ، عارياً من حظوظ النفس الأمارة بالسوء ... وآداب القلب مراعاة الأحوال السنية المحمودة ، والتفكير في ألاء الله ونعمائه ، وعجائب خلقه قال الله تعالى : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[1] . الآية ، ومن آداب القلب حسن الظن بالله وبجميع المسلمين ، وتطهيره من الظن والحسد والخيانة وسوء الظن وسوء المعتقد فإنها من الخيانة قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾[2] . وقال النبي ﷺ « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح بصلاحها سائر الجسد وإذا فسدت فسد سائر الجسد ألا وهي القلب »[3] . وقال السري السقطي : القلوب ثلاثة : قلب كالجبل لا يحركه شيء ، وقلب كالنخلة أصلها ثابت والريح يميل بها يميناً وشمالاً ، وقلب كالريشة يذهب مع كل ريح ولا يثبت .

وآداب اليدين : (البسط بالبر والإحسان ، وخدمة الإخوان ، وألا يستعين بها على معصية الله تعالى . وآداب الرجلين : السعي بها في صلاح نفسه وإخوانه ، ولا يمشي بها مرحاً ، ولا يختال ، ولا يتبختر ولا يزهو فإنّها مما يبغضه الله تعالى ، وألا يستعين بها على المعاصي) .

وأما الأخلاق : فالمراد بها حسن الخلق مع كل مخلوق ومرجعها إلى الحلم والعفو والصبر أو تقول : مرجعها إلى أن تعامل الخلق بما تحب أن تُعَامَل به أو تقول : مرجعها إلى كف

(١) سورة آل عمران : ١٩١ . (٢) سورة الإسراء : ٣٦ .

(٣) رواه البخاري .

الأذى وبذل الفدا والإنصاف فيا ظهر وما بدا وحمل الجفاء وشهود الصفا ورمي الدنيا بالقفا وقال الغزالي : هو ملك النفس عند الشهوة والغضب ويرجع إلى ما تقدم .

٣ ـ بمناسبة قول المؤلف (فالقوم بالآداب حقاً سادوا ...) قال ابن عجيبة : قلت السؤدد : هو الشرف أي ما ساد القوم وشرفوا إلا بالآداب مع الله ومع رسوله ﷺ ومع أشياخهم ومع سائر المسلمين . فالآداب مع الله بامتثال أمره ، واجتناب نهيه ، والاستسلام لقهره ، وقال الشيخ زروق رضي الله عنه في شرح الحكم : هو حفظ الحدود ، والوفاء بالعهود ، والتعلق بالملك الودود ، والرضى بالموجود ، وبذل الطاقة والمجهود ، والأدب مع رسول الله ﷺ باتباع سنته ، وإيثار محبته ، والاهتداء بهديه ، والتخلق بأخلاقه ، والأدب مع الأشياخ بحفظ الحرمة ، وحسن الخدمة ، وصدق المحبة ، والأدب مع المسلمين بأن تحب لهم ما تحب لنفسك أو أكثر ، وتقدمت آداب الجوارح فلابد منها ، وكذلك آداب الأوقات ، وهي تعميرها بالطاعات فأوقات العبد أربعة ـ كما قال الشيخ أبو العباس رحمه الله ـ: وقت الطاعة ، ووقت المعصية ، ووقت النعمة ، ووقت البلية ، فوقت الطاعة مقتضى الحق منك شهود المنة ، ووقت المعصية مقتضى الحق منك تحقيق التوبة ، ووقت النعمة مقتضى الحق منك الشكر ، ووقت البلية مقتضى الحق منك الصبر ، فإذا قام العبد بهذه الآداب كلها حصل له الشرف التام ، والمنزلة الكبرى عند الخاص والعام .

٤ ـ وبمناسبة قول المؤلف (إذ نصحوا الأحداث والأصاغر ...) قال ابن عجيبة : ونصحهم بغرس الخير في قلوبهم كما قال ابن أبي زيد في رسالته : وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليها . وقال السلمي رحمه الله : والصحبة مع الأصاغر بالشفقة والإرشاد والتأديب والحمل على ما يوجبه حكم المذهب ، ويدلهم على ما فيه صلاحهم لا على ما فيه مرادهم ، وعلى ما يفيدهم لا على ما يحبونه ، ويزجرهم عما لا يعنيهم .

٥ ـ وبمناسبة قول المؤلف (واجتنبوا ما يؤلم القلوبا ...) . قال ابن عجيبة : ويرحم الله الشافعي (إذ يقول) :

إذا شئت أن تحيا ودينك سالم ... وجاهك موفور وعرضك صيّنُ
لسانك لا تذكر به عورة امرىء ... فعندك عورات وللناس ألسنُ
وعينك إن أبدت إليك معايباً ... فصُنْها وقل ياعين للناس أعينُ

وعاشر بمعروف وجانب من اعتدى   وفـــارق ولكن بـــالتي هي أحسنُ

قال الشيخ زروق : فهذه الأبيات جامعة لجميع ما يؤلم القلوب بطريق الاجتناب ، فمن عمل عليها سلم من هذه الآفات التي أصلها كلها التجسس عن أخبار الناس ، وسوء الظن بهم . (إنتهى) . ونختم هذا الفصل بكلمة ابن عطاء في الأدب . وبكلمة للجنيد .

(خف من وجود إحسانه إليك ودوام إساءتك معه أن يكون ذلك استدراجاً لك ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[1] من جهل المريد أن يسيء الأدب فتؤخر العقوبة عنه فيقول : لو كان هذا سوء أدب لقطع الإمداد وأوجب الإبعاد فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر ، ولو لم يكن إلا منع المزيد . وقد يقام مقام البعد وهو لا يدري ، ولو لم يكن إلا أن يخليك وما تريد) .

ويقول الجنيد : (ما أخذنا التصوف عن القيل والقال والمراء والجدال وإنما أخذناه عن الجوع والسهر وكثرة الأعمال) .

فصل : في بعض آداب الشيوخ :

من أدب الشيوخ والمربين والدعاة أن يبدأوا مع المريدين والتلاميذ باللطف والإيناس والرفق ليصلوا إلى قلوبهم ، ويستكشفوا استعداداتهم ، ويزيلوا ما بينهم وبينهم من الحجب . فكثيراً ما يهجم المربي أو الشيخ أو الداعية على المريدين والتلاميذ بأنواع التكاليف فينفرون ، أو يفرون ، ففي هذا النوع من البدايات ما فيه ، لأنه يجافي الحكمة . إن هناك فارقاً بين مريد جاء إلى شيخ وطلب منه أن يقرئه كتاباً ، مثل هذا لو بُديء معه في العلم مباشرة فذلك جيد ، ولكن قد يأتي إنسان مسترشداً أو مستطلعاً ، ففي مثل هذه الحالة لو بديء بالتعارف والسؤال والجواب والتعليق اللطيف ثم التكليف غير المرهق فإن ذلك يكون أجود ، وفي ذلك قال الجنيد : إذا لقيت الفقير فلا تبدأه بالعلم وابدأه بالرفق ، فإن العلم يوحشه ، والرفق يؤنسه . وعلق الإمام الغزالي على هذا بقوله : (وبرفق الصوفية بالمتشبهين بهم ينتفع المبتدىء الطالب وكل من كان منهم أكمل حالاً وأوفر علماً كان أكثر رفقاً بالمبتدىء الطالب) .

---

(١) القلم : ٤٤ .

ومن آداب الشيوخ والمربين والدعاة أن يحاولوا نقل الإنسان ولو نقلة بسيطة من الخير فكل نقلة في الخير مهما كانت قليلة فإنها تدفع بالإنسان إلى الله ، لأن الله عز وجل من شأنه أنه من تقرّب إليه شبراً تقرّب إليه باعاً ، وعلى هذا فأي زحزحة للإنسان من حال إلى حال أعلى منه مع النية الصالحة تدفع الإنسان نحو باب الله عز وجل . ولذلك فإن المشتغلين في الدعوة والتربية عليهم أن يبذلوا جهداً لنقل الإنسان نقلة ما ، مهما كانت بسيطة لأن هذه النقلة قد تكون مقدمة لما هو أعلى منها وأرقى .

ومن آداب الشيوخ : الإنصات الكثير لكل متكلم ، ومعرفة ما يصدّق وما لا يصدّق ، والتمييز بين من يصدّق ومن لا يصدّق ، ثم معرفة حدود الموافقة للآخرين ، وهذا كله نأخذه من قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] ومن قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾[2] . فكل ما فيه مشقة بالمسلمين وإرهاق لهم لا يطيع فيه رسول الله ﷺ أحداً ، ومن أدبه عليه الصلاة والسلام أنه « ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً » . والأدب الرئيسي للشيخ بعد التعليم هو تزكية النفوس ، والتزكية تدور بين تخلية وتحلية ، وفي باب التحلية والتخلية أنت بين أمرين : إما أن تتحلى بخلق وتتخلى عن خلق ثم تنتقل إلى آخر حتى تصل إلى الذروة في الكمال ، وإما أن تضرب ضربة واحدة أصل كل خلق ذميم ، وتتحقق بالأصل الذي ينبع عنه كل خلق حميد ، ثم يأتي كل شيء بعد ذلك ويكون الكمال وهذا طريق آخر . يقولون : إن الإسكندر المقدوني قبل أن يبدأ فتح العالم مر على معبد فقال له كهنته : إن العالم لا يفتحه إلا من استطاع أن يحل عقد هذه الكتلة من الخيوط المعقود بعضها ببعض ، فما كان من الإسكندر إلا أن ضرب الكتلة بسيفه فانحلت عقدها كلها . وكذلك الشيخ الكامل إذا جاءه المريد الصادق فإنه بضربة واحدة يستطيع أن يحل له عقده كلها ليجعله ينطلق من جديد . إن أخصر طريق لتحقق النفس بكل كمال وتخليتها عن كل نقص أن توضع النفس في ظرف تتخلص فيه دفعة واحدة من ربوبيتها ، وتتخلق بعبوديتها متحلية بصفات الكمال ، وأعظم المربين هو الذي يستطيع أن يعرف كيف يضع المريد في نقطة البداية هذه ، وأصدق

(١) التوبة : ٦١ . (٢) الحجرات : ٧ .

الطالبين من لا يبالي أن يفعل ما أمر به في سبيل الوصول إلى هذا ...

ولنشرح المسألة : حضيض الأخلاق السافلة ، الكبر والعجب والرضى عن النفس ، إذ عن هذه الأخلاق تنبع كل رذيلة ، فمتى كان في القلب شيء من هذا حجب عن الحق وعن قبوله ، وحجب عن الانتفاع ، وحجب عن الله وآياته ، وبدون أن يتخلص القلب من هذه الأمراض فلا فائدة ترجى منه ، ولا يتوقع أن يتفجر خيره ، بل هو مظنة بأن يوجد عنده الحسد والحقد والعدوان والغل والبغي والصد عن سبيل الله وغير ذلك ، ويكفي للتدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ... ﴾[1]وإذاً فالطريق الأخصر هو أن يتخلى الإنسان عن هذه المعاني كلها دفعة واحدة ، وبداية ذلك أن يكون عنده استعداد للتلقي ، فمن رضي أن يكون تلميذاً وأن يضع نفسه في حجر التربية فإنه يتخلى مباشرة عن قسم كبير من هذه المعاني ، فإذا كان المربي عارفاً بالله ، عالماً بالشريعة ، خبيراً بأمراض النفوس ، أشار عليه بأمر ما ، أو ألزمه إياه ؛ فحرره من البقية الباقية من هذه المعاني من نفسه ، كأن يأمره بخدمة إخوانه أو يأمره بالتواضع لخلق الله والجلوس حيث انتهى به المجلس ، أو يأمره بالتلمذة على من دونه ، يأمره بمخالفة نفسه ، فإذا فعل طالبُ اللهِ مثلَ هذا فإنه يتحرر من كل قيد ، ويصبح وقد أسقط الخلق من اعتباره ، ولم يعد يرى إلا الخالق لينطلق بقلب جديد . إن هذه مهمة الشيخ الأولى ، ثم تأتي بعد ذلك مهماته الأخرى ، ولكن هذا لن يتم إلا إذا وجد صدق عند المريد ، إن أكثر الناس لا يجتمع لهم العلم والشعور والعمل ، أو العلم والحال ، ولا يعرفون الطريق لاستكمال هذه . وهذا باب من الجهل عظيم .

إن هناك علماً بالله وبشريعته ، وأحياناً قد تجد علماً بالله وبشريعته ولا تجد تقوى ، وقد تجد تقوى ولا تجد كمالاً في الأخلاق ، فما السر في ذلك ؟ السر يعود إلى أن العلم بالله لم ينتقل من إطاره الفكري والعلمي إلى إطاره الذوقي والشعوري ، وإذا لم ينتقل إلى إطاره الذوقي والشعوري فإنه لا يكون موجهاً التوجيه الكامل ، وعجز المربين أحياناً يكمن في كونهم لا يعرفون الطريق إلى نقل الإنسان من العلم الاستدلالي بالله إلى العلم الشعوري به جل جلاله ، ومن ثم يبقى فارق كبير بين العلم والشعور ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ

(١) الأعراف : ١٤٦ .

وَقَلْبِهِ ﴾[١] وقد لا يكون السبب عجز المربي وإنما زهد الناس في مثل هذه ؛ لعدم المعرفة بالقيمة الحقيقية للأشياء ، فمن كان يعلم أن ما يزيده معرفة في الله يُشترى بالأرواح ، مثل هذا قريب أن يحصل ، أما من لم يكن يعلم ذلك فأني له أن يبذل جهداً ، أو أن يعمل في ذلك عملاً . فأن تعرف أن الله سميع وبصير وقدير ، هذا فرض الفروض عليك ، ولكن أن تشعر بأن الله يسمعك ويراك ، وأن كل شيء في هذا الكون فعل الله ، ثم أن يرى قلبك أن أفعالك كلها فعل الله فهذا أثر صحيح للمعرفة الأولى .

إن مشكلة كثير من الخلق أن إحساساتهم القلبية تقف عند حد واحد لا تتعداه ، ومهمة الشيخ أن ينقل الإنسان في عالم الإحساسات من مرحلة إلى التي تليها ، وألا يبقيه عند إحساسات أدنى مع وجود إحساسات أعلى منها ، إن هذا هو طريق التربية الصحيح ، وهذا هو الطريق لاستكمال شرط العمل الصحيح ، فبقدر المعرفة الشعورية لله يكون الالتزام بأمره ، فبقدر ما تعرف أن كل شيء فعله ، تتحقق بالتوكل ، وبقدر ما تعرف أن ما سواه فانٍ يكون الإخلاص له ، وبقدر ما تعرف جلاله تخشى معصيته ، وبقدر ما تعرف من جماله تطيعه ، وهذه بعض مهمّات الشيوخ ، فإذا فشل الشيخ في مثل هذا فقد فاتته أهم الأمور .

إن مهمتي الشيخ الأوليين : التعليم والتزكية ، وهذا يقتضي جهداً وترتيباً وتنظيماً لكثير من الأمور ، فالسير لابد فيه من المذاكرة الدؤوب وحكمة المربي ، وتمر على الطالب فترات من الفتور ، وفترات من النشاط ، وفترات من الجذب الروحي ، وفترات من غلبة الشهوة ؛ ومن ثم كان حضور الاجتماع العام ضرورياً لتأخذ روح السالك من أرواح إخوانه ، ويمتص قلبه من أرواح إخوانه ، وليسمع ما يستجيش بواعث الطموح نحو الربانية في قلبه ؛ فللاجتماع بركة خاصة ، وسكينة خاصة ، وتجليات خاصة ...

إذا اتضح هذا كله فهل للوصول إلى هذه المعاني طريق خاص وذكر خاص ؟ الذي عليه الرسول ﷺ وأصحابه ، والذي تؤيده السنة ، ويشهد له حال الأمة ، أنه ليس لذلك ذكر بعينه ؛ بدليل أن الرسول ﷺ لم يكن يلقن ورداً بعينه لكل صحابي ، وبدليل أن الطرق الصوفية لكل منها وردها ، مع أنها تقول : إن النهاية واحدة ، فالمسألة إذن ترجع إلى حكمة

(١) الأنفال : ٢٤ .

المربي ، واستعداد الطالب وحاله ، فلكل ذكر آثاره في النفس ، والأنفس مختلفة ، والمهم أن يكون المربي عارفاً بتأثير كل ذكر على نفس الإنسان ، وأن يعطي لكل إنسان ما يناسب حاله الذي هو فيه ، وأن يلفت نظره إلى أن يلاحظ ما تنبغي ملاحظته ... فإذا أمره بلا إله إلا الله مثلاً ، يلفت نظره إلى معنى من معاني لا إله إلا الله مرة ، وإلى معنى آخر مرة أخرى ، أو يأمره بملاحظة المعاني واحداًبعد واحد في الجلسة الواحدة ، وإذا أمره بذكر إسم الله (الله) يأمره بملاحظة أن يقرأ الوجود الظاهر كله بهذا الإسم ، ثم يقرأ الوجود الغيبي كله بهذا الإسم ، ثم وثم . هذا كله من مهمات الشيخ الأولى ، ولكن له ـ بجانب ذلك ومع ذلك وفوق ذلك ـ مهمات . أن يربي المسلم على أنه جزء من أمة ، وأن يربيه على القدرة على الكون في الصف الإسلامي الواحد ، ثم أن يكون هو وإياه في هذا الصف ، سائرين في الطريق ؛ لتحقيق الأهداف الإسلامية على كل مستوى ، وتحمل ما يقتضي ذلك من تضحيات ومحن . إن هذا كله أدب الشيخ بل واجبه ، وفي مقابل ذلك فإن المريد لابد أن يتحقق بالصدق في الطلب ، وأن يملك حسن الأدب ، وأول ذلك الاحترام الكامل الذي لا يمنع من قولة حق ، أو من النصحية الخالصة يقدمها للشيخ . فنحن أمة يجمعها أدب احترام الصغير للكبير ، ورحمة الكبير للصغير ، في إطار النصيحة الخالصة فيا بين الجميع . والشورى الواسعة التي هي أدب الجميع ، مع ملاحظة أن لكل قضية دائرة من الشورى بحسب هذه القضية .

فصل : في الأخلاقية العامة للصوفي :

قال صاحب المباحث : (ونسبوا الصوفي للكمال) وذلك لوراثته العلم والعمل والحال ، وأخذه الكمال من مقامات الإسلام والإيمان والإحسان والتقوى والشكر ، فهو قد أخذ من مقام الإسلام أعلى درجات العمل ، وأخذ من مقام الإيمان اليقين والاطمئنان ، وأخذ من مقام الإحسان المراقبة والمشاهدة ، وأخذ من مقام التقوى كمال الاستقامة على أمر الله ، وأخذ من مقام الشكر الخالص العبودية الظاهرة والباطنة (وضربوا معناه في المثال) . وضربوا للصوفي أمثلة شبهوه بها تعبيراً عن تحصيله لهذا الكمال ، وهي ما سيأتي (فهو كالهواء في العلو) . أي الصوفي كالهواء في اللطف ، وفي احتياج الخلق له ، ومع عدم شعورهم بوجوده ـ تقريباً ـ فتصرفاته في غاية اللطف ، وفي غاية البساطة ، والناس في غاية الاحتياج إليه ،

ولا يكادون يحسون به إلا عند فقده لكثرة اللطف ، وعدم التكلف ، وانسجام الفعل مع العقل والفطرة والسلوك القريب إلى النفس ، ثم هو كالهواء من حيث ارتفاعه عن الأرض مع مخالطته لها ، فهو مع أبناء جنسه من بني البشر ، ولكنه في علو الهمة ، في الإقبال على الله مباين للآخرين ، مرتفع عنهم ، لا مترفع ، وشتان بين الحالين (ثم كمثل الأرض في الدنو) فهو كالأرض للمسلمين يطؤونها ، وتتحملهم وتعطيهم من ثمارها الخيِّرة ، بل يطرح عليها كل قبيح ، وتعطي المليح ، فالصوفي في غاية التواضع ، وفي غاية الحلم ، وفي غاية التحمل ، وفي غاية العطاء (ثم كمثل النار في الضياء) أي هو كالنار في كونها تضيء من ناحية ، ومن ناحية أخرى تحرق ما يلقى فيها ، فالصوفي ينير للخلق الطريق ، ويحرق كل الأخلاق الرديئة في نفسه ، كما أنه يحُرق ـ من خلال الكلمة والقدوة والتوجه ـ الأخلاق الرديئة عند كل من يخالطه أو يصحبه أو يتتلمذ عليه . (ثم كمثل الماء في الإرواء) فالصوفي يروي القلوب الظمآى إلى الخير المحتاجة إلى الري ، بالإيمان واليقين ، ويروي الأرواح الظماى إلى معرفة الله والعبودية له . ويروي العقول الظمآى إلى الحقائق الخالصة ، فالصوفي الكامل ـ إذن ـ هذا شأنه في لطفه وتواضعه وإنارته للطريق .

فصل : في طريقة حكمية في الدعوة إلى الله :

كان بعض شيوخنا يرى أنه في عصرنا ينبغي أن نلاحظ أمراً مهماً في الدعوة إلى الله من أجل إرجاع مَنْ أصوله إسلامية ؟ إلى إسلامه . إن هناك كثيراً من الحالات يصادفك بها مسلم ـ في الأصل ـ قد عقّدته أشياء كثيرة حتى كاد الكفر أن يسرقه أو سرقه فعلاً ، فلم يبق له من الإسلام إلا الاسم ، وفي كثير من الأحيان لا تجد فرصة لتقول لهذا الإنسان شيئاً ، ثم نحن الآن في مرحلة ضعف ، فكان الشيخ ينصحنا أن نستعمل سلاح الإحسان ، فالإحسان هو الذي يستخرج الخير من قلب الإنسان ـ إن كان فيه خير ـ. ومن الإحسان التحمل والصبر ، ولقد كان من خلق رسولنا عليه الصلاة والسلام أنه لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً ، إنه من خلال الإحسان يمكن أن نصل إلى بعض القلوب ، ومن خلاله نستطيع أن نقول كلمة ، أو نخفف حقداً ، ويكون ذلك كله وسيلة هداية . ولابد من الإخلاص في هذا الشأن وغيره ، ولابد من ملاحظة أدب الوقت ، وحق الوقت ، وواجب الوقت ، ثم حكم الله في موقفنا المناسب من كل حالة ، إذ ذكر علماؤنا أن الدعوة إلى الله بدايتها البيان ، ثم

الوعظ ، ثم التعنيف ، ثم وثم وهذه النصيحة تصلح كمقدمة للبيان في بعض الحالات ، وتصلح إذا كان حق الشرع يقتضي منا ذلك ، ولكن قد يكون حق الشرع في بعض الحالات أن نهجر ، أو نعنف أو غير ذلك ، وكل ذلك ينبغي أن يراعى ، ولا يوفق إلى أن يضع الأمور في مواضعها إلا حكيم ، ولا حكمة إلا بتوفيق الله عز وجل .

فصل : في خُلُقٍ عظيم يحرص عليه الصوفية :

من العبارات الصوفية المشهورة : (الصوفية بخير ما تنكروا) . هذه العبارة من أشهر العبارات المتوارثة في حلقات التصوف والمعنى : أن الصوفية بخير ما أمر بعضهم بعضاً بالمعروف ، ونهى بعضهم بعضاً عن المنكر ، أي هم بخير ما لم يسكت أحدهم عن منكر أخيه ، والحقيقة أن المسلمين جميعاً لا يكونون بخير إلا بهذا الخلق فالله عز وجل قال : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ * ﴾[1] .فلا فلاح للإنسان إلا إذا اجتمع له إيمان مع عمل صالح ، وتواصٍ بالحق وبالصبر . فالتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، أحد أركان النجاة عند الله عز وجل ، ولقد استحق اليهود اللعنة من الله : بتركهم الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر فيما بينهم ، وقد أنذرنا رسول الله ﷺ لعنة الله عز وجل ، وتشتيت قلوبنا ، إذا لم يأمر بعضنا بعضاً بالمعروف ، ولم ينه بعضنا بعضاً عن المنكر ، إن من سنة الله عز وجل أنه لا يؤلف بين قلوب عباده إلا إذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خلقاً من أخلاقهم قال الله عز وجل : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ ﴾[2] . فمن اجتمعت لهم هذه الصفات فهم الموعودون من الله عز وجل بالرحمة ، التي من آثارها وحدة القلوب على الله عز وجل . قال تعالى : ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾[3] . فالمرحومون هم الذين لا يختلفون ، ولا مرحومين هذه الرحمة الخاصة إلا من اجتمع له مجموعة أخلاق ، من جملتها الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فأين هذا من حال الناس اليوم ؟ وهذا مظهر من مظاهر الخلل ، وفي بعض الدوائر كثيراً ما يكون الأمر

---

(١) سورة العصر .

(٢) سورة التوبة : ٧١ .

(٣) سورة هود : ١١٨،١١٩ .

على عكس ما ينبغي ؛ فبدلاً من أن يربى الإنسان على الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والنصيحة ، يربى على التسليم لحال الشيخ ، حتى لو رآه المريد على المنكر ، وبدلاً من أن يعرّف المريد على المعروف كله ، وعلى المنكر كله ، من خلال العلم الصحيح ، فإنك تجد الجهل بالمعروف والمنكر عاماً وطاماً في بعض الدوائر ، لدرجة يصبح فيها المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، وما أصعب ذلك ، وما أبعده عن هدي دين الله عز وجل ، ولهذا كله فإنه لابد من عودة كاملة إلى هذا الخلق حتى يأخذ طابع البديهية عند كل مسلم في الفكر والسلوك ، فيصبح الواحد منا بكل بساطة ، يقول لأخيه : هذا خطأ ياأخي ، ويقول له الآخر : جزاك الله خيراً ياأخي ، يقولها بكل أدب الصغير للكبير ، وبكل إخبات يقبلها الكبير ، ولو جاءت على لسان الصغير ، وأما الشيخ فينبغي أن يهش لذلك ويبش ؛ ليعوّد المريدين على ذلك ، ولابد للجميع أن يقفوا موقفاً حازماً من المنكر ، حتى ينتهي ، مع ملاحظة أنه ينبغي أن يزال المنكر بالطريقة الحكيمة التي لا يترتب عليها منكر أكبر ، وألا يتجاوز في الإنكار الحدود الشرعية ، ولحجة الإسلام الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين بحث عن المنكر ما أظن أن الإنسان يعثر على مثله في بابه فليراجع .

فصل : في بعض آدابهم في الطعام :

من كلام صاحب المباحث الأصلية في هذا الموضوع : (وأدب القوم لدى الطعام) جمّ (فمنه ترك الاهتمام) . أي آداب القوم عند تناول الطعام أو قبله كثيرة : فمنها عدم اهتمامهم به قبل الحاجة إليه ، إلا إذا كان على الإنسان مسؤولية في شأنه لغيره (وقلة الذكر له إن غابا) . أي من آدابهم قلة ذكر الطعام قبل حضوره ، لأن ذكره دليل تعلق النفس وتشوّفها إليه (لكونه عندهم حجاباً) . أي لأن ذكره حجاب عن أشياء كثيرة ، باشتغال النفس فيه ، لولوعها به طلباً وذكراً . فأن يكثر الإنسان من ذكره فذلك انشغال ، وتضييع لأوقات كثيرة في غير مهم ، هذا عدا عن كون ذلك من علامات ضمور الهمة ، وعدم المبالاة بالمروءات (بل أنزلوه منزل الدواء ، عند العليل بغية الشفاء) . أي أن الصوفية أنزلوا الطعام والشراب منزلة الدواء لقيام هذا البدن ، فلا يتناولون منه إلا قدر شفائه ، وهو ما به قوامه ؛ أخذاً من الحديث الصحيح « بحسب ابن آدم لقيمات يقمن

صلبه » . فلا يتناولون منه إلا قدر قوام البدن ، ولا يذكرونه ولا يهتمون به إلا قليلاً ؛ اشتغالاً عنه بما هو أهم ، من ذكر أو فكر أو شهود أو معاملة ظاهرة ، وإذا تناولوه قصدوا به التقوى على طاعة الله (ولم يكن همهم بجمعه ... وكسبه وفضله ومنعه) . إذ أن السائر إلى الله همه الوصول إلى الله ، والوصول إلى رضوانه ، كما أن من آدابه أن يلحظ في كل عمل من أعماله أن يكون عمله كله طاعة لله ، وتنفيذاً لأمره جل جلاله ، فإذا أصبح تأمين الطعام في حقهم ، أو في حق عيالهم فرضاً ، أو واجباً أو سنة ، فهم عندئذ يعملون ملاحظين ذلك . قال ابن عجيبة (ومن اشتغل منهم بشيء من الأسباب فإن ذلك قياماً برسم العبودية ، وإن حصل منها شيء كانوا فيه أمناء على وجه أنهم خزان المملكة يترصدون سدّ الخلل ، فيمسكون ما أمروا بإمساكه ، ويرسلون ما أمروا بإرساله) والمراد بالفضل في البيت : زيادات الطعام ، فليس همهم في زياداته ، وليس همهم بمنع الطعام عن خلق الله ، بل في غير ذلك مما ذكرناه (ولا استقلوه ولا عابوه) . أي من آداب القوم عند حصول الطعام ألا يستقلوه بأن يصغروه ، ومن آدابهم ألا يعيبوا طعاماً تحققاً بسنة رسول الله ﷺ ففي الحديث « ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قط كان إذا اشتهاه أكله وإلا تركه »[1] . فهم لا يحتقرون الطعام ولو كان قليلاً أو رديئاً ، فمن آدابهم أن يتلقوا القليل من صاحبه الذي أتى على يديه بالبسط والفرح ، والتعظيم والتكثير والتبريك ، ويبتدئون بأكله قبل غيره ؛ تطييباً لخاطر صاحبه ، ورفقاً بقلبه ، وكذلك يفعلون في الطعام الخشن أو الردىء (ولم يكن قصداً فيطلبوه) . أي أن الطعام عند الصوفية لم يكن مقصوداً لعينه ؛ فإنهم لا يطلبونه على وجه يصبح هدفاً في حد ذاته كحال الجشعين والشهوانيين (والقوم لم يدخروا طعاماً) . وهذا ذروة الأدب في شأن الطعام وغيره . قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾[2] . فالصوفية المتقدمون كانوا يأخذون قدر حاجتهم في الوقت ، ويتصدقون بالزائد ، وقد اختلف اجتهاد المتأخرين منهم بعد انتشار الحرام ، وشح الناس ، وتعطل الأحكام في المجتمع الإسلامي ، حتى اعتبر بعضهم أن استغناء الشيخ عن مريديه من أخلاقه ، وذلك لا يتأتى له إلا إذا كان ذا مال ، وهم في الأصل لا يحرمون الإدخار ؛ فرسول الله ﷺ كان يدخر قوت سنة لعياله في أخريات حياته عليه الصلاة والسلام ، فالموضوع إذن له أحواله المتعددة ، والفتوى تقدر زماناً ومكاناً وشخصاً (بل تركوا الحلال والحراما) .

---

(١)متفق عليه .

(٢) سورة البقرة : ٢١٩ .

تركوا الحرام تقوى ، وتركوا التوسع في الحلال ورعاً . قال ابن عجيبة : فتركوا الحلال زهداً ، وتركوا الحرام تقوى ، وتركوا المتشابه ورعاً (إلا يسيراً قدر ما تيسرا) . أي إلاّ قليلاً من الحلال بالقدر المتيسر ، والذي دعاهم إلى التقلل - حتى من الحلال - تعذر الحلال المحض بسبب فساد المعاملات ، وضعف الفقه في الحلال والحرام عند أكثر الخلائق ، وقلة الورع ولذلك قال صاحب القصيدة : (إذ الحلال المحض قد تعذرا) . الحلال المحض : هو الخالص الذي لا شوب فيه ولا اختلاف ، أو هو الحلال بالنسبة لعلم الله ، وذلك لم يكلفنا به الله عز وجل ، ولما كثر الفساد ، وأصبح هذا النوع من الحلال الخالص قليلاً ، فإن الصوفية ألزموا أنفسهم بأن يأكلوا ضمن حدود الحاجة فيما لم يعلموا حرمته قطعاً ، وما أكثر هذا النوع . قال ابن عجيبة : وكثيراً ما يجري على ألسنة المتدينين أن الحلال ضالة مفقودة ، أو معدوم ، وهو أمر يجعلونه عكازاً للاسترسال ، وأخذ كل ما [وصلت إليه أيديهم] . بل الحلال موجود ، ولو لم يكن موجوداً في كل زمان ما كلفنا بطلبه ، ولا انْقطعَ أولياء الله ؛ إذ هو قوتهم ، وذلك باطل ، وإذا حرمت الكل حللت الكل ، وكل من بيده شيء يستأنف فيه حكم الله ، ومن كلام ابن عجيبة : (إذا فقد [أي الحلال] رأساً أُقيم من عشرة أشياء : تجارة بصدق ، وإجارة بنصح ، وأشعاب الأرض غير المملوكة ، وهدية من أخ صالح ، وصيد البر حيث يباح ، وصيد البحر ، ومهر النساء بطيب نفس ، وقسمة المغنم على وجه شرعي ، والميراث ، والسؤال عند الحاجة) .

أقول : وللغزالي في إحيائه بحث نفيس في قضايا الكسب فليراجع ، ويمكن أن يتوصل إلى المال الحلال عن طرق أخرى غير التي ذكرها الشيخ ، وبعض العلماء قالوا : إن المال الحرام لا يتجاوز ذمتين ، فإذا وصل إلى إنسان مال حرام ، ولم يعرف عينه ، ثم انتقلت ملكية هذا المال إليّ بطريق مشروع حتى بالهدية ، فإن هذا المال في حقي حلال على رأي هؤلاء ، ولذلك فإن أكثر العلماء مذهبهم عدم التدقيق في السؤال عن أصل الأشياء ، ولذلك ذهبوا إلى أن الحلال ما جُهل أصله (واجتنبوا طعام أهل الظلم ... والبغي والفساد خوف الإثم) . قال ابن عجيبة : (أهل الظلم هم ملوك الجور والعمال المضروب على أيديهم ، وأهل البغي هم السراق والمحاربون ، وأهل الفساد من يتعامل بالربا وبالمعاملة الفاسدة ولا يتحاشى من الحرام) . وقال الشيخ زروق : (وأما تجنبهم طعام الظلمة ونحوهم فلوجوه : أحدها : ما في إرضائهم من الموالاة التي لا تحل ، أي لأنهم يفرحون بأكل طعامهم من أهل الصلاح

والخير ، مع ما هم عليه من الظلم ، ما لم يخش الضرر الواضح . الثاني ما فيه من تسلطهم على المنتسبين إما بسوء الظن بالجهل ؛ لاعتقادهم حرمة ما بأيديهم ، وأن من يأكله لا خلاق له ، فيستهينون بهذا الشخص بل بكل أهل جنسه بجعله حجة على غيره ، فمن لا يقدر أن يتوسع توسعه لورع ، أو ضيق حظيرة أي ضيق دائرة معرفته فيقول له : فلان أكبر منك أكل طعامي ، وما تكون أنت منه فيؤذي ذلك . الثالث : ما فيه من إعانتهم على ما هم فيه ؛ إذ يرون أنفسهم حينئذ أنهم من أهل الخير . الرابع : ما في ذلك من ميل النفس لهم ومحبتهم ، حكى أبو نعيم في حليته أن ابن المبارك دخل على الخليفة فوعظه وذكّره ، فأعطاه مالا ، فاشترى به عبيداً فأعتقهم ، فقال له محمد بن واسع في ذلك فقال له : ذكّرتهم بالله ووعظتهم ، وأخذت منهم مال الله وصرفته في وجهه فقال محمد بن واسع : آلله هل قلبك الآن لهم كما كان ؟ قال لا . فاستغفر رحمة الله على الجميع . الخامس : ما في ذلك من تناول الشبهة من غير ضرورة فقد قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه : من كان من فقراء هذا الزمان مؤثراً للسماع ، أكولاً لأموال الظلمة ففيه نزعة يهودية . قال الله تعالى : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾[1] ا.هـ باختصار . السادس : ما يلحقه بسبب ذلك من الذلة ، وتغيير الحال ، كما اتفق لكثير من الناس ، واتخذه بعضهم ـ أي بعض الكبراء ـ سياسة ، فإذا رأى فقيراً استظهر عليهم بالقوة ، وخافوا دعوته أو غيرها والوه ، واحتالوا عليه ؛ حتى يدخل في أيديهم ، فلا يمكنه التعزز عليهم ، وقد كان بعض مشايخ المغرب يقول : (الفقير لا يمشي بالليل ولا يهرب بالنهار) إن رأى ما يخاف ولا يأكل طعام الظلمة (قلت :) لأن هذه كلها تورث الذل . السابع : ما في ذلك من فتح باب التشويش ، باعتقاد الناس أن له عندهم جاهاً ؛ فيتوجهون له بطلب الشفاعة ، وذلك أمر لا يمكنه استيفاؤه ، وقلما تعلق به رجل فسلم في ديانته ، والله تعالى أعلم ، وهذا كله ما لم تكن ضرورة والمرء فقيه نفسه (بل أكلوا مما استبان حله غير الذي لا يعرفون أصله) قال ابن عجيبة : يعني أن القوم لا يأكلون إلا ما ظهر حله ، وتحققت إباحته ، ولا يأكلون مما لا يعرفون أصله ، هل هو حلال أو حرام ، ولعل ذلك مع قيام الريبة والشك . أقول : وقد مر معنا هذا الموضوع من قبل فراجعة .

---

(١) المائدة : ٤٢ .

(ولم يكونوا كرهوا الكلاما عليه لكن كرهوا الإرغاما)

قال ابن عجيبة : الكلام على الطعام حسن ، لأن السكوت على الطعام يدل على الشره والنهمة ، ويستحب أن يكون بعلم ، أو بحكايات الصالحين ، ويكون الكلام بعد بلع الطعام ، لا في حال مضغه ، لأنه ربما يخرج شيء من فمه فيسقط في الطعام ، فيقذره على غيره ، فلا يتكلم الآكل ما دام الطعام في فمه ، وقد ذكر عن بعض المشايخ أنه استحب أن يسمي عند كل لقمة ، ويحمد عند ابتلاعها قال ابن الحاج : وهذا أمر حسن ، ولكن السنة لم ترد به ، وهي أحسن من كل ما سواها ، فلم يكن القوم يكرهون الكلام في حال الطعام ، ولكن كانوا يكرهون الإرغام ـ أي التحتيم على الإخوان في الأكل ـ؛ لما في ذلك من التكلف المنهي عنه ، بل الأدب في ذلك تركه يفعل ما يشاء ، وقد يكون قولك له « كُلْ » سبباً في رفع يده حياءً ، وإذا شعر صاحب الطعام أن ضيوفه يخجلون من الأكل عند حضوره فإنه يحاول أن يتغيب بحجة عمل أو غيره ؛ ليعطيهم فرصة يأخذون فيها حريتهم :

ويكرهون الأكل مرتين في اليوم والمرة في اليومين .

المراد باليوم هنا النهار . قال ابن عجيبة : والمراد باليوم بياض النهار من الفجر إلى الغروب ، وقال : ويفهم من كلام الناظم أن الممدوح هو الأكل مرة في اليوم يعني : مرة في النهار ، ومرة في الليل ، وهو الوسط ، وأن الأكل مرة في اليومين تفريط ، كما أن الثلاثة في اليوم إفراط . قال الشيخ زروق : وهذا حكم من اعتدال مزاجه أو قارب ، فأما من انحراف إلى حد الإفراط أو التفريط فلا ينبغي أن يهمل حكمه ، بل يعمل بما يصلحه من غير إخلال ، ولا بعد عن الحق ؛ فإن الشبع المفرط الذي يفسد المعدة ، ويضيع الطعام من غير احتياج محرم ، والذي يثقل الأعضاء ، ولا يفسد شيئاً مكروه على خلاف فيه ، والأَوْلى بالشخص ألا يأكل حتى يجوع متوسطاً ، وهو الذي يشتهي ما يقوم به أوده أي قوامه من معتاد طعامه ، ولا يفرط إلى أن يشتهي كل خبز ، فإنه مضر بالفكرة ، مخل بالقوة ولا يفرط بحيث يأكل بالتشهي : وهو طلب الطعام مقروناً بالشهوة .

أقول : يمكن أن يستأنس للأكل مرتين في الأربع والعشرين ساعة بالقياس على الصيام فأكلة للسحور وأكلة للفطور ، وبقوله تعالى في وصف حال أهل الجنة : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ

فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِياً ﴾[1] . وعلينا أن نلاحظ أنه ليست العبرة في أن يكون أكلة بالليل أو النهار ؛ فإن بعض البلدان قد يكون نهارها ثلاثة وعشرين ساعة ، فالعبرة إذن أن يكون لنا في الأربع والعشرين ساعة أكلتان ، وهذا من باب الأدب ، ونلاحظ في حياة العرب قبل الإسلام وبعده أن لهم شربتين : شربة الصباح ويسمونها صبوحاً ، وشربة الليل - أو المساء - ويسمونها غبوقاً . وكان شرابهم الحليب ، وقد وردت في نصوص السنة اشتقاقات الغبوق ، وورد في صحيح السنة أن رسول الله ﷺ كان يشرب آخر سهره ، وقد اعتاد الناس في زماننا على شرب الشاي والقهوة بحليب أو غير حليب في كثير من الأوقات ، فإذا استطاع الإنسان أن تكون له أكلتان رئيسيتان في الأربع والعشرين ساعة ، وشربتان مساعدتان في الأربع والعشرين ساعة ، مع الاعتدال في كل ذلك ، فإنني أرجوا ألا يكون بأس في ذلك ، ولاشك أن أهل عصرنا توسعوا في الطعام والشراب ، حتى ظهر فيهم السمن ، وأصابتهم الأمراض ولذلك لابد من عودة إلى السنة في شأن الطعام ، ولاشك أن كثرة وجبات الطعام ليست من السنة ، ولكن هناك حالات مرضية لابد لأصحابها من تعدد الوجبات ، فليلاحظ ذلك ، وليلاحظ مجموع آداب المسلم في هذا الموضوع وغيره ، فإذا دعي المسلم فذلك آدابه ، والوضع العادي له آدابه ، والوضع الاستثنائي له آدابه ، والإسراف دائماً حرام أو مكروه على حسب درجته .

وفضلوا الجمع على الإفراد   قيل لأجل كثرة الأيادي

فهم إذن يفضلون الأكل جماعة على الأكل فرادى ؛ لتحقيق سنة تكثير الأيدي على الطعام ، وفي ذلك من التماس البركة الحسية والمعنوية ما فيه ، كما أن فيه مراناً على العفة ، وعدم الحرص والشره ، لأن أكل الإنسان منفرداً دليل على البخل أو الحرص أو النهمة ، إلا لضرورة شرعية ، أو ضرورة عادية ، ويلاحظ الإنسان من يأكل معه فقد قال الجنيد : (المؤاكلة مراضعة فانظروا من تآكلونه ولم يلقّم بعضهم لبعض) أي أن الصوفية لم يكن من عادتهم أن يلقم بعضهم لبعض على وجه الملاعبة لما فيه من قلة الاحتشام والتوقير ، أما إذا كان على وجه التبرك أو الإيناس فلا بأس به ، بل قد يكون أحياناً أدب الوقت . (ولم يُجِل بصره بل) يغض) . من آداب القوم ألا يمدوا أبصارهم إلى من يأكل معهم ، بل يغضون

---

(١) مريم : ٦٢ .

أبصارهم ، وينظرون أمامهم ؛ لما في إجالة البصر من إخجال الآكلين خاصة ، وأن هيئة الإنسان أثناء الأكل نوع عورة ، لا سيا إذا كان كبير السن :

(ولم يروا فيه بالانتظار فيذهب الوقت بلا تذكار)

أشار في هذا البيت إلى أن مذهب الصوفية إذا حضر الطعام بادروا إليه بالأكل ، ولم يكن رأيهم فيه انتظار من كان غائباً ، بل يعزلون حقه ، ويأكلون حتى لا يضيع الوقت سدى . أقول : وهذا حيث لا كلفة أو كان هناك موعد (وكرهوا البِطْنة للإخوان) . البِطْنة : هي امتلاء البطن من الطعام ، أخبر المؤلف أن الصوفية كرهوا الشبع ، أو الزائد فوقه إلى حد لا يضر ، وإلا حَرُم ، وعلّل هذه الكراهية بقوله : (فالبطن كالوعاء للشيطان) . أشار بهذا إلى الحديث « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم »[1] . ومراد المؤلف أن الشيطان من خلال ملء المعدة يصل بالإنسان إلى كثير من مراداته ، فكأن المعدة هي الوعاء الذي يضع فيه الشيطان أمنياته التي يريدها من الإنسان (وأمروا فيه بفتح الباب) . أي فتح باب المنزل الذي يأكلون فيه ؛ ليدخل عليهم كل من يحتاج إلى الأكل ، وذلك من كرمهم ، وغنى قلوبهم ، فهم لا يدفعون من يأتيهم ، بل يقابلونه ، ويفرحون به ، وربما رأوا له المنة عليهم في أكله معهم ، بل يعتقدون أنه هدية من الله إليهم ، لاسيا إن كان من إخوانهم ، أو من ذوي الحاجة ، والمسألة على كل حال من باب الآداب ، وقد يوجد من الموانع عن الأدب ما هو أقوى من الأدب ، فيحول بين الإنسان وتطبيق الأدب ، والفتوى تقدر زماناً ومكاناً وشخصاً ؛ فمثلاً من كان مهيئاً طعاماً لعدد مخصوص ، ولا يسعه أن يؤمن لزائد عنهم فإن حقهم يتأكد على حقوق غيرهم (وأكلوا بالقصد والآداب) . الأكل بالقصد : أي من غير إفراط ولا تفريط ، فلا يزيد على الشبع المعتاد بل يقصر عنه ، ولكن لا إلى الحد الذي يختل فيه بدنه ، ولا يكبر اللقمة جداً ، بل يصغرها ، والأكل بالآداب أي : مراعاة كل أدب ، من التسمية جهراً بابتدائه ، ونية التقّوي على طاعة الله ، وغسل الدين ـ وخاصة إن كانت اليد وسخة ـ والأكل على الأرض ـ إن أمكن ـ لا على مائدة مرتفعة ، والجلوس على إحدى رجليه ، وهي اليسرى ، ورفع الأخرى ، وإلصاقها ببطنه ـ إن أمكنه ذلك ـ والأكل مما يليه إذ كان لا يختلف ، وتصغير

---

(١) متفق عليه .

اللقمة ، وتجويد المضغ ، وترك النظر إلى لقمة صاحبه ،. وليس من الأدب أن يلعق أصابعه قبل تمام الطعام ثم يردها في القصعة ، وليس من الأدب أن ينحني على الطعام بحيث يسقط من فمه شيء ، وليس من الأدب أن ينفض يده في القصعة ، ومن الآداب الحمد سراً بعد انتهائه من الطعام ، ولعق الأصابع إن أكل بها وغسلها ،ومسح الأيدي والفم ، وغسل ذلك بعد الطعام ، ومنها التقاط ما سقط من الطعام ، ومنها الأكل باليمين ، إلا إذا كان من باب مساعدة الشمال لليمين ، وعدم جَوَلان يده ، إلا أن يكون مع أهله ، وولده وحيث يباح الجَوَلان (وفتحوا الباب لكل سار) . هذا تأكيد ما مر معنا من قبل (وأكلوا بالرفق والإيثار) . المراد بالرفق التأني في الأكل ؛ بحيث يصغر اللقمة ، ولا يرفع أخرى حتى يبلع ما في فيه ، ويجيد المضغ ، ويلوك طعامه إلى أن يمضغه مضغاً ، ولا يظهر الشره والحرص ، بل يظهر القناعة والغنى عنه . والأكل بالإيثار : هو أن يؤثر غيره على نفسه إن كان الطعام قليلاً ، أو كان فيه ما يشتهىٰ فيقدمه لغيره ، ونختم هذا الفصل بالتذكير بأن من الأدب تشييع الضيف إلى باب الدار ، وبالتذكير بقول أبي عبد الرحمن السلمي قال : قال بعض مشايخ الصوفية : واجب على المضيف ثلاثة أشياء ، وعلى الضيف ثلاثة أشياء ، فأما على المضيف : بأن يطعمه من الحلال ، ويحفظ عليه مواقيت الصلاة ، ولا يحبس عنه ما قدر عليه من الطعام . وعلى الضيف : أن يجلس حيث يجلسه ، وأن يرضى بما قدم إليه ، ولا يخرج إلا بعد استئذان .

فصل : من آدابهم في السماع :

رأينا أن الإنشاد مهيج على السير ، ومساعد عليه ، كما رأينا أنه يخدم خدمات متعددة ، ومن ثم اعتمده الصوفية ، وهو موضوع ذكرناه من قبل ، وبينا ما له وما عليه ، ورأينا أن الأصل في سماع أصحاب رسول الله ﷺ هو استماع القرآن ، وما سوى ذلك كان عارضاً ، وضمن حدود فهو كالملح في الطعام ، وقد تحدثوا في كتبهم عن السماع وآدابه ، ولذلك فقد خصص صاحب المباحث الأصلية لذلك فقرة ، وكان جزء من هذه الفقرة حول آدابهم في السماع ، ولننقل بعض هذا الجزء من الفقرة ، مع شيء من التعليقات عليها ، مستأنسين بشرح ابن عجيبة . قال صاحب المباحث : (ولا يجوز عنده التكلم) . أي لا ينبغي التكلم أثناء السماع ؛ لأن الكلام يبعد عن الغرض في السماع ، فإذا كانت لجلسة السماع حكمة فإن

هذه الحكمة تنتفي بسبب وجود الكلام ، ثم قال : (ولا التلاهي ولا التبسم) . وذلك لأن التلاهي عنه إشعار بعدم الأدب فيه ، وهذا يقتضي ألا يحضر أصلاً ، وأما التبسم أثناءه فلما يشعر من الأزدراء أو الاستهجان أو الاستهزاء أو غير ذلك ، وبالجملة نقول : إن جلسات السماع بمثابة الأدوية المنشطات ، والإنسان بين أمرين إما أن يحضرها ويعطيها حقها ، وإلا فلا يحضرها أصلاً :

(والزعقات فيه والتمزيق ضعف وهز الرأس والتصفيق)

أي أن الصياح ، وتمزيق الثياب ، وتحريك الرأس ، وضرب الكف بالكف ، كل ذلك من مظاهر الضعف . قال ابن عجيبة بعد ذكره ما مر : إنما يصدر من ضعيف الحال الذي هو مغلوب للأحوال ، أما القوي المالك للأحوال فلا يصدر منه شيءمن ذلك . أقول : إذا كان مثل هذا يعتبر ضعفاً فما بالك بمن يفعل أكثر من ذلك ، لقد آن الأوان أن يضبط السائرون إلى الله تصرفاتهم ؛ فلا يكونون محل الإنكار من العامة والخاصة . لقد آن الأوان لحياة روحية منضبطة بالحدود التي كان عليها الصحابة رضوان الله عليهم وضمن هذه الحدود فإننا لا نبالي بقول قائل . أما ما زاد على هذه الحدود فقد آن الأوان لنقسر أنفسنا على تركه ، فنرحم بذلك أنفسنا ونرحم المسلمين .

(ولم يكن لأجله اجتماع ولا لدى غيبته انصداع)

وما ذلك إلا لأن السماع ليس ركناً في الطريق ، ولا شرطاً فيه ، فهو إن وجد كان ، وإذا لم يوجد لا يفتقد ، فليس هو محور الاجتماع ، وللأسف فإن كثيرين من الصوفية أصبح السماع هو الذي يجمعهم ، فأصبح المنشد هو مركز الاجتماع لا الشيخ ، ولا السير إلى الله ، وهذا إخراج للأمور عن مواضعها ، ثم ذكر الشيخ بعد ذلك كيف أن سماع القوم لا ترافقه آلة لهو فقال : (ولم يكن فيه مُراسِنونا) . أي مدندنون كعادة أهل اللهو إذا فرغ المغني من غنائه دندنوا له ؛ إظهاراً لتجاوبهم ، وانسجامهم (ولا طنابر ومسمعونا) . الطنابر : جمع طنبور وهو شبيه بالعود في صورته وقيل هو نفسه ، والمسمعون : هم المرصدون للغناء في الولائم يسمعون الناس غناءهم ، فنشيد الصوفية إذن نشيد غير متكلف ، ولا يرافقه ما يرافق الغناء من آلات وعادات (وليس أيضاً كان فيه طار) . الطار : هو ما يكون له صنجات (ولا مزاهر ولا تنقار) . المزاهر : جمع مزهر وهو المجلد من جهتين دون

أن يكون لـه شراشر ، والتنقـار في البيت هو فعل النقر ، فكل مـا يسمى نقراً ليس موجوداً في حلقاتهم ، سواء كان نقر طبلة ، أو نقر كوبة ، وهي التي يسميها الناس الآن دربكـة ، أو نقر عود (والشمع والفرش والتكالف ... أحلف ما كانت يمين حـالف) يعني أنهم لا يتكلفون بالسماع حتى يحضروا الشموع الموقدة ، والفرش الممهدة ، والوسائد المزوقة ، وإنما يحضرون لـه على حالة الفاقة ، والابتذال على ما يصادف الوقت والحـال ، وليس مراده أنها محرمـة ، بل مراده أن طريـق القـوم عـدم التكلف . ثم ذكر صـاحب المبـاحث أصـل نشـأة السماع عنـد القوم ، وأسباب وجوده ، وذكر بعد ذلك أن من آدابهم أن ينهوا جلسات السماع بالمـذاكرة ، وشروح ما قيل فقال : (فـإن تمـادى وأتم الشعرا) . أي إن استمر المنشـد في إنشـاده حتى أتم قصيـدتـه (أبـدوا من الشرح عليـه سفراً) السفر : هـو الكتـاب ، والمراد أنهم بعـد الإنشـاد يتذاكرون فيما قيل ، ويشرحونه ؛ ليوضع الإنشاد على مواضعه في المعاني ؛ ليرتقي السامعون إلى أعلى درجات الإدراك الخفي المعاني ، فتنشط هممهم نحو تحصيل المقامات .

فصل : مختارات من توجيهات ابن عطاء :

(من علامة الاعتماد على العمل ، نقصان الرجاء عند وجود الزلل) (إجتهـادك فيما ضمن لك ، وتقصيرك فيما طلب منـك ، دليل انطماس البصيرة منـك) . (الأعمـال صور قـائمـة ، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيهـا) . (تشوفـك إلى مـا بطن فيـك من العيوب ، خير من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب) . (من لم يشكر النعم فقـد تعرض لزوالهـا ، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها) . (من رأيته مجيباً عن كل ما سئل ، ومعبراً عن كل مـا شهـد ، وذاكراً كل ما علم ، فاستدل بذلـك على وجود جهلـه) . (الحزن على فقـدان الطـاعـة ، مع عدم النهوض إليها ، من علامات الاغترار) . (لا يخاف عليك أن تلتبس الطريق عليـك ، وإنما يخاف عليه من غلبة الهوى عليـك) . (كن بـأوصـاف ربوبيتـه متعلقـاً ، وبـأوصـاف عبوديتك متحققاً ، منعك أن تدّعي ما ليس لك مما للمخلوقين أفيبيح لك أن تدعي وصفـه وهو رب العالمين) . (الناس يمدحونك لما يظنون فيك ، فكن أنت ذاماً لنفسـك لمـا تعلمـه منها ، المؤمن إذا مُـدح استحيـا من الله تعـالى أن يُثنىٰ عليـه بوصف لا يشهـده من نفسـه ، أجهل الناس من ترك يقيْن ما عنده لظن مـا عنـد النـاس ، إذا أطلق الثنـاء عليـك ولست بأهل فاثن عليه بما هو له أهل) . (إذا وقع منك ذنب فلا يكن سببـاً ليـأسـك من حصول

الاستقامة مع ربك ؛ فقد يكون ذلك آخر ذنب قدره عليك) . (إستشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك في عبوديتك) . (خير علم ما كانت الخشية معه ، العلم إن قارنته الخشية كان لك وإلا فعليك) . (من أثبت لنفسه تواضعاً فهو المتكبر حقاً ؛ إذ ليس التواضع إلا عن رفعة ، فمتى أثبت لنفسك تواضعاً فأنت المتكبر ، ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع ، ولكن المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع ، التواضع الحقيقي هو ما كان ناشئاً عن شهود عظمته وتجلي صفته) .

فصل : في الأخلاق الجامعة :

في كتابنا (جند الله ثقافة وأخلاقاً) ذكرنا أن الأخلاق الأساسية للمسلم التي إليها مرجع كل خلق هي ما ذكره الله عز وجل في آيات الردة من سورة المائدة في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾[1] . فهذه الآيات ذكرت أخلاقاً خمسة ، هي قوام أخلاقية حزب الله ، وأي تفريط في واحدة من هذه الأخلاق يعني انحرافاً ما عن هذه الأخلاقية الرفيعة ، وما أكثر الذين يفرطون . ونحيل القارىء إلى ذلك الكتاب وفي رسالة (من أجل خطوة إلى الأمام على طريق الجهاد المبارك) أبرزنا أن خصائص الصف الإسلامي حددتها آيات سورة الشورى هذه ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحياة الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ البَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّه لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ * ﴾[1] . لاحظ

---

(١) المائدة : ٥٤ ـ ٥٦ .

(١) الشورى : ٣٦ ـ ٤٣ .

أن الشورى كخصيصة من خصائص الصف الإسلامي جاءت بين الصلاة والإنفاق ، فما أكثر أهميتها إذن ، وما أشد تفريط المسلمين فيها ، ولاحظ أن الانتصار من الظلم والظالمين هو أحد خصائص الصف الإسلامي قال النسفي : (وكانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترىء عليهم الفساق) ولاحظ أن الانتصار ينبغي أن يكون في حدود العدل ، ولاحظ خطأ الناس إذ يلومون المظلوم إذا انتصر ، ولا يلومون الظالم على بغيه والله عز وجل يقول : **﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ﴾** .

هذه فصول متفرقة لفتنا النظر في كل منها إلى آداب أو أخلاق أو أحكام سلوكية ، ولم نرد إحاطة في الأمر ، بل أردنا أن نلفت النظر إلى قضية الآداب والأخلاق في التصوف بشكل أخص ، وفي الإسلام بشكل أعم ؛ ليعرف محل ذلك ، فإنه وإن كانت هذه الرسالة نقطة علام على الطريق فإنه من النقص فيها أن لا يكون فيها بعض الأمور ، وفي الباب القادم سنذكر فصولاً متفرقات نعتبرها مما ينبغي أن يتعرض لها في كتاب عن التصوف ولو كان مختصراً ، ومن ثم كان الباب القادم (في فصول شتى) .

* * *

الباب السابع عشر

في فصول شتى

هذا الباب فصوله شتى ، ولكن يجمعها أنه لابد من إشارة إليها في رسالة تعرّف على علم التصوف ، وتدل الإنسان على أن يأخذ حظه من هذا العلم سلوكاً وعملاً .

فصل : في أن السير إلى الله لا يعني قطع احتياجات النفس ولا يعني شل الطاقات:

كثيراً ما يقع السالكون ـ فضلاً عن غيرهم ـ في خطأ كبير ، هذا الخطأ هو تصورهم أن السلوك يعني قطع احتياجات النفس البشرية ، وتعطيل الطاقات ، بينما الحقيقة هي أن السلوك هو الوصول إلى حالة تعاد فيها الأمور كلها إلى حجمها ، وإلى أن تنبثق عن وضع صحيح . فمثلاً العلاقة الزوجية تنبثق في حالة من الحالات عن وضع شهواني بحت ، ولكنها بعد الوصول تنبثق عن معان نورانية ، فاللذات والمتع لا تنقص بعد الوصول ، ولكن النية تتمحص ، والفهم لحكمة العلاقة الجنسية الزوجية يزداد بعد أن حدث انقلاب جذري في التركيب العام للنفس البشرية وللقلب البشري ، وما يقال في هذا الجانب يقال في جوانب أخرى . إنه بعد السير الكامل إلى الله عز وجل ـ أي عندما يصبح التركيب العام للإنسان سليماً ـ تنبثق تصرفات الإنسان كلها على ضوء العلم ، وإذا بالتصرفات كلها سليمة مستقيمة حكيمة ، فالسير إلى الله منتهاه أن يصبح الإنسان حكيماً ؛ يضع الأمور في مواضعها . الحزم في محله ، والشجاعة في محلها ، والتأني في محله ، والمخاطرة في محلها ، وبذل النفس في محله ، وبذل المال في محله ، فالسير إلى الله يوصّل إلى أن تتفجر الطاقات البشرية كلها في إطارها الصحيح ، طاقة العمل ، وطاقة الروح ، وطاقة الجسم ، وطاقة القلب ، وطاقة النفس في الحياة الاجتماعية ، وفي الحياة السياسية ، وفي الحياة الاقتصادية ، وفي دائرة الأسرة والحي والقطر والأمة والإنسانية ، إن مَنْ لم يفهم السير إلى الله على أنه كذلك يكون خاطئاً ، ومن عرف حياة رسول الله ﷺ وأصحابه ـ وهم القدوة في كل شيء ـ أدرك صحة ما نقول .

فصل : في الإرادة والنية وتصحيحها :

رأينا أن نقطة البداية في السير إلى الله هي انبعاث الهمة ، أو توجه الإرادة نحو السير

إلى الله عز وجل ؛ ومن ثم فلابد من تصحيح الإرادة ، ولابد من تحرير النية ، فالإرادة لابد أن تكون خالصة لوجه الله ، وأن تكون متحررة من أي أمر من أمور الدنيا قال تعالى : ﴿ واصْبِر نَفْسكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ ربَّهم بِالْغَداةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وجْهَهُ ﴾[1] فإرادة وجه الله مع عبادته هي المقام الذي يجب أن نحرص عليه ، وألا نتخلى عنه ، وأن نصححه بشكل دائم ، فالصوارف كثيرة ، والقواطع كبيرة ؛ فالدنيا تحاول أن تصرفك عن إرادة وجه الله ، والشيطان يحاول أن يصرفك عن إرادة وجه الله ، والنفس لها تطلعاتها التي تنسيك إرادة التوجه إلى الله ، وأنت مكلف بتصحيح الإرادة ، وتحديد وجهة التوجه ﴿ قُلْ إنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله ربِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المسْلِمِينَ ﴾[2] ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَان يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾[3] وقد جرت سنة الله عز وجل أنه عندما يصدق إنسان بالتوجه إلى الله ، ويطلب ما يقربه إليه ، أن ينيله الله عز وجل ذلك ، يقول ﷺ : « لو كان الإيمان عند الثريا لتناوله رجال من أبناء فارس »[4] والسالكون على يد الشيوخ أنواع : فمنهم من يسلك وهمه أن يكون مرشداً للخلق إلى الحق ، ومنهم من همه أن يصل في نفسه إلى مرضاة الله وحسبه ذلك ، دون أن تكون عنده تطلعات أخرى ، ومنهم من تجزبهم حلقات السير إلى الله ، وليس لديهم وضوح ، لا في الهدف ولا في العمل ، ولكل من هؤلاء طريقة . وواجب الشيوخ أن يرتقوا ـ دائماً ـ من همة أدنى إلى همة أعلى ، وعلى الجميع أن يلاحظوا قضية الإخلاص لله تعالى في البدايات والنهايات ، ولابن عطاء كلام كثير في قضية الإرادة وتصحيحها ومن كلماته (ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة : الذي تطلب أمامك ولا تبرجت ظواهر المكونات لتصرفه عن السير إلى الله إلا ونادته حقائقها : ﴿ إنما نحنُ فتنةٌ فلا تكفر ﴾ .

فصل : في الخدمة ومحلها في السير إلى الله :

في حياة رسول الله ﷺ وأصحابه كثير من مظاهر الخدمة في الله ، خدمة الصغار

---

(١) الكهف : ٢٨ .

(٢) الأنعام : ١٦٢،١٦٣ .

(٣) الشورى : ٢٠ .

(٤) متفق عليه .

للكبار ، وخدمة الكبار للصغار ، وخدمة الأصحاب لبعضهم بعضاً « وحتى رسول الله ﷺ كان إذا دخل بيته عمل في مهنة أهله » وقد خدم بعض الوفود بنفسه ﷺ ؛ تكريماً ووفاء ، وكان يشارك أصحابه العمل عليه الصلاة والسلام ، وهذا أصل كبير في الحياة الإسلامية ، فهو مظهر تواضع المسلمين لبعضهم ، ورحمتهم لبعضهم ، وذلتهم لبعضهم ، حيث لا يأنف أحدهم من خدمة الآخر ، بل رحمة الكبير في الصغير تجعله يرعاه ، وتوقير الصغير للكبير تجعله يخدمه ، فخدمه الإخوان لبعضهم ، ومحبتهم في الله تزيل الأنفة والكبرياء فيما بينهم ، وهذا هو الجو الإسلامي الصافي ، وقد فطن أهل السير إلى الله إلى أهمية الخدمة في تهذيب النفس ، فلاحظوا أن الإنسان الذي لا يأنف من خدمة الكبار والصغار إنسان تحرر من أمراض كثيرة ؛ كالعجب ، والخيلاء ، والكبر ، وغير ذلك ، وتحقق - بآن واحد - بمجموعة من الأمور ؛ كالتواضع ، والرحمة ، والاحترام ، والإكرام للمسلمين ، والذلة على المؤمنين ، وغير ذلك ، لذلك اعتبروا خدمة الإخوان والشيوخ في الله من أقرب الطرق التي توصّل إلى الله ؛ لما يتحقق به المتبرع بالخدمة من مشاعر مخلصة ، مخبتة لله عز وجل ، ومن ثم كانت الخدمة أدباً عاماً عندهم ، لا يأنف منه الكبير ، ويندفع فيه الصغير ، فتبقى أجواؤهم في هذا المقام عذبة صافية ، خالية من الزخارف الكاذبة ، والبهارج الخادعة ، وبعيدة عن أجواء عنفوان النفوس وكبريائها ، (ولقد كان بعض شيوخنا - وهو في سن الثمانين - يقدم لنا أحذيتنا ونحن في أول طلبنا للعلم ، مما كان له في أنفسنا أثر حميد في تعويدنا الخدمة والتواضع لجميع الخلق) إن طبيعة الخدمة في الله لا تستطيعها نفس ، إلا إذا اجتمع فيها إيمان بالله واليوم الآخر ، وثقة بأن المعز المذل هو الله ، وأن من تواضع لله رفعه الله ، وإيمان بأن الإنسان مأجور عند الله على خدمته لإخوانه ، وهكذا نجد أن الخدمة في الله دواء للنفس ، وغذاء للقلب من جهات متعددة .

فصل : في الخلوة :

قد يرغب المريد أن يقفز قفزة كبيرة في تنوير قلبه ، وقد يرى الشيخ أن مريداً ما يحتاج إلى وجبة روحية كبيرة كغذاء لقلبه ، أو كدواء له ، إلى اعتماد مبدأ الخلوة **كاعتكاف مركّز** يحقق فيه المريد أكبر قدر من المردود ، ويختلف الشيوخ في نوع الأعمال المفضلة في الخلوة ، ومدتها المفضلة ، وبشكل عام فإن مادة الخلوة هي الذكر والمذاكرة ، بعد القيام

بفرائض الوقت ، أما الزمن فالأصل أنه تابع لحال المريد ، وفراغه ، واحتياجات قلبه ، والهدف الذي من أجله كانت الخلوة ، ونحن نفرق بين خلوة يعتمدها الإنسان لنفسه ، وبين خلوة تحت إشراف شيخ بصير فقيه ، فالخلوة التي تكون تحت إشراف شيخ ، يحدد الشيخ ما ينبغي أن يكون فيها من أذكار ومذاكرات وزمان . وأما إذا اختار الإنسان لنفسه أن يقوم بخلوة فإننا نفضل له أن يكون برنامجها : عشرات الآلاف من الاستغفار ، وعشرات الآلاف من الصلاة على رسول الله ﷺ ، وعشرات الآلاف من لا إله إلا الله ، ثم بعد ذلك يستغرق : إما في كلمة التوحيد ، أو في الصلاة على رسول الله ﷺ حتى ينهي خلوته . وكثيرون من الناس يناقشون قضية الخلوة ، والأمر لا يحتاج إلى هذا الاختلاف ، فلو أن إنساناً رأى أن يخلو بنفسه في غرفة ليقوم بأعمال مباحة دون أن يؤثر ذلك على واجب لما كان للإنكار عليه محل ، فكيف إذ خلا الإنسان ليقدم لنفسه دواء أو غذاء . ولقد كانت حياة الصحابة في غير أوقات الجهاد والعمل وإقامة الحقوق خلوات على قراءة قرآن ، أو على ذكر ، مع البعد عن الغلو ، وفي اعتكاف رمضان ، وفي خلوة الرسول ﷺ في غار حراء قبل النبوة وبعدها ما يستأنس به لهذا الموضوع . وإن كثيرين من مفكري العالم فطنوا لما للخلوة الطويلة من تأثير كبير على صفاء الفكر والنفس ، وجودة القرارات ، فاعتمدوها ، وإنا لنتمنى لكل مسلم أن يتبنّىٰ مبدأ الخلوات إحياءً لسنة الاعتكاف .

إن اعتماد مبدأ الدورات الروحية والخلوات المكثفة هي البداية الصحيحة للتربية الإسلامية الجهادية ، وما الخلوة إلا دورة روحية مكثفة في عصر غلب فيه الإنسان على أمره أمام طواحين الوقت والقلب والفكر والأعصاب .

فصل : في أدوية مناسبة لأوضاع معينة :

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح كما في الترغيب والترهيب عن أبي هريرة أن رجلاً شكا إلى النبي ﷺ قسوة قلبه فقال : « إمسح رأس اليتيم وأطعم المسكين » تجد في هذا الحديث كيف أن رسول الله ﷺ أعطى لهذا الإنسان الشاكي الدواء المناسب لحاله ، وفي حديث صحيح رواه مسلم « أن عمر قال يارسول الله : لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي فقال : لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال عمر لرسول الله ﷺ : فأنت الآن أحبّ إليّ من نفسي » لقد شكا عمر حالة تتنافىٰ مع مضمون ما يدخل في

الحديث« لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين »[١] . ولذلك أفهمه رسول الله ﷺ أن هذه الحالة ليست هي الكمال ، وبمجرد التذكير انتقل عمر إلى الكمال . فههنا حالة بسيطة اقتضت علاجاً سريعاً هو الكلمة المبينة ، ووافق العلاج استعداداً عالياً ، فانتهت الحالة مباشرة . ولا ننسى أن لحال رسول الله ﷺ ، واستعداد عمر ، الدور الأعظم بعد البيان . فهناك ناس صاحبوا رسول الله ﷺ وهم منافقون ، وماتوا وهم منافقون .

من هذه الأمثلة ندرك أن أمراض القلوب والنفوس تكون معقدة ، وتكون بسيطة ، وأحياناً يكون الدواء كلمة وبياناً ، وأحياناً لا يكفي البيان وحده دون أن يبذل المريض جهداً خاصاً . فقد نجد إنساناً عاش في بيئة معينة اعتاد فيها العجرفة والكبر والعجب والإسراف والتطاول على الناس وغير ذلك . فلو جاء هذا الإنسان لشيخ مسترشداً فقد يأمره الشيخ بأمر ما يكون علاجاً لكل هذه الأحوال دفعة واحدة ، هذا إذا كان الشيخ خبيراً بأمراض النفوس ، وطرق علاجها الشرعية ، وفي هذه الرسالة نماذج يكون فيها السفر أو العزلة أو السؤال أو غير ذلك علاجاً لبعض الحالات ، مع ملاحظة أن القلوب نفسها تختلف ، واستعدادتها تختلف ، ولابد للشيخ أن يلاحظ أنواع القلوب ، وأنواع استعداداتها ، ويسير بكل إنسان بما يوافق حاله . فقد يكون إنسان مرشحاً للنجاح في أمر فعليه أن يوجهه له ، ولذلك نلاحظ أن بعض فروض الكفايات يكون في حق بعض الناس فرض عين ؛ لأنهم وحدهم المرشحون لأدائها ، فالله عز وجل جعل المسلمين يكمل بعضهم بعضاً ، فما أجهل من يريد أن يقصر المسلمين كلهم على بعض المعاني عند قوله تعالى : ﴿ **لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾[٢] ذكر ابن كثير الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد وغيره والذي فيه قول رسول الله ﷺ : « إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن . وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة » من هذا النص ندرك أن القلوب نفسها تختلف ، وإن كانت جميعها في الذروة من الكمال ، فلابد أن يلاحظ الشيخ استعدادات القلوب وأنواعها ؛ فيوجه كل قلب فيما هو مناسب له ، فقلب غلبت عليه الرحمة يوجهه نحو التفرغ لدعوة الخلق إلى الله ، وقلب غلب عليه حب التأديب للكفار

---

(١) متفق عليه .

(٢) الأنفال : ٦٨

يوجهه نحو التفرغ لقضية الجهاد . وبمناسبة الكلام عن مداواة القلوب أقول : إن كثيرين من العاملين للإسلام لاتقبل ذوقيتهم العامة بعض تصرفات الشيوخ في معالجات بعض الأمراض ، كما أن بعضهم يشمئز أن يرى إنساناً ما يتصرف تصرفاً ما لا يتفق مع المألوف في علاج نفسه . إلى هؤلاء أنقل هاتين الروايتين :

أخرج الترمذي بسند قال عنه : حسن غريب عن جُبير بن مطعم قال : « يقولون فيَّ التيه (أي العجب والاختيال والكبر) وقد ركبت الحمار ولبست الشملة وحلبت الشاة » وقد قال النبي ﷺ « من فعل هذا فليس فيه من الكبر شيء » وأخرج الشيخان ومالك « وكان أبو هريرة يستخلف على المدينة فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيشق السوق ويقول : طرّقوا للأمير حتى ينظر الناس إليه » أقول : إنما كان يفعل ذلك أبو هريرة من باب مداواة نفسه ومعالجتها ، وهذا شيء نجد أمثلته كثيرة في حياة الصحابة ؛ حتى إن عمر رضي الله عنه كان يتصرف التصرف فيعاتبه عليه ابنه ، فيذكر له كيف أنه فعل ذلك علاجاً . إنه لابد من عودة كاملة لحياة إسلامية كاملة ، تظهر فيها أخلاقية جيل الصحابة في كل شيء .

فصل : في اللباس :

حاول بعض الصوفية أن يربطوا بين التصوف ولباس خاص ، والذي يقال في هذا المقام : إن المسألة إن كان لها أصلها في السنة فالعبرة للسنة ، وإن كانت كعلاج مشروع لا يصل به الإنسان إلى ارتكاب مكروه أو محرم فلذلك وجهه . فنحن لا نقيد أنفسنا بغير الأحكام المتعلقة باللباس وعلى هذا نقول :

١ ـ إن هناك نوعاً من اللباس محرم على الرجال كالحرير ، أو ما كان لباساً خاصاً بالنساء ، وهناك لباس محرم على المرأة ، وهو ما كان لباساً خاصاً بالرجال ، إلا لمصلحة قتال ، وهناك تفصيلات في مثل هذه المقامات يراها الإنسان في كتب الفقه .

٢ ـ بشكل عام لباس المرأة المسلمة ينبغي أن يكون ساتراً سابغاً لا يصف ولا يشف ، ولباس الرجل لا ينبغي أن يصف عورة ، وهناك تفصيلات محلها كذلك كتب الفقه .

٣ ـ الإسراف في اللباس لا ينبغي في حق الرجال والنساء ، والإسراف قضية نسبية

تختلف باختلاف أحوال الناس .

٤ ـ للزي العربي المتثل بصور فضل خاص ، لأنه به تتحقق مجموعة من المعاني لا تتحقق في غيره ؛ من كونه لا يصف عورة ، وبه يحقق الإنسان سنناً كثيرة ، كالأكل جالساً وكالبول جالساً ، وغير ذلك .

٥ ـ يمكن أن يكون للإنسان لباس عمل يناسب عمله ، كالطيار والجندي ، وعلى هذا فلباس الراحة غير لباس العمل . فالقميص (الذي يسميه الناس الآن كلابية في بعض الأقطار) هو أحب اللباس إلى رسول الله ﷺ ، فأن يكون لباس راحتنا كلابية ، وأن يكون هناك غطاء رأس كالقلنسوة ، أو العمامة ، أو الحطة فوق العمامة فذلك أكمل .

٦ ـ أن يعتاد الإنسان على أن لا يستعبده اللباس فذلك من أخلاق المسلم ، ومن ثم قال رسول الله ﷺ « تعس عبد الخميصة »[1] وقال عليه الصلاة والسلام : « البذاذة من الإيمان ... »[2] ومن مظاهر البذاذة أن نستعمل الثوب ولو تقادم ، وألا نلقي به بمجرد أن يكون أصابه شيء ما ، ولذلك أثر عن بعض الصحابة أنهم كانوا يرقعون ثيابهم ، ولهذا أهميته في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، بألا يلقي الإنسان ثوبه القديم ويلبس دائماً ثوباً جديداً ، فذلك إرهاق وإسراف ، والموضوع يقيده ما إذا تصدق الإنسان بالقديم ، أو كان القديم لا يذهب هدراً بل يستفاد منه بشكل ما .

٧ ـ إن موضوع اللباس موضوع معقد يرتبط بأمور كثيرة ، فلكل أمة لباسها المرتبط بثقافتها وعاداتها ، وكثيراً ما يكون لبس الإنسان لباس أمة أخرى هو أثر عن إعجاب بها وبحضارتها ، ونوع احتقار لأمته ، وهذا الموضوع ينبغي أن يعالج بمنتهى الحكمة في عصرنا ، فلا نتشدد فيه التشدد الذي يجعلنا نضخم المكروه فنجعله حراماً ، ولا نتساهل في التربية عليه حتى ننسى أن لنا زياً خاصاً هو المفضّل وهو الأفضل . إنه لا يوجد لباس يرتاح فيه جسم الإنسان ، وترتاح منه أعضاؤه كَزِينا الذي ورثناه عن رسول الله ﷺ ولذلك « كان عمر رضي الله عنه يرسل إلى الجيوش الإسلامية موصياً أن يميتوا زي العجم ـ الكافرين وقتذاك ـ ويحيوا زي العرب » . ولقد عرجنا على موضوع الزي والهيئة أكثر من مرة

---

(١) رواه البخاري .
(٢) رواه أحمد وابن ماجه .

لأهميته في تأكيد ذاتية الأمة .

٨ ـ قال عليه الصلاة والسلام « من تشبه بقوم فهو منهم »[١] . والعلماء حملوا هذا الحديث على من تشبه بقوم في أمر هو من باب الخصوصيات الدينية عندهم ، أما ما كان مشتركاً بين بني الإنسان ، أو كان من نوع التشبه في أمر عادي لا يهدم شعيرة إسلامية ، أو لا يتعارض مع سنة فالأمر واسع .

٩ ـ هناك حالة سنتحدث عنها فيا بعد ، وهي حالة يرى فيها الشيخ أن نوعاً من اللباس ضروري في حق إنسان ، إما لمقام ، أو كعلاج ، وهناك حالة يرى فيها الإمام أو الأمير أو من يقوم مقامها لإنسان أن يلبس لباساً ما كعملية تمويهية لتحقيق مصلحة ، فهاتان قضيتان لهما وضع خاص ، والفتوى تقدر زماناً ومكاناً وشخصاً ، والفتوى ههنا هي التي تحدد الحكم في حق الإنسان .

فصل : في العفة عن سؤال الناس :

ربى رسول الله ﷺ أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئاً ، ففي الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن عوف بن مالك الأشجعي قال : « كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال : ألا تبايعون رسول الله ﷺ ؟ ـ وكنا حديثي عهد ببيعة ـ فبسطنا أيدينا وقلنا : قد بايعناك يارسول الله ، فعلى ما نبايعك ؟ قال : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وتصلوا الصلوات الخمسَ ، وتسمعوا ، وتطيعوا وأسرّ كلمة خفية قال : ولا تسألوا الناس شيئاً ، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه » فهذه هي الحالة العليا في التربية الإسلامية ، وقد سمح للإنسان في بعض الحالات أن يسأل الناس حاجاته إما لوضع خاص ، أو لحالة اضطرارية ، وبقدر الحاجة . أخرج الإمام مسلم عن رسول الله ﷺ قال : « من سأل الناس تكثراً فإنما يسأل جمراً فليستقل أو ليستكثر » وفي كل الأحوال جعل العمل هو الحالة الأكمل للإنسان ، وسمح بالسؤال كعلاج لحالة استثنائية « واليد العليا خير من اليد السفلى » ، هذا هو الأصل العام في هذا الموضوع ، ومحل التفصيلات في كتب التفسير والحديث والفقه ، وإنما عرجنا على

---

(١) رواه أحمد .

هـذا الموضوع هنـا بسبب فهم خـاطىء لتصرفـات بعض الشيوخ ، فقـد حـدث ـ مثـلاً ـ أن وجدت حالة معقدة لبعض أمراض القلوب عالجها بعض الشيوخ ، بأن طلب من صاحبهـا أن ينزل إلى السوق ، ويسأل الناس أن يعطوه ، والواجب في هذا المقام أن يسأل النـاس ، وهو ينوي أن يوصل صدقتهم لمستحقيها ، وإنما يفعل ذلـك من بـاب الـدواء ، فتوسع بعضهم في هذا الشأن ، وهو موضوع ينبغي أن يطوى بسـاطـه في عصرنـا ، وأن يرجع في المسـألـة إلى أصلها الصحيح كما ذكرناه .

فصل : في السفر :

كان للرحلة في الماضي شأن خاص ، فقد كانت أدبَ العالم لتحصيل العلم ، وأدب الصوفي لتحصيل العلم والتربيـة عنـد أهل ذلـك ، يبـدأ الإنسـان فيـأخـذ ممن عنـده علم أو حـال في محيطه ، ثم يرحل لاستكـال الأمر ، وأحيـانـاً يكون السفر علاجـاً لبعض الأحوال النفسيـة والقلبية ، فمثلاً قد يقع الإنسان في عشق ، أو في إثم ، بسبب وجوده في بيئة ، فيعالج الشيخ مثل هذه الحالات ؛ بأن يأمر المريد أن يسافر ليغير بيئته ، أو ينسى ، وفي الحـديث الـذي قصّه علينا رسول الله ﷺ في حـادثـة الرجل الـذي قتل مـائـة شخص ، نجـد أن العـالم أمر القاتل أن يترك أرضه إلى أرض أخرى رواه البخاري . في هذا الحديث ما يمكن أن يستأنس به لهذا الموضوع ، ولصلة الرحلة بهذه القضايا التي ذكرناها وغيرهـا ، دأب علمـاء التربيـة أن يتحـدثوا عن موضوع السفر في كتبهم ، فلننقل بعض عبـاراتهم مـع شيء من التعليـق عليهـا يقول صاحب قصيـدة المبـاحث الأصليـة : (مـذهبهم في جولـة البلـدان) (زيـارة الشيوخ والإخوان) ، أي هذا من مقـاصـدهم في السفر الزيـارة في الله للإخوان ، وللشيوخ العـارفين بـالله ، وذلـك لنيـل مقـام مـا أشـار إليـه الحـديث الصحيـح « وجبت محبتي للمتحـابين فيّ والمتزاورين فيّ والمتباذلين فيّ »[1] (ثم اقتبـاس العلم والآثـار) ، أي هـذا كـذلـك مقصـد من مقاصدهم في السفر ، وهو طلب العلم عـامـة ، وطلب علم الحـديث خـاصـة ، وهو المراد هنـا بكلمة الآثار (أو رد ظلم أو للاعتبار) ، أي ومن مقاصدهم في السفر رد المظالم إن كانت على واحـد منهم ، وذلـك فرض ، كما إذا كان على الفقير دين أو قصـاص أو حـق من حقـوق

(١) رواه أحمد وابن حبان بلفظ مقارب أوله (حقت محبتي ...)

العباد ، فيسافر إليه ليرده ، أو يتحلل منه وقد اعتبر الشيخ زورق أن مما يدخل في باب رد المظالم رد ظلم العباد بعضهم عن بعض ، وجعله من تغيير المنكر وقال : (هذا على من يمكنه ذلك من غير نقص في دينه) وهذه لفتة كريمة من الشيخ زروق ، وما أجود أن يعتاد المسلمون على الخروج لمثل هذا ، ولجماعة الدعوة والتبليغ في عصرنا باع طويل في مثل هذا ، فجزاهم الله خيراً ، وأدخل الشيخ زروق في هذا الباب السفر فراراً من ظلم يلحق بالإنسان ، أو فراراً من أرض فيها ظلم ، وهو موضوع له صلة بقضية الهجرة ، ومن مقاصدهم في السفر السفر بقصد التأمل وأخذ العبرة ، قال ابن عجيبة في شرح هذا المعنى : (الاعتبار بما يرى في سفره من جبال وعيون وبحار وأشجار وثمار وأصناف المخلوقات وضروب الكائنات) (أو للخمول أو لنفي الجاه) أي من مقاصدهم في السفر أن يسافروا فراراً من الشهرة أو فراراً من التعظيم ، وذلك يفعله المريد في ابتداء أمره ليتسنى له الكمال ، وذلك لأن الشهرة والتعظيم في ابتداء أمر المريد قد تمنعانه من الكمال في العلم والسلوك ، فيكون السفر في حقه من باب الدواء ، والأخذ بالأسباب للوصول إلى الكمال ، ليستطيع إفادة خلق الله بشكل أكمل ، وليتمكن الإخلاص في قلبه بشكل أعمق ، قال ابن عجيبة : (والمراد - أي في هذا المقام - بالجاه المضر ، أو الجاري على غير وجه مستقيم ، أو الذي يخشى منه تقماً أو شغلاً ، أو الذي تميل إليه النفس وتركن إليه) (أو للرسول أو لبيت الله) ، أي من مقاصدهم في السفر زيارة مسجد رسول الله ﷺ ، ثم زيارة قبره ﷺ ، وكذلك من مقاصدهم الحج والعمرة وزيارة بيت الله الحرام ، فهذه مجموعة الوجوه التي من أجلها أو من أجل واحد منها يسافر السالك إلى الله ، قال ابن عجيبة : (وبقي من فوائد السفر صحة البدن والقلب ، فقد قال عليه السلام : « سافروا تصحوا وتغنموا »[1] .

ولنرجع إلى كلام صاحب المباحث (ولم تكن أسفارهم تنزهاً ، بل كان لله فيها نحوه التوجها) وذلك أن الصوفي يحاول ألا يتصرف تصرفاً - ولو كان مباحاً - إلا بنية صالحة ؛ لأن النيّات تجعل العادات عبادات (ولم تكن أيضاً بلا استئذان للشيخ والآباء والإخوان) لينال دعواتهم ، ويأخذ وصاياهم ، ويستفيد من ملاحظاتهم ، وربما كانت لهم حاجة فقضاها ، وربما ترتب على سفره مضرة فيفطّنونه لها (ولم يكن ذلك للفتوح) المراد

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي .

بالفتوح في اصطلاحهم : ما يعطيه للإنسان من هدايا وصدقات ، فهذا مما لا ينبغي أن يفكر فيه الصوفي أصلاً قال ابن عجيبة : (ولم تكن أسفارهم لقصد الدنيا فإن ذلك من الهمة الدنية) (أو لامرىء مبتذل ممدوح) ، أي أن الصوفي لا يسافر من أجل أن يمدح الناس كفعل الشعراء في الماضي ؛ فهذا مما لا يخطر على بال سالك إلى الله ، وبعد ذلك ذكر صاحب المباحث بعض آداب السالك إلى الله إذا وصل بلداً .

(فحيث ما حلوا بلداً فبالحرا   أن يقصدوا الشيخ وبعد الفقرا)

أي من آدابهم إذا حلوا بلداً أن يقصدوا شيوخها ، وصالحيها ، والفقراء إلى الله فيها ، والمراد بهم : السالكون إلى الله فيها ، قال ابن عجيبة : (وقوله فبالحرا : أي بالأحروية والأولوية أن يقدموا الشيخ ثم بعد ذلك الفقراء وقال : وهذا الترتيب الذي ذكرنا هو مع الاختيار ، فإن تعذر لقاء المشايخ أولاً قدم الفقراء ، والفقراء اسم يطلقه الصوفية على أنفسهم أخذاً من قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ ﴾[1] ثم ذكر صاحب المباحث آداب لقاء الأشياخ والجلوس معهم :

(وإن للقوم هنا آداباً   إذ جعلوا كلامهم جواباً .)

أي أن الأصل عندهم السكوت إلا إذا سئلوا فيجيبون .

(فإن تعاطى الشيخ منهم قولاً   قالوا وإلا فالسكوت أولى .)

بمعنى : إن طلب الشيخ منهم أن يتكلموا تكلموا ، وإلا فإن أدبهم السكوت ، ومن آدابهم انتظار خروج الشيخ من غير نداء عليه ، ولا رسول إليه ، وحسن الأدب في المجالسة والمؤانسة ، ومن آدابهم المشاركة في المذاكرات العلمية ، مع حسن الأدب وكماله ، وحسن انتقاء العبارات بين يدي الكلام ، وخاصة في حالة المخالفة في الرأي ، أو في حالة سماعه ، أو رؤيته خطأ شرعياً .

ثم ذكر صاحب المباحث أدب أهل البلد مع الوافد عليهم فقال : (وواجب على أولي الإقامة) أي على الذين وفد عليهم المسافر (تفقد الوافد بالكرامة) قال ابن عجيبة في تفسير التفقد بالكرامة : وهو الذهاب إلى لقائه ، وإظهار المسرة في وجهه ، والفرح به ، وإراحته

(١) فاطر : ١٥ .

من شؤونه وتعلقاته ، وإنزاله في محل ... (وهو يزور القوم في الحرام) ، أي في البلد الحرام أي في مكة ، أي الوارد أحق أن يزار في محله ، إلا أن يكون بمكة ، فإن عليه أن يزور المجاورين لبيت الله الحرام ؛ لحرمة بيت الله الحرام (وإنما ذاك للاحترام) أي هو يبتدىء زيارة أهل الحرم احتراماً لهم ؛ لأنهم سكان بيت الله الحرام ، والمسألة ذات أوجه ، فالأصل أن العلم يؤتى ، ثم ذكر الشيخ بعض آداب المضيف (ويبدأ الوارد بالسلام وبالطعام ثم بالإكرام ، وكلموه بعدها تكلياً ، تأسياً بفعل إبراهيا) عليه السلام أي يبدأون بالسلام ، ثم بالطعام والإكرام ، ثم بعد ذلك يكون الكلام ، كما فعل إبراهيم عليه السلام مع أضيافه سلام فإطعام فكلام ، ويقدم من الطعام ما لا كلفة فيه ، وإذا أمكن الإكرام فلامانع من غير تكلف ، لأن التكلف يقطع طريق الكرم ، ويتعب الأهل والناس ، لدرجة أن الضيف بذلك يصبح ثقيلاً ، وهذا سبب كبير في انقطاع كثير من الخير ، لذلك كان أدب الصوفية في هذا المقام عدم التكلف ، وهو الكرم الإسلامي بعينه ، لأنه وحده الذي يسع الناسَ ، وبه يستمر خلق الكرم في هذه الأمة ، أما إذا بدأ التكلف فقد وجد العنت في المال ، وإعنات الأهل وإتعابهم ، والتكلف مسألة تختلف من إنسان لإنسان ، فمن كان غنياً لا يعتبر ما يقدمه إسرافاً وإن كان كثيراً وغالي الثمن ، على عكس الفقير .

(وكرهوا سؤال هذا الوراد إلا عن الشيخ أو التلامذ)

أي أنهم لا يسألونه عن أحوال الدنيا وأحاديثها ، فإن ذلك مما لا يعني ويقسي القلب ، بل يسألونه عن الشيخ والتلاميذ والسائرين إلى الله ، وحال الناس ، ليطمئنوا على صلاح أمر الإسلام والمسلمين ، وهو باب واسع إذا وجدت النية الصالحة ، إذ حتى السؤال عن الأمور الدنيوية يؤجر عليه الإنسان ، إذا رافقته نية صالحة

(وكرهوا تضييعه أوراده كيف وقد جاء إلى الزيادة)

أوراد الإنسان : ما وظّفه عليه شيخه ، أو وظّفه على نفسه ، والمراد هنا : ما كان يعمله في إقامته ، فإذا سافر داوم على ما كان عليه ، إلا إذا شق عليه ، ومن رحمة الله عز وجل بالإنسان أنه إذا كان له عمل وشغله عنه مرض أو سفر ، فإنه يكتب له أجر عمله ، فإذا لم يكن يشق عليه عمل الأوراد فإنه يداوم عليها ، أو على بعضها ، ولذلك أنكر عليه ترك الأوراد ، قال في البيت : (كيف يترك أوراده بالكلية وهو إنما سافر لطلب الزيادة) في

حاله القلبي أو غير ذلك (ومن يسافر في هوى النفوس فإنما يؤمر بالجلوس) ، أي من لم يستحضر نية صالحة لسفره بحيث يحقق سفره مقصداً شرعياً ، فإن أهل التصوف لا يرون له السفر ، لأن من آدابهم ما ذكرناه سابقاً من أنهم يرغبون ألا يكون لهم عمل إلا ولهم نيه صالحة فيه ، حتى ولو كان مباحاً ؛ لتصبح أعمالهم كلها عبادات ، هذا مجموع ما ذكره صاحب المباحث في فقرة السفر ، وقد ذكر بعضهم جوانب أخرى فلنذكر بعضها :

١ ـ يفضل أن ينزل المسافر على أهل مشربة ، وألا يشق عليهم بأن يطيل المكث إلا إذا كان قد نزل في مكان أعد لذلك ، وأصروا عليه ، أما إذا كان هدفه الإقامة فعليه أن يسارع إلى محل استقراره .

٢ ـ ينبغي لمن أراد السفر أن يتعلم أحكام ما يلزمه فيه ، كأحكام القصر للصلاة ، والتيمم ، والقبلة وغيرها .

٣ ـ إذا كانوا جماعة فينبغي أن يؤمروا أحدهم ، ومن أدبه أن يستشيرهم .

٤ ـ قال ابن عجيبة ناقلاً : (ومن آدابهم ألا يجري بينهم في حديثهم هذا لي وهذا لك ، ولو كان كذا لم يكن كذا ، ولعل وعسى ، ولِمَ فعلت ، ولِمَ لم تفعل ، وما يجري مجراها ، فذلك من أخلاق العوام ، ولا تجري بينهم المخاصمة ولا المجادلة ولا الاستهزاء ولا الازدراء ولا المراجعة ولا المغالبة ولا الغلبية والنقيصة لا تكون بينهم ، بل يكون كل واحد منهم للكبير كالإبن ، وللصغير كالأب ، وللنظير كالأخ ...) ، وهذا ليس خاصاً بالسفر ، وإنما هو من أدبهم في الصحبة على الدوام ، وفي السفر يكون أكبر همهم فيلاحظونه بشكل أوسع ، لأن السفر يسفر عن كل المعايب ، ولا يبقى على حاله في حال السفر إلا الصديق .

٥ ـ ومن آدابهم أن يدعوا بأدعية السفر ذهاباً وإياباً ، وأدعية الركوب ، ويكثروا من التكبير والتهليل والتسبيح ، وغير ذلك من الأذكار .

٦ ـ إن تيسر له أن يستصحب في عوده هدية لأهله وأقاربه وجيرانه فإنه طيب .

٧ ـ إذا استطاع أن يدخل بلده في النهار فذلك هو السنة ، والأدب ألا يطرق أهله ليلاً ، إلا إذا كان على موعد معهم ، أو أعلمهم بذلك ؛ لما في ذلك من مشقة عليهم ، أو لما يحتمل أن يحدثه لهم من إرباكات من وجل التساؤل عن سبب طرق الباب ، ومن الطارق ،

وقد يكونون مستغرقين في النوم استغراقاً يتعبهم أو يتعبه .

فصل : في مقام الإحسان :

ذروة السير إلى الله أن يصل السائر في سيره إلى مقام الإحسان الذي عبر عنه الحديث الشريف « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك »[1] فهذان مقامان كل منهما يسمى إحساناً ، ويختلف الصوفية في أي منهما هو الأرقى ، ظاهر الحديث أن المقام الأول « أن تعبد الله كأنك تراه » هو الأرقى ، وكل طريقة من الطرق اعتمدت بعض المعاني للوصول إلى هذا المقام . والعلم والذكر هما ركنا الوصول ، وهناك نوع من العلم له صلة بهذا المقام ، وهناك معان لابد أن يلحظها السائر إلى الله أثناء ذكره ، ليصل إلى هذا المقام .

وبشكل عام فإن السائر إلى الله يمر في طريقه إلى مقام الإحسان على ما يسميه الصوفية الفناءات : الفناء في الأفعال ؛ بأن يحس الإنسان أن كل شيء فعل الله ، والفناء في الصفات ؛ بأن يستشعر الإنسان صفات الله عز وجل ، والفناء في الذات : وهو أن يستشعر الإنسان أولية الذات الإلهية وصمدانيتها . ومتى استقر في هذا المقام تحقق بمقام الإحسان ، ويحاولون عندئذ أن ينقلوه إلى مقام المشاهدة مع رؤيته الخلق ، وهذا الذي يسمونه (مقام البقاء) وقد يصل السائر إلى الفناء في الذات مباشرة ، ثم يبدأ يستشعر ما سوى ذلك ، وكما قلنا : فلكل طريقة ما تعتمده من ملاحظات أثناء الذكر ، أو أثناء السير ، لتصل بالمريد إلى هذه النتيجة ، ومجموع الملاحظات هذه إما أنها ملاحظات تجريبية دلت عليها التجربة ، وإما أنها نوع تطبيق لبعض الآيات القرآنية ، وبإجماع الصوفية أن ذكر اسم الله (الله) هو أقوى أنواع الذكر ؛ تأثيراً في الإيصال إلى مقام الإحسان . يقول ابن عابدين : لا ذكر عند العلماء لصاحب مقام فوق الذكر بالاسم المفرد وأقول : وبإجماع العلماء كذلك أنه لا يشترط الاسم المفرد للوصول إلى الله ، ومن ظن غير ذلك فقد أخطأ ، وخالف الإجماع ، ولنا عودة على ذكر اسم الله المفرد في فصل مستقل ، غير أنا ههنا نحب أن نذكر نموذجين على السير إلى مقام الإحسان عند الشيوخ :

أ ـ من الأشياء التي يذكرها الشيخ الغزالي أنها توصل إلى المراقبة : أن يجتمع للإنسان

(١) من حديث رواه مسلم .

المحاسبة الدائمة لنفسه ، مع الاستغفار ؛ فإن ذلك طريق كاملة للوصول إلى الإحسان ، ومما يذكره الغزالي : أن يلازم الإنسان ذكراً واحداً (كسبحان الله) أو (الله) ويستمر في الذكر حتى يستقر الاسم في قلبه ، ثم يستقر الشعور بمعناه .

ب - بعض الصوفية يُدخلون المريد في مرحلة الخلوة ، ويطالبونه بذكر اسم الله المفرد (الله) ويلفتون نظره في المرحلة الأولى أن يقرأ الكون الظاهر كله باسم الله ؛ تحقيقاً لقوله تعالى - في رأيهم - ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾[1] . ثم في مرحلة لاحقة يطالبونه بقراءة الكون المغيب كذلك بهذا الاسم ، ثم في مرحلة لاحقة يطالبونه وهو يذكر اسم الله (الله) أن يلاحظ أولية الله ، وصمدانيته ، من خلال بعض المعاني ، وبذلك يكونون قد أعطوه بذور مقام الإحسان ، ويطالبونه بعد ذلك بالاستمرار على الذكر والأوراد ؛ حتى تنبت هذه البذور ، وتؤتي بعد ذلك ثمارها . ويقولون : لله طرائق على عدد الخلائق ، فقد يصل الإنسان إلى مقام الإحسان بصيغة أو بأخرى ما دامت الفرائض مؤداة ، والإقبال على الله موجوداً ، والعلم إمام ، والشيخ الكامل يختصر الطريق .

فصل : في ذكر الاسم المفرد :

الاسم العلَم على الذت الإلهية هو لفظ الجلالة (الله) ولذلك سموه الاسم المفرد ؛ لأنه الاسم الوحيد الذي يدل على الله ذاتاً وصفات وأسماء وأفعالاً ، بينما غيره يدل على ذات وصفة ، ثم هو لا يسمى به غير الله ، فهو مفرد من بين الأسماء كلها . ولذلك فإن من قال : (الله) فقد ذكر الله عز وجل ،وحقق الأمر القرآني : ﴿ واذْكُرِاسْمَ رَبِّكَ ﴾[2] . فاسم ربنا هو الله ، فمن ذكره فقد ذكر الله بلاشك ولا ريب ، ومن نازع في ذلك فإنه مخطيء ، إنه عندما نقول : (سبحان الله) نكون قد سبّحنا الله ، ونزهناه ، وبالتالي ذكرناه ، وعندما نقول : (الحمد لله) نكون قد حمدنا الله ، وشكرناه ، وبالتالي ذكرناه . وعندما نقول : (الله) نكون قد ذكرناه ، وكما أن التنزيه في حد ذاته مطلوب ، وكما أن الشكر في حد ذاته مطلوب ؛ فذكر الله كذلك مطلوب ، ومن ذكر أي اسم لله عز وجل فقد ذكر الله . إن بعضهم يغالط في هذا المقام فيقول : لو أنك بدأت تذكر اسم إنسان (فلان فلان فلان) و (يافلان يافلان يافلان) فإنه يتضايق من ذلك ، ولا يكون لفعلك معنى ، وهذا قياس

---

(١) سورة العلق : ١ .

(٢) المزمل : ٨ ، الإنسان : ٢٥ .

خاطىء ، فإن ذكر الله مطلوب ، ونفع ذلك لنا كبير وكثير ؛ إذ أن ذكر الله هو الذي يوقظ قلوبنا ويحييها ؛ فأن نقول : (الله الله الله) فذلك ذكر لله ، وذكر نافع لقلوبنا ؛ لتبقى متذكرة ربها ، إن ذكر الله يتحقق بذكر أسمائه كلها ، والإنسان مأجور على ذلك ، قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾[1] . وقد رأينا في القرآن كيف أن الله عز وجل يذكرنا بأسمائه مرات ومرات ، لتبقى أسماؤه على ذكر منا ، فإذا رافق الذكر الدعاء أو معنى مطلوباً شرعاً كالاستغفار والتسبيح والتوحيد والحمد والتكبير والتعظيم فذلك ذكر وزيادة ، ومن خالف في جواز هذا أو هذا فإنه خاطىء ، فمعرفة الله تتعمق في قلوبنا من خلال كل الأذكار ، ومن خلال كل الدعوات المأثورة ، ومن خلال ذكر أسماء الله عز وجل كلها . ترى لو قال قائل : (الله رحيم) وكررها ليعمق في قلبه الشعور برحمة الله ، ولو قال قائل : (الله بصير) وكررها ليعمق في قلبه الشعور بأن الله يراه ، وهكذا في كل اسم لله عز وجل ليعمق في قلبه الشعور بالأسماء كلها ، هل يكون مأجوراً أو مأزوراً ؟ إن من يخالف في جواز مثل هذا من الأفضل ألا يدخل الإنسان معه في نقاش ، فإذا استقر هذا فإن اسم الله المفرد هو الذي تنطوي فيه كل الأسماء ، فلو أن إنساناً كرره ليستقر في قلبه الشعور بالذات الإلهية وصفاتها وأسمائها فمن أين يكون الإثم ؟ إن الأجر لاشك حاصل - بإذن الله - والأثر في القلب موجود - بإذن الله - قد يقول قائل : نحن لا نجد في السنّة تركيزاً على ذكر اسم الله عز وجل المفرد ، ونقول : إن في الكتاب والسنّة حضّاً عاماً على الذكر . وكثيراً ما ذكر الصحابة بصيغ لم يتلقوها من رسول الله ﷺ ، حبذها رسول الله ﷺ وشكرها ، فأي ذكر لله عز وجل سواء كان ذكر اسم أو كان تسبيحاً أو دعاء أو صلاة على رسول الله ﷺ أو غير ذلك ، فإنه داخل تحت العموميات العامة ، وصاحبه مأجور ومشكور . قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾[2] ولكن لماذا اعتبر أئمة السير إلى الله ذكر اسم الله المفرد أقرب طريق للوصول إلى مقام الإحسان ؟ إنهم يقولون : إنك عندما تسبح الله تتعمق في قلبك قضية التنزيه ، وعندما تحمد الله تتعمق في قلبك قضية الشكر وعندما تقول : (لا إله إلا الله) تتعمق في قلبك قضية التوحيد ، وهي قضايا كلها متفرعة عن استقرار معرفة الله في القلب ، فإذا قلت : (الله) وكررت ذلك حتى استقرت معرفة الله في القلب ، فإن تسبيحك وشكرك

---

(١) الأعراف : ١٨٠ . (٢) المزمل : ٨ .

وتوحيـدك يكون أكمل بكثير من تسبيح وتحميـد دون أن يكـون قلبـك مستيقظـاً على اسم الله ، ونحن مطالبون بأن نعمق في قلوبنا معرفة الله ، وتنزيهه وشكره وتوحيـده ، وهـذا يتم بشكل كامل إذا ذكرنا لفظ الجلالة (الله) مع ذكرنـا لبقيـة الأذكار الواردة في السنّـة ، وقـد اجتهد بعضهم أن ذكر اسم الله المفرد إنما هو ذكر مرحلة لنصل إلى المعرفة الذوقية التي تجعلنا نؤدي العبادات والأذكار والدعوات على كمالها . دعنا الآن ننظر إلى حكمة صيغ الذكر : لقـد حضّنا رسول الله ﷺ على ملازمة الاستغفار ، وعلى ملازمة الصلاة عليه ، وعلى الإكثار من صيغ بعينها . إنك لو تأملت حكمة تكرار صيغـة من هـذه الصيغ فـإنـك تجـد أحـد جوانب ذلك أن يستقر في القلب معنى معين ، فهذا القلب يحتـاج لكي تتعمق فيـه المعـاني إلى تكرار كثير .

إن القلب الذي لم تستقر فيه معرفة الله يحتـاج إلى أن يـذكر أسماء الله حتى تتعمق هـذه المعرفـة . ويقول أئمة السير إلى الله : إن الجلـوس مـع رسـول الله ﷺ يعطي الإنسـان من نورانيته مالا يمكن أن يأخذه هذا الإنسان من أحـد ، ومن ثم فنحن نحتـال لإيصـال القلب إلى قريب من هذه النورانية ، ولذلـك نطـالب بمثل هـذا النوع من الـذكر ، على أن من لم يرتح قلبه إلى هذا النوع من السير فأي نوع من الذكر - سواء كان قراءة قرآن أو أذكار بـأي صيغة - يوصله في النهاية إلى معرفة الله الذوقيـة ، وإلى مقـام الإحسـان ، والـذي أراه : أن الشيخ لا ينبغي أن يقيد نفسه إلا بالسنّة ، وأنـه ينبغي أن يبقى المريـد دائمـاً مرتـاحـاً إلى العمل الذي يكلفـه فيـه . وأنـا إذا عرضت قضيـة الاسم المفرد هـذا العرض المختصر لم أرد أن ألزم المسلمين فيه ، بل أردت أن أبين وجهات النظر في شأنه ، فإذا وجـد قلب لا يرتـاح إلاّ لاعتماد ما ورد فيه نـدب خـاص عن رسولنـا - عليـه الصلاة والسلام - في العمل فـإني أجلّـه وأحترمه ، بل وأدفع فيـه في هـذا الطريق ، ولكني لا أرى لـه ، ولا لنفسي الإنكار على مـا ليس منكراً .

إن ذكر اسم الله المفرد للوصول في القلب إلى حالة معينـة ، ثم للاستمرار بهـذا القلب على هذه الحالة ، هو بمثابة الـدواء والغـذاء المركّزين للقلب ، لا أكثر ولا أقل ، على أنـه في غير الذكر بهذا الاسم يوجد الغـذاء والـدواء كـذلـك . فـإذا اتضحت وجهـة النظر في أصل ذكر الاسم المفرد ، بقي أن نذكر أن هناك من يذهب إلى مندوبيـة ذكر الاسم المفرد لا

يرى جواز القصر في نطقه بأن يحذف حرف المد فلا يقال (الله) بدون مد ، وبعضهم لا يرى جواز مده أكثر من ست حركات في الوقف ، ونقول : إن نطق لفظ الجلالة بالقصر في تكبيرة الإحرام خاصة يبطل الصلاة على رأي أكثر العلماء ، فهم لا يكتفون باعتبار ذلك لحناً في هذا المقام ، بل يجعلونه لحناً مبطلاً للصلاة ، ولكن في حاشية الشهاب على البيضاوي ما يلي : (وقال الأسنوي رحمه الله : إنه لغة حكاها ابن الصلاح عن الزجّاج فلا لحن فيه حينئذ ، وفي التيسير إنه لغة جائزة في الوقف دون الوصل ، والأفصح إثباتها ، وإنما تملح به المولدون في أشعارهم كثيراً ... إلخ) . وأما مد لفظ الجلالة فقد توسع فيه الفقهاء ، حتى إن بعض فقهاء الشافعية أجازوا مدها في تكبيرة الإحرام حتى الأربع عشرة حركة ، وبعضهم أجاز مدها أكثر من ذلك . وأخيراً نقول : إنه قد ورد تكرار لاسم الله المفرد في أكثر من حديث ، فمن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تقوم الساعة على أحد يقول : الله الله »[1] ، ومن ذلك ما علمنا إياه رسول الله ﷺ أن نقوله حين الغم : « الله ، الله ربي ، لا أشرك به أحداً »[2] .

فصل : في الذكر :

قال تعالى عن الصلاة : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾[3] وقال أثناء الكلام عن عبادة الصوم : ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾[4] ، وقال تعالى أثناء الكلام عن الحج ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ ﴾[5] وقال تعالى في معرض الكلام عن رمي الجمار : ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ﴾[6] وهكذا نرى أن العبادات ذكر ، أو معنى لإقامة الذكر ، أو معنى يساعدنا على الوصول إلى الذكر ، ولذلك قلنا من قبل : إن ركني السير إلى الله إنما هما الذكر والعلم ، وإذا أردنا أن نفصّل نقول : إن المطلب الأعلى من الإنسان هو التقوى ، والتقوى لا تنال إلا بعلم وعبادة ، ولقد قالوا :

وكل من بغير علم يعمل ... أعماله مردودة لا تقبل

والعبادة هي الطريق إلى التقوى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن

(١) رواه مسلم والترمذي .

(٢) رواه أبو داود وهو حديث حسن .

(٣) طه : ١٤ .

(٤) سورة البقرة : ١٨٥ .

(٥) الحج : ٢٨ .

(٦) سورة البقرة : ٢٠٣ .

قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[١] والتقوى هي التي بها ننال رضوان الله ، قال تعالى : ﴿ لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ ﴾[٢] والعبادة ذكر أو معنى يقام به الذكر ، ومن ههنا ندرك أهمية الذكر في دين الله ...

ثم إن التأسي برسول الله ﷺ طريقه الذكر ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً ﴾[٣] ورسول الله ﷺ سيد العارفين والواصلين ، على أن سيره ووصوله غير سير السائرين ووصول الواصلين ، وإن كان للسائرين حظ من سيره ووصوله ، ولئن كان جزء السير التحقق بأسماء الله ، ولئن كانت مراحل السير تتم بالانتقال من فناء إلى فناء ، فإن الذكر هو وسيلة ذلك كله .

وإذن فالحكمة من الصلاة الذكر ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ﴾[٤] ، والله عز وجل بيّن الحكمة من الأمر بالصوم فقال : ﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٥] فمن الحكم التي يحققها الصوم أن يعظم الإنسان الله عز وجل على هدايته ، وذلك ذكر ، وعندما ذكر الله عز وجل الحج قال : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ ﴾[٦] فالذكر مراد من فريضة الحج ، ثم إن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمنكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾[٧] وقال واصفاً المنافقين : ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[٨] وقال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح « مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت »[٩] . وإذا كان هذا شأن الذكر وإذا كان هذا شأن الصلاة فيه ، فلنتحدث حديثاً شاملاً عن الصلاة ثم نعقبه بحديث عام عن الذكر :

نلاحظ ملاحظة أولية أن كل أمر لله عز وجل بنوع من الذكر قد تضمنته الصلاة ، لذلك فإن الصلاة هي أكمل مظهر من مظاهر تنفيذ أوامر القرآن بالذكر ، فهي المظهر

(١) سورة البقرة : ٢١ .
(٢) الحج : ٣٧ .
(٣) الأحزاب : ٢١ .
(٤) طه : ١٤ .
(٥) سورة البقرة : ١٨٥ .
(٦) الحج : ٢٧ ، ٢٨ .
(٧) العنكبوت : ٤٥ .
(٨) النساء : ١٤٢ .
(٩) رواه البخاري .

الأعلى والأكمل لـذكر الله عـز وجـل ، عـدا عن كـونهـا المظهر الأعلى للعبـادة العمليـة ؛ بمـا تضمنته من ركوع وسجود وقنوت ، ومن ثم فالكلام عن الصلاة في موطن الكلام عن الـذكر يعتبر البـدايـة الصحيحـة لكل كـلام . لقـد أمر الله عـز وجـل المسلم بـالتسبيح والتكبير ، وقراءة القرآن في الصلاة ، والصلاة على رسول الله ﷺ ، والسلام عليـه ، والحمـد والاستغفـار والدعاء ، وكل ذلك ذكر ، ولكل ذلك أثره في النفس البشرية وتزكيتها ، وتعرفهـا على الله عز وجل ، وكل ذلك في الصلاة أو في الأذكار المحيطة بها ، ولـذلـك كانت الصلاة هي الأداء الكامل للـذكر ، ومن ثم جعل الله عز وجل الصلوات الخمس فريضـة ، وسّن لنـا رسـول الله ﷺ من السنن والنوافل للراغب في مزيد الخير ما يكمل ...

من الأوامر القرآنيـة في الـذكر قولـه تعـالى ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴾[1] وقـد جعل الله تكبيرة الإحرام في الصـلاة فريضـة ، وتكبيرات الانتقـال من القيـام إلى الركـوع ، ومن القيـام إلى السجود ، ومن السجود إلى الجلوس سُنناً ، وسنّ لنـا رسول الله ﷺ أن نكبر الله عز وجـل ثلاثـاً وثلاثين بعـد كل فريضـة ، وفي ذلـك كلـه تعليم وتـأكيـد أن الله أعظم من كل شيء . ومن الأوامر القرآنية قوله تعـالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾[2] وقولـه تعـالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾[3] .. ومن التقريرات القرآنيـة ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾[4] وتبـدأ الصلاة بدعاء الثناء « سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك » . وفي ركوعنا نقول : « سبحـان ربي العظيم » وفي السجود نقول « سبحان ربي الأعلى » ونسبح بعد كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة ، ولما كانت الصلوات الخمس والنوافل المطلقة تَسَع ساعات كثيرة من الليل والنهار ، فإنك تجـد أن الصـلاة تحقيـق عملي لهـذه الأوامر ، ومن خـلالهـا يتعمـق في النفس البشريـة تنزيـه الله سبحانه وعلوه وعظمته واستحقاقه الحمد لأنه هو المنعم .. ومن الأوامر القرآنية قولـه تعـالى : ﴿ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾[5] أي من القرآن ومن المعلوم أن القرآن ذكر ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[6] وقرأة القرآن ركن من أركان الصلاة ، والله عـز

(١) الإسراء : ١١١ .
(٢) سورة الأعلى : ١
(٣) الواقعة : ٧٤ .
(٤) الروم : ١٧ ـ ١٩
(٥) المزمل : ٢٠ .
(٦) الحجر : ٩ .

وجل أمرنا أن نحمده قال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ ... ﴾[١] ومن أذكار الصلاة « سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد » والله عز وجل أمرنا أن نصلي ونسلم على رسول الله ﷺ ، وفي الصلاة « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد » والله عز وجل أمرنا بالاستغفار ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾[٢] وقد سن لنا رسول الله ﷺ أن نقول بعد كل فريضة : أستغفر الله ، أستغفر الله ، أستغفر الله ، وهكذا نجد أن الصلاة وأذكارها تستوعب أمهات الأذكار فهي فريضة تتحقق بها أعظم الأوامر بالذكر ، كما أنها تحقق أوامر أخرى كالأمر بالركوع والسجود والقنوت وغير ذلك ، ولذلك كانت الصلاة عمود هذا الدين الذي لا يقوم إلا به كما قال عليه الصلاة والسلام : « رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد .. »[٣] ومن ثم لا يكون الإنسان ذاكراً إلا بالصلاة ، وبالصلاة يُكتب الإنسان من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات . فالصلاة تنزيه لله عز وجل وشكر له وعبودية له وخضوع له وتذلل له . والمظهر الأول للقيام بالتكليف ، وبمجرد أن تفعلها النفس البشرية فإنها مباشرة تنتقل من طور إلى طور ، من طور الكبر والعجب والعنجهية والغرور ، إلى أضدادها من الصفات الجيدة ، فهي نقلة للنفس البشرية من إطار إلى إطار ، ومن وضع إلى وضع ، وإذا كان هذا مقام الصلاة في الإسلام ، ومقامها من الأمر بالذكر ، فلابد من أن نأخذ صورة عنها كركن ركين في قضية الذكر .

الصلاة منها الفرائض ، ومنها النوافل ، ومنها الذي يتكرر يومياً ، ومنها الذي يأتي أسبوعياً ، ومنها الذي يتكرر سنوياً ، ومنها الذي يكون بمناسبة ، وللصلاة أذكارها التي هي جزء منها ، وأذكارها التي تسبقها ، أو تأتي بعدها ، وكل ذلك يصب في موضوع معرفة الله عز وجل ، وتزكية النفس البشرية ، مما يعمق موضوع القيام بالتكاليف الربانية كلها ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾[٤] وفي كتاب الأساس في السنّة عرض شامل للصلاة وأذكارها ، وإذا عرفنا محل الصلاة في قضية الذكر فلنعرف أن الذكر خارج الصلاة مكمل للصلاة ولمقاصدها ، وفي الوقت نفسه هو عامل تنعكس آثاره على إقامة الصلاة .

ومن خلال الحالة القلبية في الصلاة يعرف الإنسان حاله الحقيقي مع الله عز وجل ،

---

(١) الإسراء : ١١١ .
(٢) هود : ٣ .
(٣) من حديث رواه أبو داود .
(٤) العنكبوت : ٤٥ .

وبقدر ما يرتقي قلبه وتتعرف روحه على الله تكون صلاته مؤداة حقاً ، ومن ثم كانت الصلاة في حق رسول الله ﷺ قرة عين « وجعلت قرة عيني في الصلاة »(١) وإذن فبين الصلاة والأذكار تكامل ، فلا ذكر بدون صلاة ، والصلاة بدون أذكار يحيا بها القلب ، وترتقي بها الروح لا تكون خاشعة ، والأذكار إذا لم تكن جزءاً من سير صحيح إلى الله عز وجل لا تؤدي الحكمة الكاملة منها ، ولقلة السير الصحيح إلى الله عز وجل ضاع علم الخشوع الذي ذكر رسول الله ﷺ أنه أول علم يرفع من الأرض ، ومن ثم ندرك أهمية علم التصوف في الحياة الإسلامية عامة ولنتم الكلام عن الذكر .

بعد أن عرفنا أن الصلاة ذكر ، وعرفنا أن للصلاة أذكارها الداخلة فيها ، أو التابعة لها ، كالأذان والإقامة والدعاء بين الأذان والإقامة ، ينبغي أن نعرف أن رسول الله ﷺ كان يذكر الله على كل أحواله ، ومن ثم سنّ لنا رسول الله ﷺ أذكاراً تَسَع أحوال الحياة كلها ، فمنها الأذكار المرتبطة بزمان ، ومنها الأذكار المرتبطة بمكان ، ومنها الأذكار المرتبطة بفعل ، ومنها الأذكار المرتبطة بحوادث ، ومنها الأذكار اليومية ، ومنها الأذكار السنوية ، ومنها الأذكار الشهرية ، ومنها الأذكار العمرية ، ومنها الأذكار المطلقة عن العدد والزمان والمكان ، ومنها الأذكار المقيدة بعدد ، وأدب المسلم أن يعرف هذا كله ، وأن يحفظه ، وأن يأخذ حظه منه ، وقد ألّفت في هذا كتب خاصة ، وفي كتاب (الأساس في السنّة) عرض شامل لهذا كله . والملاحظ أن الذكر والدعاء يندمجان في بعض الحالات ، وكل ذكر هو دعاء عملي ، وكل دعاء هو ذكر لله ؛ لأنه يجمع مع الاعتراف المعرفة والافتقار إلى الله عز وجل ؛ ومن ثم كان « الدعاء هو العبادة »(١) ولما كان الهم الأول للسالك إلى الله عز وجل هو المداومة على الذكر ، ولما كان لا يسهل على كل إنسان أن يحفظ الكثير من الأذكار والدعوات في ابتداء أمره ؛ فقد درج أهل السير إلى الله عز وجل على اعتاد أذكار بعينها ، يأمرون بها المبتدىء لتكون ورده اليومي ، ومحل دأبه الدائم ، ومن ثم تعددت الطرق .. فطريقة اعتمدت أذكاراً بعينها ، وأخرى أذكاراً أخرى ، وكل طريقة تقول : إن أذكارها لها ميزاتها في موضوع السلوك ، والذي أقوله : إن المرشد الكامل وارث لرسول الله ﷺ ، وهذا الإرث يقتضيه أن يُحيي سنّة رسول الله ﷺ في باب الذكر ، كما يحييها في غير ذلك ،

---

(١) رواه النسائي وأحمد وإسناد حسن .

(١) حديث حسن صحيح رواه أبو داود والترمذي .

والتركيز على ذكر بعينه ليس عليه مأخذ ، ولكن ما يشيع في بعض الدوائر أن الإقبال على ذكر آخر غير الذكر المعتمد في الطريق يكاد يكون من الخطايا ، غلو في دين الله ، ومهمة الوارث الإخراج منه ، ونحب أن نقول : إن نقدنا ليس منصباً على حالات خاصة تعتبر ملازمة ذكر واحد من باب الدواء ، أو من باب الإيصال إلى معنى معين ، إلا أن هذه مرحلة قليلة بالنسبة إلى مجموع الزمن ، أما أن يعتبر ذلك هو الأصل الذي يكاد يحرم أن يرافقه غيره ، فهذا الذي نعنيه بكلمة (الغلو) والذي نحب أن نؤكده : هو أن الوارث مهمته الإحياء ، وطريقته يجب أن تكون طريقة رسول الله ﷺ ، فكما أن رسول الله ﷺ أعطى كل إنسان ما يناسبه ، وكما أن رسول الله ﷺ علّم المسلمين أنواع الأذكار بمناسباتها ، وكما أن رسول الله ﷺ أبقى لنا تراثاً في كل شيء ، فعلى الوارث أن يلاحظ ذلك . إن مجموع العبادات المفروضة والمسنونة ومجموع الأدعية والأذكار تعمق معرفة الله عز وجل في القلب ، كما أنها تؤدي واجبات الشكر له جل جلاله ، وإن القرآن هو المذكّر بالله عز وجل ، وهو المعرّف عليه ، وهو المعلّم لنا في كل شيء ، ومن ثم كان ذكراً خالصاً ، وعلينا أن نعطي أرواحنا حقوقها من هذا كله لكي نكون ذاكرين لله حقاً ، عارفين حقاً ، عبيداً له حقاً .

فصل : في التوسل :

عقد المنذري في كتابه الترغيب والترهيب فصلاً عنوانه (الترغيب في صلاة الحاجة ودعائها) وكان أول حديث ذكره في هذا الفصل هذا الحديث عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه : (أن أعمى أتى إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ادع الله أن يكشف لي عن بصري قال « أو أدَعُك » قال : يارسول الله إنه قد شق عليّ ذهاب بصري ، قال : « فانطلِقْ فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل : « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ﷺ نبي الرحمة ، يامحمد إني أتوجه إلى ربي بك أن يكشف لي عن بصري اللهم شفّعه فيّ وشفعني في نفسي » فرجع وقد كشف الله عن بصره) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح غريب والنسائي واللفظ له وابن ماجه وابن خزيمة في صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرط البخاري ومسلم وليس عند الترمذي « ثم صل ركعتين » ورواه الطبراني وذكر في أوله قصة ، وهي : « أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه في حاجة له ، وكان

عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته فلقي عثمان بن حنيف فشكا ذلك إليه فقال له عثمان بن حنيف : ائت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصلّ فيه ركعتين ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد ﷺ نبي الرحمة يامحمد إني أتوجه بك إلى ربي فيقضي حاجتي وتذكر حاجتك ورح إلي حتى أروح معك فانطلق الرجل فصنع ما قال له ثم أتى باب عثمان فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان فأجلسه معه على طنفسة وقال : ما حاجتك ؟ فذكر حاجته فقضاها له ثم قال : ما ذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة ، وقال : ما كانت لك من حاجة فأتنا ، ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال : جزاك الله خيراً ، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليّ حتى كلمته فيّ فقال عثمان ابن حنيف : والله ما كلمته ولكن شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل ضرير فشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبي ﷺ : أو تصبر ؟ فقال يارسول الله إنه ليس لي قائد وقد شق علي ؟ فقال له النبي ﷺ : ائت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ، ثم ادع بهذه الدعوات ، فقال عثمان بن حنيف : فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط » قال الطبراني بعد ذكر طرقه والحديث صحيح ، والطنفسة : إسم للبساط ، وتطلق على حصير من سعف يكون عرضه ذراعاً . يلاحظ من هذه النقول أن عثمان بن حنيف في زمن خلافة عثمان علّم إنساناً أن يتوجه إلى الله برسول الله ﷺ ، وذلك بعد وفاة رسول الله ﷺ ، مما يدل على أن الصحابة كانوا يرون جواز التوسل برسول الله ﷺ إلى الله بعد وفاته ، وقد رأينا قول الطبراني إن الحديث صحيح وهو حجة في باب جواز التوسل إلى الله برسله بعد وفاتهم .

قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾[1] أي فسموه بها ونادوه بها ، حاول بعضهم أن يفهم من هذه الآية أن الله عز وجل لا يُتوسل إليه إلا بأسمائه ، وحرم أن يُتوسل إلى الله عز وجل بأحد من خلقه كائناً من كان ، إلا إذا كان المتوسل به صالحاً ، وكان حياً ، وفهموا التوسل في هذا المقام أنه هو الدعاء ، وبناء عليه فقد حرموا التوسل بالأنبياء والرسل والصالحين ، ما داموا متوفين ، وقام جدل في هذا الشأن ، وحاول بعضهم أن يعطي هذا الجدل مضموناً اعتقادياً ، فاعتبر التوسل بغير الأحياء شركاً ، واعتبر بعضهم أن عدم رؤية

(١) الأعراف : ١٨ .

التوسل برسول الله ﷺ وبالأنبياء والصالحين أمواتاً أو أحياء زيغاً وضلالاً ، والرواية الصحيحة التي مرت معنا تدل على أن فكرة التوسل إلى الله برسوله عليه السلام كانت موجودة في جيل الصحابة بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وهي إحدى صيغ متعددة في كيفية الدعاء ، فأن يستعمل أحد الصحابة صيغة من الصيغ فذلك لا يدل على حرمة غيرها ، وبالتالي فإن مجموع هذه الصيغ جائزة شرعاً ، ولكن إذا ارتاح إنسان لصيغة من هذه الصيغ فلا عليه أن يلتزمها ، وإذا رأى أن الدليل لا يجيزها فلا عليه لو ناقش في ذلك كما يناقش في أي قضية فقهية ليس إلا ، ولذلك فإن الأستاذ البنا رحمه الله اعتبر الخلاف في هذا الموضوع من باب الاختلافات الفقهية ، وليس من باب الخلافات الاعتقادية ، فهي إذن في رأيه مسألة فقهية ، تتسع فيها وجهات النظر ، ويطالب بها الإنسان بما تطمئن إليه نفسه - إن كان من أصحاب الدليل - وإن كان من غير أهل الدليل فإنه يستطيع أن يقلد فيها أي مجتهد ، قال الأستاذ البنا رحمه الله في رسالة التعاليم في الفقرة (١٥) من بند الفهم : (والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة) وقد اشتدت الأطراف المتنازعة في هذا المقام على الأستاذ البنا بسبب موقفه هذا ، وهو موقف ظالم من الجميع ، ولو أن الجميع أنصفوا لاعتبروا كلام الأستاذ البنا هو النهائي ؛ إذ أن هذا الموضوع ليس من باب الأمور المعلومة من الدين بالضرورة ، والأدلة فيها تبقى من نوع الظنيات ، ظنيات الدلالة ، أو ظنيات الثبوت ، وإذن فللاجتهاد في هذا المقام نصيب ، ولكل مجتهد أجره ، وما اطمأنت إليه نفس الإنسان في هذا الشأن فلا عليه لو سار عليه ، وله أن يناقش غيره ، ولكن التكفير ، والتضليل ، في هذا الشأن خطأ ، وغلو وفي هذا المقام أكرر ما قلته أكثر من مرة : من أنه من توفيق الله عز وجل للأستاذ البنا رحمه الله أن استطاع أن يطرح صيغاً للعمل الإسلامي المعاصر يمكن أن تشكل القاسم المشترك الذي يلتقي عليه المنصفون في هذه الأمة ، ويمكن أن تكون المنطلق الصحيح لعمل إسلامي مشترك نحو أمة إسلامية واحدة ، ودولة إسلامية واحدة وصفة للمسلمين واحد .

فصل : في استغاثات الصوفية :

ألف في بعض دوائر الصوفية - وغيرهم - أن ينادي بعض الناس الصالحين أحياءً وأمواتاً

مستغيثاً بهم في تفريج كرب ، أو إزالة مكروه ، أو استجلاب نفع ، أو دفع ضرر . نرى مظاهر ذلك في الحياة العادية ، ونراه أثناء الأزمات ، ونراه بشكل دائم في بعض حلقات الذكر . ويستعملون في حلقات الذكر كلمة (مدد) فتجد هذه الكلمة تتكرر مرات كثيرة في حلقة الذكر أثناء النشيد ، وأثناء الذكر والنشيد ، وفيما بين فقرات النشيد (مدد ياسيدي فلان) (مدد ياسيدي فلان) ومن مظاهر هذا الاتجاه ما نجده في بعض الدوائر عند العامة ؛ إذ ينادون الخضر عليه السلام (ياخضر) (خضر الحي يرعاك) تقولها المرأة لطفلها أو لغيره ، وبعض الشيعة يتوسعون في هذا الموضوع ؛ إذ حتى ليكاد يكون خطابهم لبعض الأئمة له مظهر الدعاء الخالص ، ولعل ماوجد في دوائر الشيعة هو الذي منه تسللت هذه الأمور إلى دوائر من الناس بعد أن أعطوها مضموناً آخر ، وفسروها تفسيرات أخرى ، وإني أفرق في هذا الموضوع بين النداء الذي فيه طابع التوسل إلى الله ، فذلك له صلة في المسألة السابقة التي عرضناها في الفصل السابق ، فقد رأينا الحديث يقول : « يامحمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي » فهذا نص ثابت علمه رسول الله ﷺ للأعمى ، وقد خاطب الأعمى فيه رسول الله ﷺ على البعد بعد أن توضأ وصلى ، ثم علمه عثمان بن حنيف لصاحب الحاجة إلى عثمان ، فما كان من هذا القبيل فالخلاف فيه هو الخلاف في المسألة السابقة ، ومن ثم فإنني أفرق بين قول القائل : (يامحمد إشفع لي إلى ربك ليغفر لي) وبين قوله : (يامحمد اغفر لي) فالصورة الأولى جزء من موضوع التوسل ، وهذه صورة داخلة في موضوع فصلنا هذا ، وجزء من هذا الموضع ما نجده عند بعض من يزورون قبور الصالحين ، إذ نجدهم يطلبون منهم طلبات مباشرة (يافلان زوّجني) (يافلان اشفع لي) (يافلان بع لي غرضي) وأمثال ذلك مما تتعدد صوره وتكثر مسائله ، والأستاذ البنا وضع المسألة في إطارها الصحيح في هذا الموضوع فقال في الفقرة (١٣) و (١٤) من بند الفهم : (والأولياء هم المذكورون في قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية ، مع اعتقاد أنهم - رضوان الله عليهم - لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً في حياتهم أو بعد مماتهم فضلاً عن أن يهبوا شيئاً من ذلك لغيرهم . وزيارة القبور أياً كانت سنّة مشروعة بالكيفية المأثورة ، ولكن الاستعانة بالمقبورين أياً كانوا ، ونداؤهم لذلك ، وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد ، والنذر لهم ، وتشييد القبور ، وسترها ، وإضاءتها ،

---

(١) يونس : ٦٣ .

والتمسح بها ، والحلف بغير الله ، وما يلحق بذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها ، ولا نتأول لهذه الأعمال سداً للذرائع) إن من يدرس حياة رسول الله ﷺ يرى فيها أن حماية جناب التوحيد هي أهم قضية على الإطلاق ، ولا شك أنه حتى في حالة وجود نوع من التأويلات لمثل هذه النداءات فإنها على الأقل باب من أبواب الشرك في حق بعض الناس . إن الله عز وجل أمرنا أن ندعوا لمن سلف ، لأن ندعوهم ، فوصف المؤمنين بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾[1] وعلمنا رسول الله ﷺ في صلاتنا أن نقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . فعندما تصبح المسألة معكوسة ، فبدلاً من أن ندعو لهم ندعوهم فذلك هو الخطأ . والذي جعل هذا الخطأ ينتشر في بعض الدوائر شيئان :

الأول : أن بعض البلدان حكمتها الدولة العبيدية ، وبعض الناس تأثروا بالدعوة الباطنية بشكل عام ، وعند هؤلاء تصور عام حول الإمام من معرفته للغيب ، وسماعه لنداءات الخلق ، وإنك لتجد في كلام هؤلاء الكثير من مثل هذا ، وللأسف فإن كثيرين من تلاميذ شيوخ الصوفية يعتبرون شيوخهم كذلك ، ونحن لا ننكر الكشف ، ولكن أن يعتبر الشيخ عالماً بكل شيء ، وأنه في كل الحالات مستشرف على شؤون العالم ... إن مثل هذه الاتجاهات لو ادعاها إنسان فإنه يكون قد ادعى مقاماً فوق مقام النبوة والرسالة ، ومن درس حياة الرسول ﷺ ، ومجموع أقواله ، ومجموع ما قاله القرآن في رسولنا عليه الصلاة والسلام ، أدرك أن ما ذكرناه هو من باب البديهيات ، نحن لا نستعظم على قدرة الله شيئاً ، ولكن من باب الواجبات الشرعية ألا نعطي مخلوقاً أكثر مما أعطاه الله عز وجل ، فأن يدعي إنسان من المقامات مالا يعطاه الأنبياء والمرسلون فهذا هو الضلال بعينه ، إن تصوري العام أن حلقات الصوفية تسلل إليها موضوع النداءات للأولياء والشيوخ من بعض دوائر التشيع بدليل أن لفظة (مدد) التي يستعملها الصوفية هي لفظة شيعية في الأصل ، والعجيب أن تجد بعضهم إذا قال الشيعي : (مدد ياعلي) كفره وهو يقولها بكل راحة ، زاعماً أن تصوراته غير تصورات ذلك ، وصحيح قد تكون التصورات مختلفة ، ولكن جناب التوحيد مخدوش في الحالتين ، ومما تعجب منه الشيخ أبو الحسن الندوي وسجله في كتاب

---

(١) الحشر : ١٠ .

(مذكرات سائح في الشرق العربي) أنه رأى على باب أحد شيوخ الطرق في السودان حلقة ذكر يقول : أهلها : (مدد ياسيدي حسن أنت سلطان الزمن) فعجب كيف يسكت الشيوخ على مثل هذا الذي يخدش جناب التوحيد .

في رأيي أن التأثر ببعض دوائر التشيع هو السبب الأول في انتشار هذه العادة في دوائر الصوفية ، وإن البديل عن ذلك كله هو (مدد يا رب) ، (مدد ياالله) ، (اللهم مدد) وهكذا ...

وأما السبب الثاني في وجود هذه الأمور في دوائر الصوفية فهو وجود روايات قيس عليها حيث لا ينبغي القياس فلنر هذه الروايات :

١ ـ أخرج الطبراني في الكبير بإسناد قال عنه صاحب مجمع الزوائد : ورجاله وثقوا على ضعف في بعضهم إلا أن يزيد بن علي لم يدرك عتبة : عن عتبة بن غزوان رفعه إلى رسول الله ﷺ قال : « إذا أضل أحدكم شيئاً أو أراد أحدكم عوناً وهو بأرض وليس بها أنيس فليقل : ياعباد الله أعينوني ، ياعباد الله أعينوني ، ياعباد الله احبسوا » فإن لله عباداً لا نراهم وقد جرب ذلك .

٢ ـ وأخرج الطبراني والبزار بإسناد قال عنه صاحب مجمع الزوائد ورجاله ثقات : عن ابن عباس رفعه إلى رسول الله ﷺ : « إن لله ملائكة في الأرض سوى الحفظة يكتبون ما يسقط من ورق الشجر فإذا أصاب أحدكم عرجة بأرض فلاة فلينادِ أعينوني عباد الله » .

٣ ـ أخرج أبو يعلى والطبراني في الكبير بإسناد قال عنه صاحب مجمع الزوائد : وفيه معروف بن حسان وهو ضعيف عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال : « إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فليناد ياعباد الله أحبسوا فإن لله حاضراً في الأرض سيحبسه » هذه مجموعة الروايات التي استند إليها الصوفية في توسعاتهم في قضية نداءات الشيوخ والأولياء والطلب منهم ، وهي روايات إذا حققتها وجدتها لا تصلح لهم حجة في شيء ؛ فالحديث الأول منقطع ولا يصلح للاحتجاج به ، خاصة في قضية مرتبطة بالعقائد ، والحديث الثالث ضعيف لا تقوم به حجة في قضايا الفقهيات ، فضلاً عن قضية مرتبطة بالعقائد ، وأما الحديث الثاني وهو الذي يرتقي إلى رتبة الحسن فإنه يتحدث عن الملائكة . فالنص فيهم ،

فأن نحمله على غيرهم فذلك خطأ ، ثم إن قضايا الغيب تحتاج إلى نصوص أين النصوص التي تقول : إن فلاناً كذا ، أو أن فلاناً كذا ، وقضايا الغيب لا تدخل في باب القياسات الفقهية أصلاً ، إن هذا الموضوع يجب أن يستأصل من دوائر التصوف وغيره استئصالاً ؛ لما يترتب عليه من خدش لجناب التوحيد ، على أنه مع وجود التأويل وما رأيناه من بعض متكآت لأصحاب ذلك ، علينا أن لا نتسرع في التكفير والرمي بالشرك إلا حيث كان الرمي في محله واضحاً برهانه ، بينةً حجته .

فصل : في « ما يسمى شطحات الصوفية » :

من أعظم المآسي ومن أفظع الانحرافات في تاريخ الإسلام والمسلمين ما أدخله الناس تحت عنوان (شطحات الصوفية) ، فإنه من الطامّات الكبرى ، والدخن الفظيع ، والبلاء العظيم ، نتبرأ إلى الله ممن لا يبرأ من ذلك . سئلت عائشة رضي الله عنها كما ورد في حديث صحيح : «.هل رأى محمد ﷺ ربه عز وجل ؟ قالت : سبحان الله لقد قفّ شعري لما قلت .. »[1] .

مع أن هذه القضية خلافية ، فقد اقشعر من ذكرها جلد أُمّنا رضي الله عنها ، فبالله عليكم لو أن عائشة رضي الله عنها سمعت من يقول : إن محمداً ﷺ هو الله ، فكيف يكون موقفها ، فبالله لو أن أحداً من الصحابة سمع إنساناً يقول عن نفسه : (أنا الله) فماذا يكون الموقف ؟ فوالله لا يكون الموقف منه إلا السيف يقطع رقبته ، ولقد كان موقف المسلمين من هذا الموضوع هو هذا في كل العصور المشهود لها بالخيرية ، عصر الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ، بل حتى فيما بعد ذلك ، حتى قتلوا الحلاج . ذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء وفيها : أي في سنة (٣٠١) هجرية أدخل الحسين الحلاج مشهوداً على جمل إلى بغداد فصلب حياً ونودي عليه : (هذا أحد دعاة القرامطة فاعرفوه ثم حبس إلى أن قتل في سنة تسع) ويقول كذلك السيوطي في نفس الكتاب : (وفي سنة تسع أي بعد الثلاثمائة قتل الحلاج بإفتاء القاضي أبي عمرو والفقهاء والعلماء أنه حلال الدم وفي أحواله السيئة أخبار أفردها الناس بالتصنيف) والملاحظ أن ما بين سجنه وقتله كان حوالي تسع سنين مما يدل على أنه

(١) أخرجه البخاري . ومسلم والترمذي . قفّ الشعر : وقف في منابته .

لم يتسرع في قتله ، فإذا كان الأمر كذلك حتى مقتل الحلاج ، وقد أجمعت الأمة على وجوب قتله ، أليس ذلك دليلاً على أن صدر هذه الأمة مجمع على لعنة من يتجرأ على الله بمثل ذلك ؟ وللأسف الكبير فإن هذا الذي قاله الحلاج فأجمعت الأمة على قتله به أصبح فلسفة تقرر ، وعلماً يدرس ، حتى وجد من يذكر أنه متى يجوز للإنسان أن يقول : (أنا الله) ومتى لا يجوز . ألا لعنة الله على من لا يتبرأون ممن لا يتبرأ من مثل هذا ، أن يشهد الإنسان أن كل شيء فعل الله - ومن جملة ذلك أفعال الإنسان نفسه - هذا شيء ، وأن يقول الإنسان عن نفسه : أنا الله فهذا شيء آخر . أن يشهد الإنسان أن كل شيء قائم بالله هذا شيء ، وأن يقول إنسان عن نفسه : (أنا الله) هذا شيء آخر ، إنه لمن عمى القلب والبصر والبصيرة أن يستمر مثل هذه الطامات في الأمة مهما كانت التبريرات والتأويلات : ألا يخجل هؤلاء من الله ، ومن عباد الله وهم يتشدقون بمثل هذا الكلام ؟ لقد قال ربنا ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾[1] وهؤلاء يريدون أن نسلم للواحد حاله وهو يقول (أنا الله) فأي جهل هذا وأي كفر هذا وأي دخن وأي دغل ؟ وكيف يستريح قلب لسماع مثل هذا الدنس النجس ، ويعتبر هذا علماً ؟ تالله ما هو إلا تلبيسات الشيطان ووساوسه ، وتالله لا أرى لهؤلاء إلا القتل إن أصروا على هذه التشدقات والدعاوي ، ولنر بعض ما يتمسك به هؤلاء الضالون : يقولون إن الحديث القدسي الصحيح يقول : « من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه »[2] أقول : هل هذا مما يتمسك به كدليل على أنه يجوز للإنسان أن يقول عن نفسه إنه الله ، والحديث نفسه يقول : وما يزال عبدي يتقرب إلي ... أيعمون عن كلمة (العبد) ويتمسكون بقضية مجازية ليقولوا كلمة هي الكفر بعينه ، ويقولون : إن الحديث القدسي يقول : « يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ؟ أما علمت لو عدته لوجدتني عنده ، يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني . قال : يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك

---

(١) المائدة : ١٧ . (٢) رواه البخاري .

عندي ... »[١] أقول : هل هذا مما يتمسك به كدليل على مثل هـذا والحـديث نفسـه يقول مرض عبدي فلان ، أيعمون عن كلمة (عبدي) ويتجرأون على الله هـذه الجرأة ، لقـد قـال الله عز وجل مبيناً أن خلافته عليه الصلاة والسلام عن الله كاملـة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾[٢] وقال جل شـأنـه ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾[٣] فهل يقول قائل بأن محمداً هو الله ، أو قال محمد ﷺ عن نفسـه ذلـك ؟ يـاويلاه يـاويلاه ، كيف يقر لمسلم قرار وهو يسمع مثل هذا الكفر ؟ وكيف يستروح قلبه لسماع مثل هـذا ؟ فهـذا رسول الله ﷺ من أنزله الله عز وجل هذه المنزلة يأمره أن يقول : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾[٤] وهؤلاء يقولون : (أنـا الله) فمتى تثور في قلـوب المسلمين عقيـدة الحـق الصـافيـة التي كانت عليهـا الأجيـال الأولى ، فيقتلـون من تجرأ على مثـل هـذا الكـلام لينقطـع دابر هـذا الكفر اللعين ، إن إجمـاع الأمـة منعقـد حتى مقتل الحلاج على أن قـائل مثـل هـذا الكـلام واجب القتل ، فكيف يصبح مثل هذا الكلام وكأنه اللغة العاديـة في كثير من الـدوائر ، إنـه لشيء مؤسف ، وإنه لشيء يجب أن تطهر منه هذه الأمة ، وذلك بإقـامـة حلقـات التصوف المحرر من الزيغ والدغل : قال حجة الإسلام الغزالي في إحيائـه : وأمـا الشطح : فنعني بـه صنفين من الكلام أحدثها بعض الصوفية أحـدهـا : الـدعـاوي الطويلـة العريضـة في العشق مع الله تعالى والوصـال المغني عن الأعمـال الظـاهرة ، حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحـاد ، وارتفـاع الحجاب ، والمشاهدة بالرؤية ، والمشافهـة بـالخطـاب فيقولون : قيل لنـا كـذا ، وقلنـا كـذا ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذي صلب لأجل إطلاقه كلمات من هـذا الجنس ويستشهدون بقوله : (أنـا الحق) وبمـا حكي عن أبي يزيـد البسطـامي أنـه قـال : سبحـاني سبحـاني وهـذا فن من الكلام عظيم ضرره على العوام ، حتى ترك جمـاعـة من أهل الفلاحـة فلاحتهم وأظهروا مثل هذه الدعاوي ، فإن هذا الكلام يستلـذه الطبع إذ فيه البطـالـة من الأعمال ، مع تزكية النفس بدرك المقـامـات والأحوال ، فلا تعجز الأغبيـاء عن دعوى ذلـك لأنفسهم ، ولا عن تلقف كلمـات مزخرفـة ، ومهما أنكر عليهم ذلـك لم يعجزوا أن يقـولـوا : هذا إنكار مصـدره العلم والجـدل ، والعلم حجـاب ، والجـدل عمل النفس ؛ وهـذا الحـديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق . فهذا ومثله مما قد استطـار في البلاد شرره ، وعظم

(١) رواه مسلم .
(٢) الفتح : ١٠ .
(٣) النساء : ٨٠ .
(٤) الكهف : ١١٠ .

في العوام ضرره ، حتى من نطق بشيء منه فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة ، وأما أبو يزيد البسطامي ـ رحمه الله ـ فلا يصح عنه ما يحكى ، وإن سمع ذلك منه فلعله كان يحكيه عن الله عز وجل في كلام يردده في نفسه ، كما لو سمع وهو يقول : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾(١) فإنه ما كان ينبغي أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية .

الصنف الثاني من الشطح : كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائعة ، وفيها عبارات هائلة ، وليس وراءها طائل ، وتلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط في عقله ، وتشويش في خياله ؛ لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه ، وهذا هو الأكثر ، وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها ، وإيرادها بعبارة تدل على ضميره ؛ لقلة ممارسته للعلم ، وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة ، ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أن يشوش القلوب ، ويدهش العقول ، ويحير الأذهان ، أو يحمل على أن يفهم منها معان ما أريدت ، ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه . ثم بعد كلام يقول الشيخ الغزالي : وأما الطامات فيدخلها ما ذكرناه في الشطح ، وأمر آخر يخصها ، وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة ، كدأب الباطنية في التأويلات ، فهذا أيضاً حرام وضرره عظيم ، فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها من غير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل ، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ ، وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ ، فإنه ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به ، والباطن لا ضبط له ، بل تتعارض فيه الخواطر ، ويمكن تنزيله على وجوه شتى ، وهذا أيضاً من البدع الشائعة العظيمة الضرر ، وإنما قصد أصحابها الإغراب ؛ لأن النفوس مائلة إلى الغريب ، ومستلذة له ، وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها ، وتنزيلها على رأيهم ، كما حكيناه من مذاهبهم في كتاب المستظهري المصنف في الرد على الباطنية ، ومثال تأويل أهل الطامات قول بعضهم في تأويل قوله تعالى : ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾(٢) إنه إشارة إلى قلبه وقال : هو المراد بفرعون وهو

---

(١) طه : ١٤ .

(٢) طه : ٤٣ .

الطاغي على كل إنسان ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾[(١)] أي كل ما يتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله عز وجل فينبغي أن يلقيه ، وفي قوله ﷺ : « تسحروا فإن في السحور بركة »[(٢)] ، أراد به الاستغفار في الأسحار ، وأمثال ذلك حتى ليحرفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره ، وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء ، وبعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعاً ، كتنزيل فرعون على القلب ، فإن فرعون شخص محسوس ، تواتر إلينا النقل بوجوده ، ودعوة موسى له ، كأبي جهل ، وأبي لهب ، وغيرهما من الكفار ، وليس من جنس الشياطين والملائكة مما لم يدرك بالحس ، حتى يتطرق التأويل إلى ألفاظه ، وكذلك حمل السحور على الاستغفار ، فإنه كان يتناول الطعام ويقول : « تسحروا » متفق عليه « وهلموا إلى الغذاء المبارك »[(٣)] فهذه أمور يدرك بالتواتر والحس بطلانها نقلاً ، وبعضها يعلم بغالب الظن ، وذلك في أمور لا يتعلق بها الإحساس ، فكل ذلك حرام وضلالة ، وإفساد الدين على الخلق ، ولم ينقل شيء من ذلك عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن الحسن البصري مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم فلا يظهر لقوله ﷺ « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » (الرواية المصروفة لهذا الحديث : من قال في القرآن بغير علم - وفي رواية - برأيه فليتبوأ مقعده من النار)[(٤)] ، معنى إلا هذا النمط ، وهو أن يكون غرضه ورأيه تقرير أمر وتحقيقه ، فيستجر شهادة القرآن إليه ، ويحمله عليه من غير أن يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظية لغوية أو نقلية ، ولا ينبغي أن يفهم منه أنه يجب ألا يفسر القرآن بالاستنباط والفكر ، فإن في الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والمفسرين خمسة معان وستة وسبعة ؛ وعلم أن جميعها غير مسموع من النبي ﷺ ، فإنها قد تكون متنافية لا تقبل الجمع ، فيكون ذلك مستنبطاً بحسن الفهم وطول الفكر ، ولهذا دعا ﷺ لابن عباس رضي الله عنه فقال : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل »[(٥)] (ومن يستجيز من أهل الطامات مثل هذه التأويلات مع علمه بأنها غير مرادة بالألفاظ وبرغم أنه يقصد بها دعوة الخلق إلى الخالق يضاهي من يستجيز الاختراع والوضع على

---

(١) القصص : ٣١ :

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه أبو داود والنسائي .

(٤) رواه الترمذي وغيره وصححه الترمذي وضعفه غيره .

(٥) رواه أحمد .

رسول الله؛ لما هو في نفسه حق ولكن لم ينطق به الشرع ، كمن يضع في كل مسألة يراها حقاً حديثاً عن النبي ﷺ ، فذلك ظلم وضلال ، ودخول في الوعيد المفهوم من قوله ﷺ : « من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »[١] . بل الشر في تأويل هذه الألفاظ أطم وأعظم ؛ لأنه مبطل للثقة بالألفاظ ، وقاطع طريق الاستفادة والفهم من القرآن بالكلية ، فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعي الحق عن القوانين المحمودة إلى المذمومة ، فكل ذلك من تلبيس علماء السوء بتبديل الأسامي ، فإن اتبعت هؤلاء - اعتماداً على الاسم المشهور - من غير التفات إلى ما عرف في العصر الأول كنت كمن طلب شرف الحكمة باتباع من يسمى حكيماً ، فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم في هذا العصر وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ . (إنتهى) . كلام الغزالي .

فصل : في بعض ما يصادفه السائرون إلى الله :

١ - مما يصادفه السائرون إلى الله عز وجل حالة : الملل والكلل ، وهي حالة تواجه العاملين إذا لم يعطوا لأنفسهم راحة في العمل ، وقد أشار إلى هذه الحالة الحديث الشريف الصحيح « خذوا من الأعمال ما تطيقونه فإن الله لا يمل حتى تملوا وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل »[٢] . وإذن هناك حالة من الملل تصيب القلب ، وقد قال الإمام علي رضي الله عنه (روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلت عميت) وهذا كله يفيد أن حالة الملل ينبغي أن يحتاط لها السالك إلى الله ؛ بأن لا يحمل نفسه فوق طاقتها ، وبأن يروح عن نفسه بإعطاء نفسه بعض حظوظها المباحة ، والحكيم ينوي في ذلك نية صالحة ، فتكون راحته استجماماً وعبادة ، كما أن الحكيم إذا ملت نفسه من عمل ينقلها إلى عمل آخر ، فإذا شبعت من التلاوة - مثلاً - اشتغل في الذكر ، وإذا شبعت من الذكر اشتغل في العلم ، وإذا ملت من نوع من العلوم اشتغل في نوع آخر ، وإذا شبعت من العلوم الشرعية اشتغل في المطالعة العامة ، وإذا شبعت من هذا كله اشتغل بالتفكير والتأمل ، وبعد إعطاء الأهل حقوقهم من واجبات الوقت ، وهذا موضوع يلفت النظر إليه ، ويصعب الإحاطة فيه . ومّما قاله ابن عطاء : (لما علم منك وجود الملل لوّن لك الطاعات ، وعلم ما فيك من وجود

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

الشره فحجرها عليك في بعض الأوقات ، ليكون همك الصلاة لا وجود الصلاة فما كل مصل مقيم) .

٢ - ومما يصادفه السائرون إلى الله حالتا : القبض والبسط ، وهما حالتان متعاقبتان على القلب تعاقب الليل والنهار ، ويفرق أئمة السلوك بين القبض النفسيّ الذي سببه الحزن على فوات شيء ، وبين القبض القلبي الذي سببه روحي ، وبين البسط النفسي الذي سببه تمتع النفس بأمر دنيوي ، وبين البسط القلبي الذي سببه روحي ، وعلى السالك إلى الله أن يتنبه كثيراً لهاتين الحالتين ، وأن يحسن استقبالهما وعلاجهما ، فقد يجره القبض إلى سوء أدب مع الحق أو الخلق ، وقد يجره البسط إلى سوء أدب مع الحق أو مع الخلق . وضبط الإنسان نفسه عند البسط أشق لذلك قالوا : (ولا يحافظ على حدود الأدب في البسط إلا قليل) . وفي حكمة القبض والبسط يقول ابن عطاء : (بَسَطَكَ كي لا يبقيك مع القبض ، وقبضك كي لا يتركك مع البسط ، وأخرجك عنهما كي لا تكون لشيء دونه ، العارفين إذا بسطوا أخوف منهم إذا قبضوا ، ولا يقف على حدوه) . والقبض النفسي سببه الجهل في الله ، وهو عقوبة قال تعالى : ﴿ **وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله** ﴾[1] . ولذلك قالوا : (لا تأتينا الهموم والغموم إلا من جهلنا بالحي القيوم) . وأما القبض القلبي فقد يكون تعريفاً بالله ، وقد يكون أثراً من استشعار القلب لخشية الله ، والبسط النفسي هو أثر من آثار جهل بالله ، أو أثر من تلذذ النفس بمتعة حلال أو حرام ، وهذا النوع من البسط على الإنسان أن يحتاط من شأنه كثيراً ، لأنه قد يكون أحياناً سبباً من أسباب مقت الله ، وفي قصة قارون درس : ﴿ **إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين** ﴾[2] . وأما البسط القلبي فهو أثر عن طاعة ، أو شعور بأنس ، أو غير ذلك من معان قلبية . قال تعالى : ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون** ﴾[3] . وعلى كل حال فلابد أن يراعي الإنسان حالتي القبض والبسط ؛ فيدرك أسبابها ، ويتحكم فيهما ، فقد يكون القبض أثراً من آثار تضييع حقوق الوقت ولذلك

---

(١) آل عمران : ١٥٤ .

(٢) القصص : ٧٦ .

(٣) يونس : ٥٨ .

قالوا : (من لم يراع الوقت فوقته كله مقت) .

٣ ـ مما يصادفه السائرون إلى الله حالتا : الفرق والجمع ، والمراد بالجمع : أن يكون قلب الإنسان مجموعاً على الله . والمراد بالفرق الحالة التي لا يكون فيها القلب مجموعاً على الله ، وأن يحس القلب بنوع من التشويش العام ، أو عدم الاطمئنان أو التشتت وهو على أنواع : منها أن يحس الإنسان بالخلق ويغفل عن الحق ، أو أن يحس الإنسان بقلق أو اضطراب أو تشويش أو شيء من هذا ، وأحياناً يعرف سبب ذلك ، وأحياناً لا يعرف . هاتان الحالتان تمران على السالك كثيراً ، أما غير السالك فإنه يكون في حالة فرق دائم ، لأن الأصل في حقه الغفلة ، حتى إذا استيقظ القلب ، وبدأ يستشعر حالات الفناء في الأفعال ، والفناء في الصفات ، والفناء في الذات ، عندئذ يمكن أن يحس بهذه الحالة ـ حالة الفرق أو الجمع ـ وأحياناً يصل الفرق إلى حالة من القوة يجد الإنسان نفسه فيها شبه عاجز عن أي عمل ، وأحياناً ينتقل الإنسان من حالة في الجمع تعتبر هي المقام الأرفع أو الرفيع إلى حالة في الفرق تكاد تكون وسوسة خالصة ، وفي مثل هذا المقام يقول ابن عطاء (ربما وردت الظلمة عليك ليعرفك قدر ما منّ به عليك) . ومن النصوص التي ندرك بها قضية الفرق والجمع وتعاقبهما على القلب هذا النص :

عن أبي قال : « كنت في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على النبي ﷺ فقلت : إن هذا قرأ قراءة فأنكرتها عليه فدخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه فأمرهما ﷺ فقرآ فحسّن شأنهما فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية فلما رأى ما قد غشيني ضرب في صدري ففضت عرقاً وكأني أنظر إلى الله تعالى فرقاً فقال لي : ياأبي أرسل إلي أن أقرأ القرآن على حرف ... »[1] . ففي هذا النص نجد فرقاً كبيراً أعقبه جمع عظيم .

ومن هذا النص ندرك أن للفرق أسبابه ، وللجمع أسبابه ، ومن هذه الأسباب ما نستطيع التحكم به ، ومنه ما لا طاقة لنا به ، والله عز وجل يقول ﴿ **واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه** ﴾[2] . والسالك إلى الله يحاول ـ إذا وقع في الفرق ـ أن يعرف

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي .

(٢) الأنفال : ٢٤

أسبابه ، وأن يتلافاها ، ويحاول ـ ما استطاع ـ أن يبقى في حالة جمع على الله . وبهذا ينتهي الباب الأخير من هذا الكتاب ، وبه ينتهي الكتاب .

وأستغفر الله على ما أخطأت ، وأشكره على ما أحسنت ، وأسأله لي ولشيوخي ولوالديّ وللمسلمين والمؤمنين والمؤمنات مغفرة منه ورحمة ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وسلم .

* * *

الفهرس

صدر للمؤلف

١ ـ الله جل جلاله .
٢ ـ الرسول صلى الله عليه وسلم .
٣ ـ الإسلام .
٤ ـ جند الله ثقافة وأخلاقاً .
٥ ـ جولات في الفقهين الكبير والأكبر .
٦ ـ من أجل خطوة إلى الأمام .
٧ ـ في آفاق التعاليم .
٨ ـ المدخل .
٩ ـ دروس في العمل الإسلامي .
١٠ ـ فصول في الإمرة والأمير .
١١ ـ كي لا نمضي بعيداً عن احتياجات العصر :
ـ منطلقات إسلامية لحضارة عالمية جديدة .
ـ أخلاقيات وسلوكيات تتأكد في القرن الخامس عشر الهجري .
ـ فلنتذكر في عصرنا ثلاثاً .
ـ إحياء الربانية .
ـ الإجابات .
ـ السيرة بلغة الحب والشعر .
ـ عقد القرن الخامس عشر الهجري .
ـ قوانين البيت المسلم .
ـ غذاء العبودية .
ـ إجازة تخصص الدعاة .
١٢ ـ تربيتنا الروحية .
١٣ ـ المستخلص في تزكية الأنفس .
١٤ ـ مذكرات في منازل الصديقين والربانيين .
١٥ ـ الأساس في التفسير .
تحت الطبع الأساس في السنة .

رقم الايداع : ٩٥/٥٦٣٢
I.S.B.N : ٩٧٧-٥٢٨٦-٢٠-٦